د. عمر الحمادي

البقاء للأعنف

نظرة في جذور الراديكالية

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
تساؤلات

البقاء للأعنف

نظرة في جذور الراديكالية

د. عمر الحمادي

الكاتب: د. عمر الحمادي

عنوان الكتاب: البقاء للأعنف: نظرة في جذور الراديكالية

X

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقامي

X

ر.د.م.ك: 978-9921-775-62-4

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022

2000 نسخة

X

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

X

منشورات تكوين

TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

إهداء

إلى فيروس كورونا

لا أظن أنه قد سبق وأُهدي كتاب ما إلى كائنات مجهرية، قد تجدها مستلقية على كتاب تنتظر فريستها القادمة قبل أن تخلد إلى الموت بسبب معقِّم كحولي، أرى نفسي مجبرًا على إهداء هذا العمل إلى فيروس كورونا، الذي قَلَب حياتي رأسًا على عقب، وجعلني أقف كثيرًا عند عبارةٍ تكونت في دماغي -بشكل تلقائي- تقول: إن لقاحات الأفكار لا تقل أهمية عن لقاحات الميكروبات. ما دفعني إلى بذل جهد أكبر من أجل الانتهاء من تدوين ومراجعة هذا الكتاب في أقرب فرصة.

كم أتمنى من المتطرفين أن يتعلموا من قصتك أن كثيرًا من الحروب يمكن تجنبها، وكثيرًا من المعارك يمكن انتقاؤها، وكثيرًا من العنتريات يمكن تخزينها في سلة المهملات، من أجل التخلص منها لاحقًا، وأن عالمنا صار مُهيئًا -أكثر من أي وقت مضى- للتعايش مع بني جنسنا.

شكرًا يا عدوي الحميم... لا جمعني اللّه بك ولا جمعك إلا بنهايتك!

التطرّف

مقدّمة قصيرة

أرجع إلى مواصلة كتابة هذا العمل بعد مرور عشرين سنة على أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وقد شرعت فيه في عام ٢٠١٥ مع ازدهار الحركة التي عرَّفت نفسها باسم (تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام) وعُرفت اختصارًا بـ«داعش» ISIS، التي أعلنت بعث الخلافة في رقعة جغرافية ممتدة بين العراق وسوريا، بعد أن كان أفرادها يخشون قضاء حوائجهم خارج مغارة تورا بورا الأفغانية خوفًا من قنص رؤوسهم.

عندما غادر رواد الفضاء إلى القمر في عام ١٩٦٩ تركوا وراءهم مجموعات بشرية مكللة بالأخطاء رغم القفزات الهائلة التي حصلت في العلوم والحقوق المدنية والأخلاق. كان هبوط مركبة الفضاء على سطح القمر متناقضًا مع الفوضى الموجودة على سطح الأرض الممتلئ بالاضطرابات والصراعات الثقافية التي تقف ضد توسيع البشر لإنجازاتهم وطموحاتهم.

في وسط هذا العالم المتنافر، خرجت موجة جديدة من الإرهاب والتطرف، تعلن صدام المتطرّفين مع مشاريع الحداثة والتنوير، الذين يعتبرون كل جديد تهديدًا لوجودهم وسلطانهم على الناس. استفادوا من أدوات الحداثة من أجل نخرها وتحطيمها، وأعلنوا توحشهم على منجزات الحضارة الحديثة لكونها غريبة على تعاليمهم ومعتقداتهم التي لم يعرفوا غيرها.

إنهم المذعورون من تقدّم المجتمع الديناميكي الذي تتوسع تقنياته لتغزو المجتمعات الجامدة والساكنة، ما يُعرِّض صلابة ماضيها لخطر الذوبان والنسيان، مع وجود فرص

كبيرة للناس للتحول إلى تبني فلسفات أخرى بعد تخليهم عن الطموح والأمل الإيديولوجي كما يعبر الكاتب الأمريكي (روس داوثت)(١).

صندوق باندورا

يقول عالم النفس (جوناثان سميث) في كتاب (العلم الزائف)، إن الناس ينفقون الملايين في سبيل العلاج من خلال التحكم في مجالات الطاقة والقراءات الروحية والعلاج بالإيمان، وقد يُقدِم البعض على عمليات انتحارية وقتل الناس مدفوعين بالوعود الأُخروية المجزية، فماذا نحن فاعلون إزاء هذا العالم من الادعاءات الاستثنائية التي هي ذاتها في حاجة إلى أدلة استثنائية لدحضها؟ فلا أحد يريد لصندوق الشرور -الذي يُسمى في الميثولوجيا اليونانية «صندوق باندورا»- المليء بالمخاطر والمصائب المجهولة أن ينفجر في وجه الجميع(٢).

تصبح المعتقدات الخارقة خطرة عندما تُعتنق بحماسة مطلقة، وخصوصًا إن كانت هذه المعتقدات عالية المستوى، فبعض أصحاب المذاهب يميلون إلى الصدامية عندما يريدون تطبيق الادعاءات الخارقة على أرض الواقع. يكشف التاريخ أن العقيدة الجامدة والمتطرّفة لها قوة باقية لا يمكن إنكارها، وهي مستمدة من مكاسبها النفسية التي تتضمن الراحة النفسية، فالاعتقاد المتصلب يقلل من التنافر الإدراكي والقلق العقلي ويمنح الإنسان راحة نسبية في مساحة تفكيره وتأمله(٣).

وجدت دراسة في عام ٢٠٠٧ أنه رغم تبديد العلم للسحر وتقديمه تفسيرات مادية وبيولوجية وكيميائية فإن الناس ما زالوا يواظبون على تقبل المئات من الطقوس الصغيرة اليومية التي يعترفون بأنها أمور لا عقلانية، فالإحساس بامتلاك قوى خاصة يرفع من الروح المعنوية للناس ويساعد على الحدّ من المخاوف اليومية وتفادي الاكتئاب الذهني.

يقول العلماء إنه مع تطور البشر إلى حيوانات اجتماعية ووصولهم إلى مستويات مرتفعة من الذكاء بعد الخضوع لفترة طويلة من الرعاية الأبوية(٤)، صار عليهم أن يحلوا مشاكلهم الأساسية عن طريق تكوين علاقات مع الآخرين. في السياق الاجتماعي هناك ميل إلى طاعة السلطة، يواجه الطفل ثلاثة أسئلة: «من المسؤول عن هذه الأمور؟ ماذا يريد هو أو هي؟ ماذا أفعل أنا؟».

يفترض الباحثون وجود ثلاثية تتحكم في القيم الأخلاقية التقليدية عند الإنسان، فالآباء يمرّرون الجينات التي قد تؤثر على السلوك سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر، والآباء يتحتّم عليهم توفير بيئة تستطيع تنشئة واحتواء أطفالهم، مدى تأثير هذين السببين على تنمية النزعة السلطوية يبقى سؤالًا خاضعًا للبحث. رصد الباحثون في علوم السلوك ثلاث نزعات تحكُم الإنسان؛ النزعة الدينية: من يتحكم في الكون؟ ونزعة المحافظة: كيف ينبغي تنظيم المجتمعات؟ والنزعة السلطوية: كيف ينبغي تنظيم العائلات؟

بين هذه النزعات، صار الناس يتساءلون عن دوافع المتطرّف للتوحش بدون أن يتردد أو يردعه وازع داخلي، هل السبب هو معتقده وتراثه الديني؟ بيئته الاجتماعية؟ وضعه الاقتصادي المتردي؟ تركيبته الجينية والبيولوجية؟ أم علة مرضية عضوية في دماغه؟ هذا ما نريد التعرض له في هذا الكتاب، لكن قبل ذلك، دعونا نلقي نظرة على بعض ملامح التطرّف الموجودة في عالمنا حتى ندرك أشكال وأنواع بذور الفتنة قبل محاولة تجفيف ثمارها، فالوقاية كانت -وما زالت وستبقى- خيرًا من العلاج.

فن التلاعب بالأرواح

اعتلى أول خليفة في القرن ٢١ منبر مسجد الموصل في مشهد دراماتيكي ليعلن بروتوكولات حكماء «داعش»، مرتديًا ساعة «رولكس» تبلغ قيمتها ستة آلاف دولار ربما تكون غنيمة غزوة ناجحة، أو هي ساعة مقلدة اقتناها من أحد أسواق النخاسة التي لا تعترف بالملكية الفكرية لكفار الروم والفرس. بعد الكرّ والفر مع العالم المتحضر، انزوت

راية «داعش» في العراق والشام لا سيما بعد ارتفاع راية الكورونا في مطلع سنة ٢٠٢٠، وصار شعار المرحلة: لا صوت يعلو فوق صوت المعركة مع الفايروسات التي لا تفرق بين صديق وعدو، ولا بين إنسان عاقل أو إرهابي. ثم مع انكماش الجائحة رجع الناس إلى ما كانوا عليه قبلها، ورجعت إلى الظهور المركزيات التي اختفت بسبب رذاذ وغبار الفيروسات.

مع انبهار مؤيدي التيارات المتطرّفة بتجلي الخليفة «الداعشي» لهم، يظهر على السطح سؤال: هل يصنع الأفراد قائدهم أم أنهم صنيعة كاريزما ذلك القائد؟ يتحدث عالم النفس والفيلسوف (إرنست بيكر) في كتابه الأهم (إنكار الموت) عن شخصية (المانا)، التي هي شخصية مهيمنة على «لا وعي» الناس وقد تتمثل في صورة زعيم أو ساحر أو قديس تحوّله إلى بطل شبيه بالإله في صفاته، يرسم الأتباع لهذا الكائن البشري هالات مشعة لا توجد إلّا في عين الناظر المُقدس له، وهم مستعدون للانخراط في جماعات من ورائه كالأطفال الذين يحرّكهم الصوت الداخلي لآبائهم، إنهم في توقٍ إلى أن يُنوَّموا من أجل الحصول على ذلك الشعور الغامر بالحماية تحت رعاية والديهم، وهم لا يشعرون بالوحدة والتفاهة والعجز لأنهم منعمون بالقوى الجامحة لقائدهم الذي لا يشعر بالخزي والإذلال الذي يقيّد جماهيره. وإذا ما فُقد هذا القائد فقد يتصرف أتباعه بطريقة هيستيرية بسبب فقدان الحصن المضاد لليأس.

إنها علاقة تبادلية بين القائد والتابع الذي يمهد الطريق لبناء التخليد الجمعي للبطل، حتى الشيوعيين الذين أغلقوا الكنائس والمعابد لم يقووا على فراق قائدهم (لينين) فقاموا بتحنيطه ودفنه بجانب حائط الكرملين ليكون مزارًا معظَّمًا لهم يزيل عنهم مخاوفهم المقدسة(٥).

الإرهابيون هم سادة فنّ التلاعب بالأرواح كما يعبر المفكر والمؤرخ (يوفال هراري)، إنهم يقتلون قليلًا من الناس ويروعون مليارات آخرين، ويهزون الأجهزة السياسية في الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة. يقضي مرض السكّري على ٣.٥ مليون شخص كل عام ويقتل

تلوث الهواء ٧ ملايين، بينما يُقتل ٢٥ ألف سنويًا، إلا أن الخوف من الإرهاب أكبر من الخوف من السكري والتلوث وحوادث المرور، وقد يغير حكومات منتخبة. إستراتيجية الإرهاب هي نشر الخوف بدلًا من التسبب في أضرار مادية، فالمجموعة الضعيفة لا تستطيع إلحاق أضرارًا مادية كبيرة بأعدائها كما تفعل الحروب التقليدية، هم مثل ذبابة تحاول تدمير متجر خزف، تتركز إستراتيجيتها في الزنّ في أذن الثور الذي يصاب بالذعر ويبدأ بتدمير المتجر(٦).

هم لا يملكون خيارًا غير تقديم عرضًا مسرحيًا من أجل استفزاز العدو والتسبب في ردة فعل مبالغ فيها، تصوير مشهد حرق طيار يزرع الخوف في قلوب ملايين الناس ويضطر الحكومات إلى إظهار عظمة الأمن والمبالغة في التدابير الوقائية، إنهم يأملون أن يقوم العدو بإعادة خلط الأوراق وتسليم الإرهابي -الذي لا يملك شيئًا يخسره- ورقة رابحة غير متوقعة.

الدولة يجب أن تقاوم الاستفزازات حتى لا تتزعزع شرعيتها. حدوث وباء الطاعون في القرن الرابع عشر لم يهدّد عروش ملوك أوروبا -رغم قتله ثلث شعوبهم- لأنه لم يكن هناك من يعتقد في ذلك الوقت أن الوقاية من الوباء من مسؤوليات الملك، أما الحوادث الإرهابية فتستطيع تقويض الأنظمة القائمة شرعيتها على توفير الأمن لمواطنيها، فلم يعُد من المقبول سياسيًا السماح للعدو بممارسة العنف داخل أراضي الدولة مهما كان حجمه صغيرًا، وصار تقدم الدولة يُقاس بمدى صرامتها في منع حوادث العنف السياسي. حادثة قتل في بلجيكا تجذب انتباهًا أكثر من حوادث تفجير مفخخات في سوريا أو العراق، وذلك بسبب اختلاف الأوضاع السياسية في تلك المناطق الجغرافية.

لم يكن هناك خيار آخر

بعد استواء الجائحة لم يكن لديّ خيار آخر سوى مواصلة الكتابة، بالضبط كما سيخبرك المتطرّف أنه لم يكن عنده خيار آخر سوى متابعة المواجهة والصدام والإرهاب. تعتبر حُجة

(تينا) TINA من أهم الحجج التي يستخدمها المتطرّف عندما يقوم بعمل بشع ضد أحد البشر، و(تينا) تمثل الحروف الأولى للعبارة الإنجليزية There Is No Alternative، هذه العبارة اشتهرت بها رئيسة الوزراء البريطانية الراحلة (مارجريت تاتشر) التي حملت لواء ثورة الليبرالية الجديدة عندما قدمت العولمة كنتيجة حتمية للتطورات المستمرة في تقنيات التواصل والنقل، حيث يريدون من الجميع تبنّي حلًّا واحدًا على غرار المقاس الواحد الملائم للجميع من السترة الذهبية الثقيلة التي تزعم جميع الدول الناجحة أنها ارتدتها في طريقها إلى الرخاء(٧).

حجة (تينا) هي الشكل المُبرّر للتطرّف في هذا العالم، فكل واحد من منتسبي هذه الجماعات إذا جلستَ معه في مقهى شعبي وأبعدت عنه أجهزة التنصت والمراقبة وأقسمت له بعدم إفشاء سرّه إلى أمير الجماعة، فسيخبرك في لحظة تجلٍّ -وهو ينفخ دخان السيجارة التي تحشو فمه- أنه دُفع إلى اقتراف تلك الخطيئة لأنه لم يكن عنده خيار آخر.

غليان

كنت طالبًا في الثانوية الإسكتلندية عندما بدأ الغزو الأمريكي للعراق في عام ٢٠٠٣، حينها رأى أستاذ الرياضيات علامات الغضب على تلاميذ فصله من العرب الذين كانوا منقسمين بين مؤيد ومعارض للحرب، كان سبب الانقسام أقرب إلى كونه أسبابًا مذهبية منه إلى معطيات موضوعية، فالبعض مالوا إلى معارضة الحرب بسبب إعجابهم بشخصية (صدام حسين) الذي لا يعلمون عن تاريخه سوى خطب الشرف والإقدام التي تُشعرك أن الرجل على وشك إعادة فتح أوروبا والأمريكتين والقطبين الشمالي والجنوبي والكواكب التسعة في المجموعة الشمسية، وآخرون مالوا إلى تأييد الحرب للتخلص من عدو بينه وبينهم عداوات سياسية وتاريخية قديمة. خشي مستر (ألِن) أن يتحول الخلاف إلى اشتباك بالأيدي والحقائب المدرسية بسبب ما كان يشاهده في شاشات الإعلام البريطاني التي كانت تصور الشرق الأوسط كساحة لملحمة (هرمجدون) القادمة، فطلب منّا أن نتوجه إلى

بيوتنا ونتابع أخبار الحرب من التلفاز والإنترنت، وأن نتحدث مع ذوينا حتى نتمكن من تنفيس الغضب الذي نحمله في داخلنا. فعلنا ذلك، لكن لم تتغير لا مشاعرنا ولا نتيجة الحرب المحسومة سلفًا.

قبل حرب العراق بثلاث سنين، اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الثانية، أيضًا نفَّس الطلبة غضبهم في بعض المدارس عن طريق إضرام النار في العلَمَين الأمريكي والإسرائيلي والصراخ بعبارة «خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سيعود». في ذلك الوقت كان يتردّد في بعض وسائل الإعلام أن الغضب الداخلي للإنسان يجب أن يتمّ تنفيسه بطريقة ما وإلّا فإن كبْته سيؤدي إلى ردود أفعال لا تتفق مع قانون نيوتن الثالث الذي يقول إن لكل فعل ردّة فعل تساويه في المقدار وتعاكسه في الاتجاه، فتساءلت هل التعبير عن الغضب أفضل من كتمانه؟

بعض الناس يُنفّسون عن غضبهم عن طريق الصراخ الذي يمنحهم شعورًا بالتحسن في الحالة المزاجية، دعَم ذلك الاعتقادَ حشدٌ هائل من وسائل الإعلام التي أشعرت الناس أن التنفيس عن الغضب سيشعرهم بالارتياح، حتى (فرويد) كان يرى أن الغضب المكبوت قد يستفحل ويتحول إلى هيستيريا وعدوانية مفاجئة إذا لم يُنفس عنه، تمامًا مثل البخار في قِدر الضغط، وصار بعض المعالجين النفسيين ينصحون مرضاهم بالصراخ ولكْمِ الوسائد للتنفيس عن غضبهم.

لكن يشير مؤلفو كتاب (أشهر ٥٠ خرافة في علم النفس) إلى أن الأبحاث تشير إلى عدم صحة فرضية التنفيس هذه، وإلى خطأ من يقول إن التعبير عن الغضب أفضل من كتمانه، بل على العكس من ذلك، فلمدة ٤٠ سنة كشفت الدراسات أن التنفيس يزيد من معدلات العنف في المجتمع، فممارسو الرياضات العنيفة عندهم زيادة في معدلات العنف، ومدمنو ألعاب الفيديو مرتبطون بمعدلات عنف متزايدة في الحياة اليومية، الغضب لا يُنفّس عن المشاعر المكبوتة بل يزيد من حِدَّتها، الصراخ في وجه شريك الحياة بسبب تكرّر تأخر

قدومه إلى المنزل لن يحلّ المشكلة، لكن ما سيحل المشكلة هو تعبير المرء عن حنقه في ثقة وهدوء(٨).

إن المتطرّف الذي يُعطى منبرًا حرًّا في (هايد بارك) لن تزيده تمارين البلاعيم إلا تطرّفًا وتعنتًا، وكلما أعاره مزيد من الناس بعض الاهتمام زاد من ترددات صراخه واختمر في عقله أن شعبيّته تتناسب طرديًا مع حدّة صوته ومحيط تغطية الميكروفون. لا يمكن اعتبار المنابر مكانًا صحيًا لتنفيس المشاعر والأحاسيس، فكم من متطرّف بدأ طريقه بخطبة عصماء وانتهى بنفسه -وبغيره- إلى كارثة مدوية، فالنار تخرج من مستصغر الشرر، والحرية المُصانة هي الحرية التي لا تفسح المجال للمتطرّف من أجل أن يكبر ويزدهر ويُعبّر عن مشاعره وغضبه في محيط يسمح له بخلق سلسلة من متطرّفين آخرين، هدفهم استخدام الحرية كجسر عبور يهدمونه بعد الفراغ منه.

أيلول أسود جديد

أيلول العرب الأسود كان في عام ١٩٧٠ حين اندلعت الحرب بين القوات النظامية الأردنية ومنظمة التحرير الفلسطينية بسبب تصاعد الخلاف بينهما، والتي ربما كانت سبب تحفيز جلطة في قلب الرئيس المصري الأسبق جمال عبد الناصر عندما كان يحاول الصلح بين الأشقاء. بعد ثلاثين سنة عرفت أمريكا أيلولها الأسود لكن ليس بسبب صراع بين الإخوة الأعداء، وإنما بسبب صراع بين قوة عظمى وقوة عصابة لا تكاد تُرى بالعين المجردة. تخيل أن تدخل مطبخ منزلك وترى صرصورًا يعادل حجمه حجمك يمنعك من الوصول إلى ثلاجة الطعام وهو ممسك بولاعة بجانب أسطوانة الغاز يريد تفجير مكان معيشته ومعيشتك، ستفزع من هذا الموقف وستفزع أكثر إن علمت أن المبيد الحشري الذي تخفيه تحت صنبور المياه لم يعد يجدي نفعًا، وعليك الآن أن تبحث عن أسباب تضخم الصرصور واحتلاله بيتك ورغبته في تدميرك أنت بالذات؟

نشرت صحيفة الأهرام يوم ٢٢ سبتمبر ٢٠٠١، أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، رأيًا للدكتور مصطفى محمود حول المتسبّبين في الهجوم، وضع فيه افتراضات بعيدة عن واقع الجماعات الأصولية في الدول الإسلامية، حيث قال إن من نفذ عمليات الحادي عشر من سبتمبر في عام ٢٠٠١ ليسوا من المسلمين ولا من العرب، ولكنهم من أتباع المسيحيين السبتيين الذين يؤمنون بقرب المجيء الثاني للسيد المسيح، واعتبر محمود أن الاحتمال الأرجح يقول إن من تسبب في الهجوم هم من اليمين الأمريكي الذين أقسموا بأن يغمسوا بلادهم في أيام سود مُظلمة. أما محمد حسنين هيكل فقد خرج برأي أكثر غرابة في ١ أكتوبر ٢٠٠١ في جريدة السفير اللبنانية، حيث أعلن أن من قام بضربة سبتمبر هم الصرب الذين أرادوا الانتقام من الغارات الجوية الأمريكية في عهد الرئيس الأسبق بيل كلينتون، فمن المستحيل أن يضع أسامة بن لادن خطة بهذه الدقة، ومن المستحيل أن تتطور المقدرات العقلية والمادية عند أفراد القاعدة إلى درجة تجعلهم يُسقطون أبراجًا راسخة في قلب أعظم دولة في العالم، لكن كشفت الأحداث المتتالية عن مقدرة تنظيمية وتقنية عالية الجودة، جعلت من سكان الكهوف حديث العالم لعقود قادمة. انبثق هذان الرأيان من ركيزة اعتقادية عند كثير من العرب تميل -في كثير من الأحيان- إلى إلقاء اللوم على الآخرين، وبالتالي اغتيال الحقيقة عن طريق تبرئة الذات.

في عام ٢٠١٥، دُهش العالم مُجددًا من مشهد إحراق الطيّار الأردني على يد مقاتلي «داعش»، وكأن الناس سمعوا بالتطرّف لأول مرة في حياتهم بعدما خفت نجم الإرهابيين قليلًا بعد مقتل زعيمهم (أسامة بن لادن) في عام ٢٠١١، هزّ مشهد الحرق العالم، ونسوا أن ما اقترفه «الدواعش» هو حلقة من حلقات التاريخ القديم والحديث، وستكون هناك حلقات قادمة قد تكون أشد بشاعة وأكثر احترافية ما لم تُقتلع جذور العنف من ذلك العقل التائه.

يُلاحظ أن أغلب الهجمات الانتحارية التي سبقت أحداث ١١ سبتمبر كانت تستهدف الأهداف الصعبة كالسفارات والأهداف العسكرية، لكن بعد ٢٠٠١، اتجه المتطرّفون إلى استهداف المجمعات السكنية والنوادي الليلية والمساجد كما حصل في تفجيرات السعودية والأردن، مما قوض الدعم الشعبي للتنظيمات المتطرّفة في تلك المناطق، هذا التكتيك

يُشعرك بأن رغبة الانتحاري في الموت تستحوذ عليه أكثر من التأثير الإستراتيجي المنشود من هجومه، فهو مُسكَر بالوسيلة أكثر من سُكره بالغاية. كان الحشّاشون يسعون إلى الموت في تلهّف، ويُقال إن أول حشّاش نجح في مهمته هو الذي طعن وزير شاه إيران في عام ١٠٩٢م وهو يصرخ بعبارة: «قتلُ هذا الشيطان هو بداية النعيم». وجود متطرّف لا يهاب الموت ولا يقلق على سلامته الشخصية ولا يسعى إلا لتدميرك مشهد تراجيدي قد لا تراه بالعين المجردة إلا في السينما أو منصة (نتفليكس).

تؤكد مصادر مقربة من القاعدة أن أيمن الظواهري كان من أشد المعجبين بكتاب (نهضة القوى العظمى وانهيارها) لأستاذ التاريخ الأمريكي (بول كينيدي)، الذي لخص أسباب سقوط الإمبراطوريات العظمى بثلاثة أسباب: زيادة التكاليف اللولبية بغية الحفاظ على الأمن الداخلي، الحضور العسكري التوسعي في العالم، والمنافسة الأجنبية الشرسة في المجال التجاري، لكن يبدو أن الظواهري لم يتعلم الدرس جيدًا، فسرعان ما تهاوت إمبراطوريته شبه الورقية قبل أن تنهض ويشتد عودها.

الانتحاري

يبدو أنه من الصعب على كثيرين أن يعترفوا بأن المهاجم الانتحاري قد يكون شخصًا طبيعيًّا، وليس معتلًّا نفسيًّا كما تصوره بعض وسائل الإعلام ولا كما يصوره الذين تخيلوا الانتحاري شخصًا جاهلًا أمِّيًّا عاطلًا عن العمل منبوذًا اجتماعيًّا يجسد نموذج الانعزالي الفاشل، يقترح الباحث (شاكر النابلسي) في كتابه (ابن لادن والعقل العربي) أن معظم خاطفي الطائرات في أحداث سبتمبر مصابون بجنون الاضطهاد وتنقصهم الهوية والغاية السياسية(٩)، ورغم كون معظمهم ليسوا بفقراء، فإنهم كانوا يشعرون بالظلم والتخلف الاجتماعي والعلمي أكثر من شعورهم بالحاجة المادية الشديدة.

لو قرأنا وصية الفلسطينية (هجيرة العربي) فإننا سنعلم أن الانتحاريين ليسوا سواء في منطلقاتهم ودوافعهم ومعتقداتهم: «لا أريد الموت، أنا لست مغرمة بالموت بل لست نصف

مغرمة بالموت المريح على غرار الشاعر الإنجليزي، أنا أريد أن أعيش وأن يكون لي بيت يضج بالأطفال، وما زلت أريد أن أصبح طبيبة قادرة على إنقاذ الآخرين، أدرك الآن أن إنقاذ حياة شعبي قد يكون بطرق عدة، وأن القضاء على حياة البعض قد يكون جزءًا من مسار إنقاذ حياة آخرين، وها أنا أتحضر للقضاء على حياة البعض كي أنقذ شعبي»(١٠).

يقول الباحثون إن المهاجمين الانتحاريين لا يتشاركون نفس الخلفيات الاجتماعية، فهم قد ينتمون إلى النخبة المتعلمة في الدول الغنية بينما ينتمون إلى الطبقات الأمية والفقيرة في الدول الفقيرة. أجرى بعض الباحثين دراسة عن الإرهاب الانتحاري تحت اسم «الموت من أجل الانتصار»، درسوا من خلالها الأوضاع الديموغرافية للمهاجمين الانتحاريين، استنتجت الدراسة أن الانتحاريين أشخاص طبيعيون من الناحية النفسية ويمتلكون معدلات علمية قد تفوق ما يمتلكه الشخص العادي، وأغلبهم من الطبقة الوسطى التي لا تعاني من مشاكل مادية حادة(١١).

أجرى (مارك سيجمان) دراسة على ٤٠٠ فرد من القاعدة فوجد أن ثلاثة أرباعهم من الطبقة الوسطى والعليا ومن المهنيين أو شبه المهنيين، ومعظمهم خريجو التخصصات العلمية. الإرهابيون في معظمهم ليست لديهم مشاكل اقتصادية ولا يعانون من اضطرابات عاطفية حتى لو كانوا متمسكين بأوهام اعتقادية. وخلافًا للرهبان البوذيين الذين يحرقون أنفسهم لتسجيل احتجاجهم، فإن الانتحاريين يقتلون أنفسهم من أجل النكاية بالآخرين وتسجيل احتجاجهم في آن واحد.

باتت شبكة الإنترنت عنصرًا أساسيًا تعتمده الجماعات المتطرّفة في التدريب والتخطيط والعمل اللوجستي، وأصبح فضاؤها الأسود ساحة كُبرى للقتال والمُجاهدة وممارسة الحروب النفسية، عدّ البعض تنظيم القاعدة أول شبكة ميليشياوية تدار عبر الإنترنت، وكما عبر المفكر الفرنسي (باسكال بروكنر)، فإن قوة الأصوليين تكمن في التقاطع العملاق ما بين الجنون والتقنية، قوة سقطت أمامها المحاذير الشرعية من باب الضرورات، فلم يجدوا حرجًا من استخدام الصور الإباحية من أجل تشفير رسائلهم.

وُصفت مواقع الإرهابيين بـ«أفغانستان الجديدة» بسبب مقدرتها الهائلة على استقطاب المؤيدين وتجنيدهم وتدريبهم، وهناك مواقع تعلّم الشباب الخطف وتصنيع المتفجرات والسموم وزرع الألغام وتفجير القنابل عن بعد بواسطة هاتف جوال. كذلك استخدم المتطرّفون الإنترنت كسلاح فعّال في الحرب النفسية، فيعرضون للناس صورًا تُظهر عمليات ذبح الرهائن من قبل رجال مقنعين مدججين برشاشات الكلاشينكوف، حتى يبثوا الرعب في قلوب أعدائهم وفي قلوب من ترددوا في عداوتهم. تستطيع مواقع التواصل الاجتماعي تضخيم الأحداث والمخاطر بصورة مذهلة، نتذكر قصة الفتاة التي كتبت إلى صديقاتها في (تويتر) -قبل ركوبها الطائرة إلى إفريقيا- أنه من غير المرجح أن تُصاب بمرض جنسي لأنها بيضاء، ثم أغلقت هاتفها، وعندما أعادت تشغيله عند وصولها اكتشفت أن تغريدتها غزت القارات السبع ورجعت لها بسخط عالمي أدى بها إلى فقدان وظيفتها. إن ظاهرة الانتحاريين ازدادت رواجًا إبّان الاجتياح الأمريكي للعراق في عام ٢٠٠٣، ولعل ما عزز انتشارها عاملان اثنان، أولهما وجود قوة محتلة، وثانيهما تغلغل الفكر المتطرّف عند بعض الفئات الطبقية. الاحتلال الخارجي هو عامل مهم في انتشار ظاهرة الانتحاريين وبغض النظر عن الدين الذي يدين به الانتحاري، فمقاتلو نمور التاميل في سيريلانكا والجبهة الوطنية لتحرير فيتنام لم يكونوا مسلمين، بل كانوا سكانًا محليين امتعضوا من وجود المحتل الخارجي ووجدوا في الإيديولوجيات الشيوعية واليسارية ملاذًا لترتيب صفوفهم وهجماتهم.

قيامة الخليفة

حفل التاريخ بثورات عديدة لم يحالفها الحظ السياسي في وقت اندلاعها، إلا أنها أخذت نصيبها من التفشّي والانتشار في قرون لاحقة. منذ أن أقدم الحسين بن علي على معارضة الحكم الأموي، تتالت حركات المعارضة في مختلف أراضي الدولة الإسلامية ضد الحكومات المركزية التي أسسها الأمويون والعباسيون، كثير من هذه الثورات العنيفة استخدمت دم الحسين من أجل استقطاب الأتباع حولها، وبعد واقعة (الطف) التي انتهت

بمقتل الحسين في مشهد تراجيدي، لم يرَ العرب يومًا بسطت فيه الدولة سلطانها على كامل أقاليمها وولاياتها بدون أن يعكر صفوها حراك «خارجي» في المشرق، أو انقلاب فاطمي في المغرب، أو ثورة زنوج في العراق، أو بلشفة قرمطية في البحرين. صاحَبت الاختلافات الجغرافية والسياسية اختلافات اعتقادية دفعت بعجلة التكفير المتبادل بين الأطراف المتنازعة إلى الواجهة.

حصل استنزاف لموارد الدول عبر التاريخ ما أخّر تقدمها في ركب الحداثة والحضارة، فالدولة المستقرة -نسبيًا- تستطيع أن تتفرغ للعطاء العلمي والفلسفي، مثال ذلك عهد الوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان في الدولة الأموية، عهد هارون الرشيد وابنه المأمون في الدولة العباسية، وعهد الدولة الأموية في الأندلس. أما الدول المُنشغلة بالصراعات الداخلية والخارجية، فإن أمراءها يغادرون الدنيا قبل أن يشهدوا تثبيت أركان دولهم على الأرض، حيث يتوجه الإنفاق المادي والمعنوي في اتجاه تحطيم الخصوم بدلًا من بناء الحضارة.

لهذا السبب صار قدر كبير من التاريخ هو تاريخ قيام دول كرتونية على أنقاض كرتونيات سبقتها، وصار المِفصل هو تاريخ تحركات أمير ثائر يريد اختزال الدين في خاتمه، وصارت المعارك العظيمة هي المعارك التي دحر فيها أعداءه أو أخرس فيها المذاهب المخالفة لمذهبه، أما تاريخ المآسي فهو مأساة هزيمته أو مقتله أو فراره واختفائه، والأفراح العامة هي أفراح توسيع رقعة سلطانه أو استيلائه على رقعات جغرافية إضافية.

انطوت صفحة الثورات المُسطحة، وصار للدول -المنضوية تحت راية الأمم المتحدة- حدود معروفة لا يلامس أطرافها سوى نسمات الهدوء والأمان، في وسط الأحداث المتفجرة والمتسارعة استيقظ الناس على وقع انبعاث صفحة صفراء من أحد كتب تاريخ القرون الوسطى، والذي لما رأيته يخطب الجمعة على منبر الموصل في العراق ظننت أن ما أراه هو ظهور جديد للفنان السوري (سلوم حداد) في أحد المسلسلات التاريخية التي فاتتني في أحد المواسم الرمضانية السابقة. ازدادت حيرتي حول هذا الأمير القادم من

مقابر المغازي والفتوحات، وحين أفقت من صدمتي أيقنت أنني أمام دولة ممسوخة ابتلعت أجزاء واسعة من بلاد العراق والشام وأوشكت على دخول بغداد بنفس الطريقة التي دخلها بها هولاكو في القرن الثالث عشر.

من الذي يتحمل مسؤولية أبشع عملية مخاض فكري عرفها التاريخ الحديث للعرب والمسلمين؟ هل هو الظلم؟ وقع ظلم على كثير من الأمم بسبب الأمريكان والإنجليز والروس والصينيين، فماذا كانت ردة فعل الشعوب المضطهدة في تلك البلاد؟ هل قاموا بحرق شعوبهم وأراضيهم وشعوب وأراضي أعدائهم وأصدقاء أعدائهم تحت شعار لا صوت يعلو فوق صوت المعركة؟ لماذا يتربع المتطرّفون عرش الإرهاب في العالم؟ هناك حقيقة مُرّة يريد منا البعض أن نتغاضى عنها، وهي أن هذه الفئات المتشدّدة تتدثر بأدبيات تراثنا، هذا التراث الذي حمل أبجديات الحضارة والتعايش السلمي بين مختلف مذاهبه وطوائفه، وحمل في حواشيه بذورًا سامة تستطيع التأويلات السلبية أن تغمرها بالرعاية والحنان حتى تشتد فتصير مخلبًا سافكًا للدماء ينتظر التوقيت والمبرر المناسبين للانقضاض على الناس من حوله.

إذا رجعت إلى كتب تاريخ التعذيب فستدرك أن مشاهد التعذيب القديمة هي نُسخ مُلهمة لأفراد لا تشعر بهم في مجتمعك ومحيطك يختبئون في مجاري الأفكار وهم يتحينون فرصة الانقضاض عليك وتمزيقك وتوزيع أرطال لحمك بين العيون المتشفية. في القرن الأول للهجرة دخل الخوارج حيًا من أحياء العرب فقتلوا الرجال والنساء والأطفال وأخذوا قسمًا من الصبيان فألقوهم في القدور وهي تفور دون أن تهتز لهم شعرة من إيمان، وهم المشهورون بصيامهم وقيامهم وحسن تلاوتهم للقرآن. في القرون التالية خالف أحد محتسبي القاهرة بائعًا للكنافة بسبب مخالفته تسعيرة السوق، لم تكن المخالفة ورقة بيضاء -تُعلق في خطام دابّته- تطلب منه دفع مئة دينار لمصلحة الشرطة، بل كانت وضع صينية الكنافة على النار ثم دفع المخالف للجلوس عليها، في الأندلس كان الناس يُعذّبون بالحرق والرمي بالمنجنيق، وكان (تيمور لنك) يشوي الناس في بغداد كما يشوي الدجاج بسبب عدم أدائهم الضريبة(١٢).

هناك من كتب أكثر من ٣٠٠ صفحة في مختلف أنواع التعذيب في التاريخ العربي الذي تضمن اقتلاع الأعين وقطع الأطراف والأعضاء التناسلية وعصْر الخصية وتنكيس الإنسان والخنق والشنق والسلخ والتغريق ودفن الأحياء وصلب الجثث وتمزيق الأبدان ووضع رأس القتيل في حِجر أقرب الناس إليه. كل تلك الممارسات العنيفة لم يتمّ توثيقها بالصوت والصورة، فلم تعد معروفة بين الناس بسبب انحصار معرفتها على الفئة المهتمة بتاريخ التعذيب والتصفيات الجسدية، أما اليوم، فقد صار التعذيب والعنف كتابًا مفتوحًا أمام العالم، وصرنا نرى صفحات التاريخ تكرر نفسها بأشكال وألوان أكثر وحشية وقتامة من سابقتها.

التكفير هو سيفنا الذي نصلته ليس على رقبة من يخالفنا في الدين فقط، بل على من يخالفنا في الأمور الجغرافية أو الفلكية مثل القول بكروية الأرض، وبما أن التكفير يهدي إلى الردة والردة تهدي إلى خلع الرقبة، فإن كل تكفيري يرى في نفسه منفّذًا شرعيًّا لأحكام الاغتيال والإعدام، وبما أن البعض مبرمج للتبرير التلقائي، فإنك ستجد من يخلق «ترقيعة» لكل فتوى شاذة تريق دمًا بدون أي شعور بسيط بالذنب بحجة احتجاجها بنصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، بل وتبرر هذه الآلية كل كلام يمسح بالكرامة الإنسانية عرض الحائط، فلا تستغرب كثيرًا إن رأيت من يُعاقَب بالركوب على ظهر الحمار منكوسًا ليطوف به أسواق الناس، أو بمن يُطاف برأسه بين المدن وكأنه شعلة أولمبياد تتلقفها الأيادي المُنتشية بالنصر والاستعلاء.

إن هؤلاء قادرون على سحرك بشتى أنواع التبريرات التي تأخذك إلى بحر الظلمات ثم ترجعك منه وأنت أكثر غلظة وأشد طغيانًا، سيقولون لك إن التكفير من حقّ أهل العلم، وبما أن «أهل العلم» مصطلح فضفاض، فإن كل من درس ورقة وحفظ متنين وشرح ثلاث معلقات صار من أهل العلم الذي تُجتز الرؤوس بأختامهم، وإذا تنازلت وقلت إنك لن تقبل إلّا فتوى من أصحاب العلم المعتدلين فإنهم سيخرسونك بألقابهم الفخمة وسيرهم الذاتية التي لا تنقصها الخبرة التأصيلية للتكفير والطافحة بإباحة الدم على أهون سبب، فقد تجد أحدهم يقتل بالجهر بالنية وآخر يقتل بالشبهة وغيره يقتل بالتمذهب بأحد المذاهب

الأربعة وآخر يقتل بالتشبه بغير المسلمين، وإن امتنعت عن تكفير الناس كفروك لأن من لم يُكفّر المُكفّر فهو مُكفّر، فأنت في النهاية إما مُكفَّر أو مُكفِّر.

إننا محاصرون بغشاوة بعض المتون الجافة المليئة بالغل والحقد والتي تدعو إلى شطر العالم إلى فسطاطين أحدهما مؤمن يستحق السيادة وآخر مارق يسحق الاستعباد، وأينما يمّمت وجهك فأنت محاصر بتلك الكلمات المشتعلة التي تطالبك بتكفير الأنواع والأعيان والتي تُمرر على الطلبة في محيطنا بكل خفة ورشاقة، ثم يقولون للناس تورعوا عن التكفير فهو حقّ خالص لنا من دون المؤمنين. ثم نتساءل من أين خرج الإرهابيون؟ قل لي من شيخك أقل لك درجة قربك من عائلة التطرّف.

قبل أن تحمل جوازًا إرهابيًا

لن تجد توصيفًا للجماعات المتطرفة أفضل من وصف أحد قادتها لها بأنها توليفة من أفكار جماعة الإخوان المسلمين بنكهة المنهج الحركي لسيد قطب، مضافًا إليه قسطًا وفيرًا من الفقه السياسي لابن تيمية. إذا أمعنا النظر في مصادر الفكر الجهادي في الزمن الراهن، لوجدنا أبرزها: (ملة إبراهيم) لأبي محمد المقدسي، (تأملات في المنهج) لأبي قتادة الفلسطيني، و(دعوة المقاومة الإسلامية العالمية) لأبي مصعب السوري. يشير بعض المراقبين إلى وجود أربعة تحولات مهمة داخل هذه التيارات الجهادية، والتي لا بد من أخذها بعين الاعتبار عند التحدث عن مكوناتها:

التحولات العقدية: والتي تنطلق من تكفير الأنظمة التي لا تحكم بالشريعة من منظور مقاتليها، وأخطر هذه التحولات هو مبدأ إدخال جنس العمل في مسمى الإيمان، مما يستلزم تكفير كل من يقوم بعمل محرم، وهذا هو عين فكر الخوارج، وهو ما تتبرأ منه السلفية التقليدية في أدبياتها رغم ممارسة بعض أتباعها المتشددين هذا المبدأ عندما لا تكون الأضواء مسلطة عليهم.

التحولات الفقهية: حيث صار التركيز على أحكام حلق اللحية وتقصير الثوب وغيرها، مثل هذه الفروع لا تجد لها مساحة كبيرة في كتب القدماء كما عند بعض فقهاء اليوم، فحلق اللحية وتقصير الثوب لم تكن سوى مسائل فرعية منكمشة في عدة أسطر في كتب التراث لكننا اليوم نراها بحوثًا مستقلة تؤهل الطالب لنيل درجة الدكتوراه والتي قد يتحول من بعدها إلى علَّامة يُحسب له ألف حساب من قِبل أتباعه، وإذا كان محظوظًا فقد يتأهل لقيادة جماعة مسلحة في إحدى الولايات الكرتونية.

التحولات الفكرية: والتي تشمل الموقف الشرس والمصادم لكل تفاصيل الحداثة التي يُنظر إليها كممارسة مستوردة من الغرب «الكافر».

التحولات الدعوية: والتي تشمل الموقف المعادي للعمل البرلماني والنقابي، الذي تستسيغه جماعات الإسلام السياسي، ويرتاب منه التيار الحركي السلفي، ويعاديه التيار الجهادي.

تسعى التنظيمات القتالية المتطرفة إلى التمايز عن السلفية التقليدية فقهيًا واعتقاديًا، فبينما يحرم الخروج على ولي الأمر المتغلب عند السنة -حتى جعل ابن تيمية الصبر على جور الحاكم أصلًا من أصول السنة- فإن المتطرّفين جعلوا وجود شرط «القدرة على الخروج» في حق الحاكم المبتدع فقط، أما الحاكم الكافر -الذي يمتلكون ألف دليل ودليل على تكفيره- فهو واجب الخلع سواء وُجدت القدرة أو لم توجد، والكافر عندهم يدخل في حكمه عامة حكام بلاد المسلمين اليوم.

من فتاويهم المستشنعة تجويز قتل أطفال وزوجات العسكريين حتى لو لم يكونوا في أرض المعركة، تمامًا كما فعلت الجماعة السلفية للدعوة والقتال في الجزائر في أوائل التسعينيات، وقد أقرهم على ذلك منظرهم (أبو قتادة الفلسطيني) بحجة درء هتك الأعراض وتخفيف الوطأة على نساء المجاهدين والمسجونين، بل إن أبا قتادة نفسه أفتى لهم بجواز قتل أحد قادتهم لأنهم اكتشفوا أنه «أشعري» العقيدة، مستدلًّا بكلام لابن تيمية يجيز قتل الداعية إلى البدعة المخالفة للسنة، فضلًا عن كلام آخر لابن تيمية يستدلون به

على تجويز قتل غلاة المبتدعة الداعين إلى مذهبهم عند تحقّق عدم وجود مفسدة راجحة من هذا القتل.

من الصور المستغربة التي حكم بها الإرهابيون على غيرهم بالكفر المُخرج من الملة: الجلوس مع الأمريكان للهدنة، دخول المجالس البرلمانية، الخروج من سجون الاحتلال بسبب افتراضهم أن من خرج لم يخرج إلّا بعد أن باع دينه، تكفير عناصر الشرطة والجيش والحكم بقتلهم حتى لو كانوا يحرسون بيوت أمهاتهم بسبب افتراضهم أنهم لو كُلفوا باعتراض طريق المجاهدين لفعلوا، والتوسع في مقولة «من لم يُكفّر المُكفّر فقد كفر». بذلك كله منحوا أنفسهم القدرة على تكفير كل من لم يقبل تكفير من حكموا بكفره.

أما مع أهل الذمة فيكفيك قراءة عنوان كتاب أبي منذر الشنقيطي (إعلام الأمة بانقراض أهل الذمة) لتتعرف على مشاعرهم الفياضة تجاه الأديان الأخرى، فالمسيحيون عندهم لا يستحقون اليوم ذمة ولا عهدا لأنهم لا يؤدون الجزية، فليس لهم إلا السيف، لكن نحمد الله أنه بقي شيء من عقل في رأس الشنقيطي وطلب عدم البدء بسبي نسائهم للمصلحة العامة.

يتساءل الكثيرون عن الفرق بين التنظيم الأم -مثل القاعدة- والتنظيمات الجديدة مثل «داعش» والنصرة، ويبدو أن الفرق الاعتقادي بينهم لا يتعدى الفرق بين كلمتي يأجوج ومأجوج، فمن خلال رسائل أيمن الظواهري وفتاوى أبي محمد المقدسي يتبين أن تنظيم القاعدة شن حملة تحذيرية على «داعش» بسبب كونها أكثر تطرّفًا منه في التكفير، ويخشى قادة القاعدة من تمكن «داعش» من سحب البساط فيخسرون جزءًا كبيرًا من شعبيتهم. بالطبع هناك خلافات قشرية بينهم مثل تفضيل الظواهري تحييد السنة غير المقاتلين والشيعة والمسيحيين والسيخ والهندوس من ساحة المعركة لأنهم لم ينخرطوا في قتاله بصورة مباشرة، ويتبع ذلك رفضه التعرض لمساجدهم وكنائسهم ومعابدهم وتجمعاتهم الدينية، أما «داعش» فكان أول مشروعها هو تكفير واغتيال إخوان السلاح بتهمة المداهنة والتزلف واللين مع الأعداء ومن ثم دخول مواجهة عامة مع الجميع.

«داعش» تريد فعليًا أن ترث القاعدة وهي حيّة، ونجحت في استقطاب جموع من المقاتلين من أمريكا وأوروبا وسيناء واليمن وكثير من الدول العربية بسبب حرقهم مراحل التمكين للوصول إلى الخلافة التي تصبو إليها الجماعات الإسلامية السلمية وغير السلمية، فوجود خليفة بعد انقراضٍ دام قرابة التسعين عامًا يجعل باقي التنظيمات أقمارًا تدور حول كوكب هذا الخليفة، وبذلك يكون (أبو بكر البغدادي) قد قطع الطريق على باقي التنظيمات التي ترددت في إعلان الخلافة بسبب المصلحة، وصار يمتلك الحقّ في نحر الخلفاء الجدد بدليل حديث «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخِر منهما» الذي رواه مسلم.

يستغرب الكثيرون من قدرة الإرهابيين الكبيرة على تجنيد المئات بل الآلاف من الخلايا النائمة بمجرد بثّ شَفرات التخدير في عقول الشباب والمراهقين، نسبة كبيرة من منتسبي هذه التيارات لا يمتلكون سوابق جنائية أو سلوكية متطرّفة، لكنهم يُستثارون بالعوامل البيئية المحيطة، فالمرء منهم لا يولد مجرمًا ولا إرهابيًا، بل يصير كذلك عن طريق شحن حواسه بخطاب العنف والتطرّف، فهو يسمع تلك التقسيمات العقدية التي تقصم ظهر العالم إلى عالمين يسلكان مسلك الخطّين المتوازيين اللذين لا يمكن أن يلتقيا، ويسمع في محيطه أن غير المسلم أقل درجة من المسلم في سُلم العقل والمعاملة والدرجة، ويُؤمِّن على دعوة واعظ يطلب من الله تجميد الدماء في عروق جميع اليهود والنصارى والهندوس لأنهم جميعًا في حالة حرب دائمة مع الإسلام والمسلمين، ويسمع من معلمه أن الماسونية تعدّ عدتها لإشعال حرب عالمية تطحن فيها المسلمين طحنًا لتثنيهم عن معتقداتهم، ويسمع من تائب جديد عن كرامات الشهداء المبتسمين في ساحات الوغى والملائكة التي تحارب إلى جانبهم، ثم يسمع من إخوانه أن بلاده لا تحكم بما أنزل الله، ولذلك تستحق أوصاف الكفر والخيانة والردة.

لقد آن الأوان لوضع حدًّا لهذه المهزلة الدموية، وإن لم يعترفوا بأن ما يتناولونه في دروسهم الخاصة أو العامة هو جزء من المشكلة فلن يوجد حلّ حقيقي للمشكلة، وستكون حالتنا كحالة مريض ينكر وجود سرطان في جسمه، هل سيجدي معه مناقشة وسائل

العلاج الكيميائي أو الإشعاعي أو الجراحي وهو غير معترف بوجود السرطان في جسده أصلًا؟

أصول فتاوى التطرّف

المسلمون غير مطالبين بإصدار صك براءة عند كل تفجير حصل -أو سيحصل- منذ اختراع البارود مرورًا بانفجار القنبلة النووية الأولى، وانتهاء بمذبحة النرويج في عام ٢٠١١ في معسكر للشباب على يد يمينيّ متطرّف، فليس وراء كل زنادٍ إصبع رجل مسلم، وليس وراء كل مذبحة فتوى عالم مُسلم. لكن، وأرجو أن لا تهدم «لكن» ما سبقها، هناك مسؤولية تقع على عاتقنا تتلخص في الاعتراف في أن «داعش» وأخواتها هي منتجات أحسنت استغلال نصوص تراثنا لصالح أجنداتهم، علينا ألّا نسمح للآخرين أن ينتجوا لنا مزيدًا من الحمقى والمغفلين والمعتوهين الذي سيقلبون بوصلة العالم رأسًا على عقب، بعد أن جعلوا دين الإرهاب هو «الإسلام الجهادي» ومذهبه هو مذهب (أسامة بن لادن) وعقيدته كتاب (ملة إبراهيم) لأبي محمد المقدسي، وفقهه كتاب «الفريضة الغائبة» للمهندس (محمد عبدالسلام فرج).

فهذه الكتب استقت نصوص التطرّف من كتب وموسوعات موجودة في المكتبة العربية. وهم يتلون قرآن المسلمين وعندهم أسانيد متصلة في الكتب الستة والقراءات السبع، ينقلون التفسير عن الطبري والقرطبي وابن كثير، ويشرحون الأحاديث باستخدام فتح الباري لابن حجر وشرح النووي، ويرسمون عقيدتهم بجملة «يا رب أمِتنا على عقيدة عجائز نيسابور»، بل وستجد في قائمة علمائهم نفس أسماء العلماء الذين يُعدّون قدوة لعلماء آخرين لم يختاروا طريق القتال العالمي إما بسبب عدم قناعتهم بهذا النهج المتطرّف أو بسبب تكاسلهم عن أداء واجب الدعوة.

إذن، أين الخلل؟ لماذا لم يتحول أغلب المسلمين الذين يستمعون إلى نفس المصادر -بطريقة أو بأخرى- إلى مصفوفة الإرهاب العالمي؟

ربما يكون سبب اللعنة «الداعشية» هو ماكينة قراءة نصوص التراث التي تنتج فتاوى تحيي بشرًا وتقتل آخرين بسبب قراءة سطر في كتاب. يستطيع سطر واحد في كلام عالِم متوفًّى منذ قرون الإخلال بأنظمة قائمة. هذه الصناعة تنتقي من التراث ما يجعل من عشاقها أكثر عنفًا ودموية، في حين أن أغلبية المسلمين العظمى يستثمرون من التراث ما يجعلهم أكثر تسامحًا وإنسانية وحضارة. ألا تلاحظون أن كتب هذه الفئة المتشددة لا تستدل بكتابات أبي حامد الغزالي مثلًا، في حين أنها طافحة بفتاوى ابن تيمية؟ مع أن كلا العالمين يستخدم نفس المواد الخام من كتب النصوص، إلا أن هناك تفاوتًا كبيرًا في طريقة تناول الموروث الفقهي والعقدي، فالغزالي نزع منزعًا صوفيًّا أخرجه من عباءة الممارسة التقليدية ما جعل المتطرّفين لا يلتفتون إلى كلامه كثيرًا إما بسبب طعن في عقيدته الأشعرية، وإما بسبب تساهله غير المقبول -عندهم- مع مخالفيه، أو بسبب عدم مشاركته في قتال الصليبيين عند احتلالهم بلاد الشام وبيت المقدس. في حين أن لابن تيمية يدًا في محاربة التتار، ما يجعل فتاويه -المتأثرة بالواقع الذي عايشه- الخيار المفضل عند المتطرّفين، وإذا تتبعت فتاويهم فستجدها لا تخرج عن فتاوى ثلاثة من القدماء وسبعة من المعاصرين.

السياسة الشرعية والرعية

تصادف أنني كنت أتصفح كتاب (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية)(١٣) لابن قيم الجوزية في الوقت الذي كنت أشاهد المناظرة الرئاسية بين (هيلاري كلينتون) و(دونالد ترامب) في عام ٢٠١٦ والتي كانت ستقرر مصير الولايات المتحدة الأمريكية، وستكون لها موجات ارتدادية كبيرة على سياسات دول العالم الأخرى. في هذا الوقت الذي يُمسك العالم فيه أنفاسه مترقبًا انتخابات الثامن من نوفمبر التي ستحدد بوصلة العالم في السنوات الأربع القادمة، فإن هناك من يقدم وينشر دورات علمية مكثفة لشرح كتب في علوم السياسة الشرعية كتبت منذ قرون عدة لحل مشكلة تسلط البويهيين على الدولة

العباسية في بغداد، أو لمقاومة الغزوات الصليبية لبلاد الشام، أو للفصل في ادعاء الفاطميين أحقية إمامة وخلافة العالم الإسلامي.

إن مثل هذه الكتب تصلح لإدارة دول في القرون الوسطى لم تكن فيها مدونات قانونية مُلزمة، حيث يُترك للقاضي الحكم بما شاء كيفما شاء، فكتاب مثل كتاب ابن القيم يحمل العديد من القصص والحكايات التي تتحدث عن الفراسة والشهادة والتعزير والقضاء والخطوط والقرعة والقافة والحسبة وتسعير السلع، والتي تم تقنينها في عصرنا بحسب معطيات هذا العصر التكنولوجية والاجتماعية والاقتصادية المتماشية مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والأكثر من ذلك أن كل مسألة -تقريبًا- ذكرها المؤلف يوجد فيها خلاف وتفريعات متخالفة ومتنافرة، ولغتها ومفرداتها وأدواتها لا تتناسب مع هذا العصر، فتجد فيها حديثًا مستفيضًا عن العبيد والرقيق والجواري.

وينقل ابن القيم عن أحمد قوله: «ما علمت أحدًا رد شهادة العبد» ثم يُتبعه بقول مالك: «ما علمت أحدًا قبِل شهادة العبد»، مع العلم أن أحمد نفسه نُقلت عنه أقوال متضاربة عندما نقلوا عنه ردّ شهادة العبيد في الحدود والقصاص، وبعض من يردّ شهادة العبيد يردّها محتجًّا بكون الرق أثرًا من آثار الكفر فيمنع قبول الشهادة تمامًا كفسق الشاهد، وبعضهم يردّ شهادته بسبب كون العبد سلعة فكيف تشهد السلعة؟ وهذا كله في غاية الغثاثة والسماجة كما قال ابن القيم، أما اليوم فهذا الأمر لا يستحق الردّ عليه لأنه تاريخ ينبغي أن يُطوى ولا يُروى، نقلته هنا فقط لأن العالم شاهد بعض فصوله عندما وُلدت «داعش» واستعبَد مقاتلوهم الإيزيديات في العراق تحت مسمع ومرأى وصدمة العالم كله. إذن هو تاريخ قابل للإحياء من قبل فقهاء الدماء عندما يمسك السلطة من يعتقد بهذه النصوص.

سبق كتابَ ابن القيم كتابٌ آخر لابن تيمية في نفس الموضوع، والذي أيضًا اختزل الإسلام كله في إعلان جهاد وإقامة حدود تضاهي في تفاصيلها أركان الإسلام الخمسة، فابن تيمية يصور الدين على شكل عمود قاعدته الخضوع لله، وساقه الصلاة، وتاجه الجهاد، ثم يطلب من الحاكم المسلم أن يُكرس حياته كلها ليل نهار -لا من أجل دعم الصحة والتعليم والأمن

بين الرعية- بل من أجل دعم الجهاد داخليًا وخارجيًا لتوسيع رقعة الدولة باطّراد دائم، وينصح بتحاشي طريقة اليهود والنصارى في خدمة دينهم، فاليهود عجزوا عن حماية دينهم بالقوة العسكرية، والنصارى عجزوا عن نشر دينهم رغم امتلاكهم تلك القوة.

هذه المفاهيم السياسية قد تعتبر واقعية -رغم بعدها عن إنسانية زمننا- في ذلك العصر الذي لم يوجد فيه لا (جون لوك) ولا (جان جاك روسو) ولا (مونتسكيو) ولا ميثاق حقوق الإنسان، حيث كان الأصل في العالم هو الحرب والعدوانية وافتراض سوء النية في الآخر، أما الآن فهذه الأطاريح تُعد أفكارًا ساذجةً وسامّة في عالم يصبو نحو السلام وموادعة الشعوب وصداقتها بدلًا من عداوتها ومصارعتها مصارعة حرة. لعل أفضل عبارة في الكتاب تصلح لعصرنا هي ما نقله ابن القيم عن ابن عقيل «السياسة ما كان فعلًا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد»، وأن العدالة هي شرع الله فأينما وُجدت وُجد شرع الله.

ولادة التوحُّش

ذكرنا سابقًا أن المتطرّفين ألّفوا كتبًا حول تركيع العالم المتحضر، مثل كتاب (ملة إبراهيم) لأبي محمد المقدسي الذي كفّر المنخرطين في القوات الأمنية التابعة للدولة التي كان يعيش فيها، ومنها كتاب (العمدة في إعداد العدة) و(الجامع في طلب العلم الشريف) لسيد إمام؛ الذي يعدّه البعض المرجع الرئيسي للجماعات المقاتلة إبان الحقبة السوفييتية و«الجهاد» الأفغاني. نود أن نضيف هنا كتابًا آخر ذا أهمية خاصة، وهو كتاب (إدارة التوحش) Management of Savagery.

يُعدّ كتاب (إدارة التوحش) إعلانًا دستوريًّا يضع الملامح العامة لمواطني الدولة الجديدة، التي يحرص مواطنوها على تسمية أنفسهم بأسماء مقتبسة من أعيان الصحابة مثل: أبي البراء وأبي القعقاع وأبي قتادة، ثم يُتبعونها بأسماء المدن التي أتوا منها كالأنباري والمصري والدمشقي من أجل الإيحاء بأن رقعة الدولة تجمع المنتمين إليها بغض النظر عن أصولهم الجغرافية التي يُعدّ موضوع إخضاعها للخليفة مسألة وقت ومصلحة.

يتأثر أسلوب مؤلف (إدارة التوحش) بأساليب التربية المتفشية في أدبيات سيد قطب الذي يستشهدون بكلامه: «إن هذا القرآن لا يكشف أسراره إلّا للذين يخوضون به المعارك، والذين يعيشون في الجو الذي تنّزل فيه أول مرة»(١٤)، ولا يخفى تأثرهم بابن تيمية الذي استخدموا فتاواه من أجل حرق الطيار الأردني في سنة ٢٠١٥ وكأنهم يستدلون بكلامه «من كان كثير الذنوب فأعظم دوائه الجهاد»(١٥).

ذلك النص، الذي كتبه متطرّف مغمور يدعى (أبا بكر ناجي)، يبدو كبيان توضيحي لأدبيات المجاهدين المنضوية تحت راية التنظيمات الجهادية. يقع الكتاب في ١١٣ صفحة ضمّنها الكاتب ستة مباحث وعشرة فصول ومجموعة من المقالات، قدمت بالشرح والتفصيل رؤية القاعدة في كيفية إدارة المناطق التي تسيطر عليها وما ترى أنه «واقع الأمة الإسلامية».

مؤلف الكتاب، وهو شخصية غامضة لا يُعرف ما إذا كانت شخصية حقيقية أم اسمًا مستعارًا، أُشيع أنه كان يشغل منصب منسق الشؤون الأمنية والاستخباراتية في تنظيم القاعدة، ويُرجح البعض وجود عدة مؤلفين للكتاب قد يكون أحدهم زعيم تنظيم القاعدة نفسه أسامة بن لادن، ويُعتقد أنه قد عُثر على المسودة السرية للكتاب خلال إحدى مداهمات القوات السعودية أحد معاقل المتطرّفين في سنة ٢٠٠٨.

تناول الكتابَ بالتحليل العديد من الصحفيين الغربيين لعل أبرزهم (ديفيد إجناشيوس) في صحيفة (واشنطن بوست)(١٦)، الذي قال إن الكتاب وإن لم يكن «مانيفستو» يضاهي (كفاحي) لهتلر أو (البيان الشيوعي) لكارل ماركس وفريدريك إنجلز، فإنه يكفي لإلهاب مشاعر الأتباع بحمله لهذا العنوان العنيف. الكتاب يثير الرعب في النفس، ولعل الجانب الإيجابي فيه أنه بلغ بالوحشية وسفك الدماء درجة كبيرة أثارت نفور المسلمين منهم قبل غيرهم. لم يكن هذا الكتاب يومًا من أكثر الكتب شعبية عندهم، إذ إنه موجه إلى فئة خاصة جدًّا في التنظيم. الشيء اللافت هو اطلاع التنظيم على الأوضاع الاجتماعية داخل الولايات المتحدة التي يعتقدون أنها ستنهار في حال خوضها حربًا طويلة الأمد مع الدول الإسلامية.

وصف البعض الكتاب بأنه المقابل الجهادي لكتاب (القوة الناعمة) لجوزيف ناي -مساعد وزير الدفاع في فترة ولاية الرئيس بيل كلينتون- والذي جعل مصطلح القوى الناعمة مرادفًا لحرب المعنويات وغسل العقول والغزو الثقافي، والذي من خلاله يحقّق التنظيم أهدافه عن طريق الجاذبية بدلًا من الألغام، وتقوم الآلة الإعلامية بالتلاعب وكسب النقاط دون ظهور بصمات حقيقية للّاعب الحقيقي، ويُمنع الخصم من التعبير عن ذاته وطرح تصوراته. كذلك يصحب ذلك تجفيف موارد الخصوم وتقليص نفوذهم وضرب سياساتهم.
العديد من المؤثرات تغذي القوى الناعمة، منها الرموز البصرية والإعلامية والثقافية والأكاديمية وغيرها، ويبدو أن (إدارة التوحش) يتماهى مع أدبيات كتب صراع الحضارة التي ازدادت شعبيتها بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، ككتاب (صدام الحضارات - صامويل هنتنغتون) و(نهاية التاريخ والإنسان الأخير - فرانسيس فوكويوما) اللذين بشّرا بسيطرة

النموذج الغربي في حقول الثقافة والهوية والدين، وأن كل من يرفض الديمقراطية والرأسمالية الغربية سينتهي به الأمر إلى وديان التخلف والتقهقر. عند قراءة (إدارة التوحش)(١٧) ستلاحظ أنه لا يحفل بالاستدلالات الشرعية من القرآن والسنة والإجماع وأقوال العلماء كما هو عادة الكتب الشرعية، بل ركز كاتبه على الحديث عن سنن كونية كبرى تحدّد طرق استعادة دولة الخلافة بصورتها البدائية، وتقترب في وسائلها من وسائل ماكيافيللية تكون فيها الغاية تبرر الوسيلة. يقترب الكتاب كذلك من العقلية الشيوعية التي تقوم على أساس فهم مادي لتاريخ تطور المجتمعات وصراع الطبقات رغم عدم إغفاله عامل الإيمان الغيبي الذي تفتقده الإيديولوجية الشيوعية.

التطرّف كإيديولوجية

قبل استكمال الحديث حول كتاب (إدارة التوحش)، علينا أن ننظر قليلًا في إيديولوجية التطرف.

عادة ما تؤخذ اللغة على أنها أوضح رمز للأمة، فهي تجسد مواقف وقيم التعبير وتستطيع إنتاج إحساس بالألفة والانتماء كما حدث حين توحدت الأمة الألمانية لما استشعرت أهمية الوحدة الثقافية التي تجمع الناطقين بالألمانية، لكن اللغة ليست شرطًا مطَّردًا للشعور بالقومية والانتماء، فالأمريكيون والنيوزلنديون يتحدثون نفس اللغة، لكنهم لا يشعرون بأنهم جزء من الأمة الإنجليزية، وقد تتشكل القومية الوطنية مع غياب اللغة الواحدة مثل ما حصل في سويسرا التي يتحدث سكانها الفرنسية والألمانية والإيطالية.

كذلك الدين قد يعبّر عن قيم أخلاقية ومعتقدات روحية تساهم في تكوين الأمة، ففي أيرلندا الشمالية يريد البروتستانتيون الحفاظ على صلات مع المملكة المتحدة، بينما يفضل الكاثوليك أيرلندا موحدة بعيدًا عن السيطرة البريطانية. لكن المعتقدات الدينية أيضًا لا تتطابق دائمًا مع المشاعر القومية، فلم تؤدِّ الانقسامات بين الكاثوليك والبروتستانت إلى حصول انقسامات في قلب المملكة المتحدة والولايات المتحدة، ولم تتشاطر البرتغال

والبرازيل وإيطاليا والفلبين نفس مشاعر الانتماء المطلق إلى الأمة الكاثوليكية رغم اعتناقها نفس المذهب.

كانت الإيديولوجية ملمحًا لا ينفصل عن السياسة منذ أواخر القرن الثامن عشر، والتي تعرضت للتغيير والانصهار والإحلال عند ظهور إيديولوجيات جديدة، بعض الإيديولوجيات كانت قوية في السابق ثم صارت باهتة في الحاضر، وربما تموت في المستقبل بسبب تعرضها لعملية انتخاب طبيعي يكون فيه البقاء للأصلح فكريًّا أو الأقوى عسكريًّا. التطرّف الديني -بغضّ النظر عن دين أفراده- قد يكون جزءًا من منظومة تتبنى الأصولية الدينية، والتي يُنظر إليها بكونها إيديولوجية حديثة مقارنة بالإيديولوجيات الكلاسيكية مثل الليبرالية والاشتراكية والقومية والفوضوية والفاشية، فأين تلتقي الأصولية مع الحركات الفاشية والفوضوية؟

صارت المعركة الإيديولوجية أكثر تعقيدًا بصعود الفاشية في إيطاليا في عشرينيات القرن العشرين -والتي ناصبت الشيوعية العداء بشكل عنيف- وعبّرت عن مبادئ شمولية حادة وعداء لمبادئ الغرب الحديثة، والتي ما لبثت أن تقاطعت مع بعض أشكال الأصولية الدينية التي برزت في أعقاب هجمات ١١ سبتمبر، هذا الهجوم الذي أبرز ظهور خطوط معركة إيديولوجية حددت السياسة العالمية في أوائل القرن ٢١، توّج الخط الصدامي بإعلان أطروحة (هنتنغتون) حول صراع الحضارات، التي أثارت جدلًا واسعًا بسبب حديثه عن نهاية الصراع الرأسمالي - الشيوعي وبداية الصراع الإسلامي - الغربي(١٨). تلتقي «الفوضوية» مع الحركات المتطرفة في تبرير العنف وتمجيده، فالفوضويون نظروا إلى التفجيرات والاغتيالات بكونها أعمالًا عادلة ومنصفة في حدّ ذاتها، وتمثّل أحد أشكال الانتقام أو القصاص القادرة على استثارة مشاعر الجماهير وتحطيم معنويات الطبقات الحاكمة بعد إجبارها على إرخاء قبضتها. الربط بين الفوضوية والعنف قد يضرّ بجاذبية وشعبية أفكار المتطرّفين عند الجماهير، فمثلًا تمكنت هجمات إرهابية على فنادق الأردن في عام ٢٠٠٥ من تقوية آليات الدولة لمكافحة الإرهاب وزيادة الالتفاف الشعبي حول تلك الإجراءات بدلًا من حصول انفراط في الشارع لصالح المتطرّفين.

أما «الفاشية» فتلتقي مع التطرف في دمجها الأساطير المتعلقة بالماضي في صورة المستقبل الذي يتّسم بالتجديد والصحوة، ومن هنا أتت فكرة الرجل الجديد مع وجود محاولات لتكرار أمجاد الماضي، ففي ألمانيا جرى تسمية النظام النازي بالرايخ الثالث الذي أعقب الرايخ الأول لـ«شارلمان» والرايخ الثاني لـ«بسمارك». يتم تأكيد القوة عن طريق التوسع والحرب والغزو من أجل تشكيل إمبراطورية تُخضع بقية الناس لها، ويصير كل شيء من أجل الدولة، لا شيء ضد الدولة، ولا شيء خارج الدولة(١٩). تشترك الإيديولوجيات العنيفة بعضها مع بعض في سلوك طريق الشوفينية التي تعني التفاني غير النقدي وغير العقلاني في قضية، والإيمان بتفوقها المطلق.

ينحدر تعبير «الأصولية» من كلمة Fundamentalism المشتقة من كلمة Fundamental والتي تعني القاعدة، وقد يكون إطلاق اسم «القاعدة» على أكبر تنظيم أصولي هو من قبيل الصدفة، إلا أنه لم يجنح بعيدًا عن معناه اللاتيني، ورغم أنه مصطلح يرتبط بالجمود والتصلب والسلطوية، إلا أن أصحابه ينظرون إلى أنفسهم كإحيائيين للتقاليد الراسخة. تنشأ الأصولية في المجتمعات التي تعاني من أزمة هوية يقودها البحث عن معنى في عالم تزداد فيه نسبة الشكّ وعدم اليقين.

تستلزم الأصولية الإيمان بأفكار أصلية مستوحاة من نصوص مقدسة، صحيح أن القراءة الحرفية هي ملمح بارز للأصوليين، إلا أنه لا ينبغي الخلط بين القراءة الحرفية والأصولية، فالأصولية هي قراءة حركية للنص تحوّله من طابع مركب إلى مشروع سياسي وسلطوي، وهي عاجزة عن التعامل مع المشكلات المركبة بسبب نظرتها التبسيطية للأزمات والمشكلات العالمية. والأصوليون انتقائيون في استخدام ما يحلو لهم من أدوات الحداثة رغم لعنهم إياها، والدليل أنهم كانوا من أكثر الحركات التي استفادت من تقنيات الاتصال الجماهيري الحديثة التي تُعدّ إحدى مفرزات العصر الجديد.

قد تستمد الأصولية قوتها من تقدم العولمة التي حطمت قدرة القومية المدنية على إقامة هويات سياسية مستقرة، فجعلت فهمها للنصّ يحل محل الأمة باعتباره المصدر الأساسي

للهوية الجمعية، وقد تلعب دورًا تعبويًا مثلما حدث في حالة البوذية المتشددة في سريلانكا التي قادت الأغلبية العرقية (السنهال) لاضطهاد الأقلية الهندوسية (التاميل)، ما أدى إلى بدء حرب أهلية دامت ربع قرن، وفي حالة الهندوس الذين حطموا مسجد (باربري) في عام ١٩٩٢ لاعتقادهم أنه قد بني فوق المكان الذي ولد فيه الإله (راما).الأصوليون يتعاملون مع النصوص الدينية الكبرى كإيديولوجية شاملة تعيد بناء المجتمع لكونها تعبر عن الكلمة الإلهية، لذلك يرفضون بشدة كل إيديولوجية غير مؤسسة على النصوص الدينية بسبب افتقارها إلى المحتوى الأخلاقي كما يقول المنُظر السياسي البريطاني (أندرو هيود) في كتاب (مدخل إلى الإيديولوجيات السياسية). تنظر الأصولية إلى الأمم باعتبارها كيانات دينية وهي تتعارض في مضمونها مع وجود المجتمعات القومية، لذلك تنتعش عندهم فكرة المجتمعات الدينية العابرة للقوميات، وتتّسم برفضها التمييز بين الدين والسياسة وقد تتخذ شكلًا سياسيًا حادًّا مثلما فعلت الحركة الخمينية في إيران ١٩٧٩، ورغم أن الأصولية غير مقتصرة على دين بعينه فإنها من الممكن أن تتصارع فيما بينها لتخلق لنا عالمًا مليئًا بصدام الأصوليات المختلفة.

الفوضى الخلاقة

نعود إلى (إدارة التوحش)، يتخيل مؤلف هذا الكتاب واقع العالم الإسلامي بعد انهيار الأنظمة الحاكمة الحالية، حيث يتوقع أن تسود هذه المناطق فوضى كبيرة وخلاقة تتجاوز حالة غياب النظام العادية لتصل إلى مرحلة التوحش، والتي تُعدّ حالة ضرورية تعقب «سقوط الدول الكبرى والإمبراطوريات سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية»، هنا يجب على تنظيم القاعدة التحرك باعتباره القوة المهيمنة التي تستطيع الحلول مكان الأنظمة القديمة. تقوم الإدارة الجديدة بتلبية حاجات الناس من الغذاء والأمن والدواء، وتعمل على إقامة القضاء الشرعي بين الناس الذين يعيشون في مناطقهم، ولاحقًا يجب تدريب الناس على القتال لتشكيل «مجتمع مقاتل» من أجل ضمان أمن «منطقة التوحش» وتوسيعها والسيطرة على مناطق جديدة.

المناطق المستهدفة هي مناطق من المتوقع أن تعاني من فوضى متوحشة بسبب غياب السلطة في وضع يشبه وضع أفغانستان إبان حكم المجاهدين وقبل سيطرة طالبان الأولى في عام ١٩٩٦، حيث يتعطش الناس لمن يدير هذا التوحش سواء كان من الأخيار أو من الأشرار، عندها يجب أن يقفز مقاتلو التنظيم إلى الواجهة، مستعدين لملءِ هذا الفراغ بالاعتماد على أسلوب الشدة وإثارة الرعب وفرش الأشلاء والدماء والجماجم من أجل إقامة الدولة المنشودة. ويُشبه عالم التوحش المُتخيّل بالنظام القبلي في شبه الجزيرة العربية قبل قيام دولة المدينة ودول الممالك -بعد سقوط الخلافة العباسية- أثناء تعرض المسلمين لهجمات التتار والصليبيين، حيث افتقد النظام والقائد والمناضلين.

يسهب المؤلف في شرحه للخطوات اللازمة لإدارة التوحش، التي منها «الترقّي حتى تتحقق إمكانية التوسع والقدرة على الإغارة على الأعداء لردعهم وغنم أموالهم وإبقائهم في توجس دائم وحاجة إلى الموادعة». ويمضي في شرحه لمفهوم الجهاد بكونه «شدة وغلظة وإرهاب وتشريد وإثخان... ولا يمكن أن يستمر القتال وينتقل من مرحلة إلى أخرى إلا إذا كانت مرحلة البداية فيها مرحلة إثخان العدو وتشريده، بل يحتاج إلى هذه الشدة في المراحل الأخرى في كثير من الأحيان». كذلك يجب «إنهاك قوات العدو والأنظمة العميلة لها وتشتيت جهودها والعمل على جعلها لا تستطيع أن تلتقط أنفاسها»، لا خيار أمام من يتواجدون في مناطق سيطرة القاعدة سوى الانضمام إليها أو قتلهم. ويدعو إلى استدراج الولايات المتحدة إلى حرب خارج أراضيها لتشتيت قوتها وإضعافها في الشرق الأوسط، وبمجرد السيطرة على منطقة ما فإنه يجب إقامة إمارة فيها من أجل تطبيق الشريعة ورعاية مصالح الناس.

الطريف أن مقاتلي تنظيمات القاعدة و«داعش» المتّصفين بالوحشية هم من وضعوا نظريات في إدارة التوحش الذي سيخلقونه في العالم بمجرد تهاوي الأنظمة الحاكمة وانجرار الناس نحو الفوضى. تكمن خطورة «إدارة التوحش» في كونه قد ترجم إلى واقع مشاهد ومُصوّر ومُخلد، ينشد فيه المقاتلون إقامة دولة أصولية من خلال المرور بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة النكاية والإنهاك، وذلك يشمل القيام بعمليات كبيرة وصغيرة ولو كان الفعل ضربة عصا على رأس «صليبي». يتطلب الأمر إجادة توظيف الإعلام والإنترنت. تشمل هذه المرحلة تجنيد الشباب الجدد في التنظيم والعمل على زعزعة الأنظمة في المناطق الحدودية وتجنيد جنود العدو من أصحاب الرواتب الدنيا لدفعهم إلى الانضمام إلى «داعش» أو الفرار منهم.

إذا ضُرب منتجع سياحي فإن ذلك سيكلف الدول العدوة تكاليف باهظة لتأمين المنتجعات الأخرى والتسبب في إرهاق اقتصادي بسبب أفعال إرهابية غير مكلفة نسبيًا، وتصفية كاتب أو كاتبين سيخرس الأفواه المُعارضة وسيتطلب توفير حماية مُكلّفة لآلاف الكتّاب، كثير من هذه الأفعال تستطيع التسبب في زعزعة في الأمن وقد تقود إلى فرار الجنود والجيش، من هنا يبدأ التوحش والفوضى.

المرحلة الثانية: مرحلة إدارة التوحش، هي مرحلة تسبق إعلان الدولة الرسمي، يجب الحذر فيها من الاستسلام العاطفي للدعايات الوطنية التي تدعو إلى الحفاظ على النسيج الاجتماعي واللحمة الوطنية، لأن ذلك يُغفل سُنّة سقوط الحضارات وبنائها، خصوصًا أن بعض المتطرّفين لا يعترفون أصلًا بحدود سياسية للبلاد التي يقطنها المسلمون.

المرحلة الثالثة: التمكين. في أي مرحلة من هذه المراحل الثلاث قد يواجه التنظيم غارات من عدوّ صليبي أو مرتد في مناطق المدنيين أو معسكرات المقاتلين، يجب الاستعداد المادي لذلك، فبالإضافة إلى التحصينات يجب اتباع سياسة دفع الثمن التي تجعل العدو يفكر ألف مرة قبل مهاجمة منطقة تقع في حكم التنظيم، يتضمن ذلك الهجوم على مناطق بعيدة لا تدخل ضمن نطاق التنظيم من أجل إرباك العدو ورفع معنويات الأفراد.

عند حصول معركة أو حدث هجومي، فإن الناس سينقسمون إلى قسمين: مؤيد ومعارض، بالإضافة إلى فريق محايد ينتظر نتيجة المعركة لينضم إلى المنتصر، يجب تركيز العمل على استقطاب الفريق المحايد لاحتمالية امتلاكه دورًا حاسمًا في المراحل الأخيرة من

المعركة الفاصلة، ومن الممكن استخدام خطابات ترفع الحالة الإيمانية بجانب خيارات العفو والمال.

يتطلب تطبيق مبادئ التوحش استخدام وسائل بشعة، تشمل الحرق وقطع الرؤوس والأوصال والحرمان من الطعام حتى الموت والإغراق في الماء والإلقاء من المرتفعات، وإذا شكّ المسؤول في كفر إنسان فإنه يجوز قتله للمصلحة. ينبغي اختيار الأهداف المراد نشر الفوضى فيها بعناية، فيجب النظر في عمقها الجغرافي وتضاريسها والنظر في درجة قوة نظامها الحاكم ودرجة وجود المدّ العقائدي فيها. ينبغي الاستفادة من كتب الإدارة ويجب الحذر من «الرخاوة»، التي تُعدّ أهم أسباب الفشل التنظيمي.

كتاب (الأمير) في يد الأمير

لا نعلم إن كنّا سنجد كتاب (الأمير) لماكيافيللي(٢٠) في جيب أحد خلفاء «داعش» عند مقتله كما وُجد الكتاب في جيوب بعض ملوك فرنسا عند مقتلهم. كثير من الأمراء والملوك والعسكريين تأثروا بهذا الكتاب الذي يستفيد منه الحاكم العادل ويستغله الحاكم الظالم؛ اطلع على الكتاب خلفاء آل عثمان قبل خلفاء «داعش»، نابليون عشق (الأميرَ)، أثر في سياسة (فريدريك الأكبر) -مؤسس ألمانيا الحديثة- الذي وصف ماكيافيللي بأنه مدافع عن الجريمة وأنه أحد خوارق الشيطان، كان الكتاب موضوع رسالة (موسيليني) لنيل درجة الدكتوراه قبل أن يصبح إمام الفاشية في أوروبا، وكان مخبَّأً تحت وسادة (هتلر) الذي خطط -وهو مستلقٍ فوقها- لغزو أوروبا بشقّيها الشرقي والغربي. لا يسعني إلا تخيل أمير مؤمني «داعش» وهو يقرأ ويطبق نصوص ماكيافيللي حرفًا حرفًا.

نيكولو دي ماكيافيللي (١٤٦٩– ١٥٢٧) كان دبلوماسيًا وسياسيًا إيطاليًا من عصر النهضة، عاش حياة سياسية حافلة وسط الاضطرام السياسي الذي شهدته فلورنسا في تلك الفترة، لكن اختُتمت مسيرته بالطرد من عمله وربما النفي من فلورنسا إلى مزرعته الريفية عام ١٥١٣. تفرغ فيما تبقى من عمره للكتابة في الفلسفة والسياسة، ووضع عدة أعمال أهمها

وأشهرها الكتاب الذي خلد ذكره: الأمير، الذي ينصح فيه الحاكم بالطريقة المثالية لحكم البلدان بحسب نظرة ماكيافيللي(٢١).

نصح الأميرُ الحاكم بأن يستعمل الدين كوسيلة لكسب الشعب، وعليه التخلص من كل خُلق أو تقليد يشوش عليه حكمه، والأفضل أن يخافك الناس على أن يحبوك، لم يكن ماكيافيللي متدينًا، لكنه أكّد على مبدأ خضوع الإمارة الكنسية لتقاليد دينية عريقة بسبب اقتناع الناس بالقوة المعنوية التي تتمتع بها. الإمارات الدينية وحدها هي الآمنة الهانئة لأنها محكومة بوسائل عليا لا يمكن للعقل أن يدركها، ومن الجنون أن يحاول الإنسان البتّ في أمرها، يمكن الاحتفاظ بها بفضل العادات والرسوم الدينية القديمة التي لها من القوة والمزايا التي تسهل البقاء لأمرائها مهما كان حالهم، خراب الأمم هو نتيجة الاستهانة بالدين الذي يُعدّ عاملًا رئيسيًا في ضبط المجتمع.

يقول ماكيافيللي إن الوصول إلى الإمارة يمكن أن يكون عن طريق النذالة، لا يمكننا أن نطلق صفة الفضيلة على الأمير الذي يقتل مواطنيه ويخون أصدقاءه ويتنكر لعهوده ويتخلى عن الرحمة والدين، قد يستطيع المرء الوصول إلى السلطان بواسطة مثل هذه الوسائل لكنه لن يصل إلى المجد.

النظام الذي يستطيع تحقيق الوحدة هو ذلك النظام الديكتاتوري مُطلق القوة الذي يستخدم القسوة والاغتيال وخيانة العهد والخديعة والكذب لتحقيق طموحاته السياسية، شكلت هذه النصوص مصدر إلهام للفيلسوف (نيتشه) الذي سوّغ سحق الضعفاء والفقراء لأنه كان يؤمن بفكرة «السوبرمان» الذي يجب أن يضع القوة محل الأخلاق التي سماها بأخلاق العبيد والجبناء والضعفاء.

الأمير الذي يفكر في الترف أكثر من تفكيره في السلاح، طبقًا لماكيافيللي، كثيرًا ما يفقد إمارته، الناس يحزنون على انتزاع ملكية ما منهم أكثر من حزنهم على موت أب أو أخ، لأن الموت يُنسى أحيانًا أما الثروة فلا تُنسى أبدًا، إن ضم إمارات جديدة لا يتمّ إلا بالبطش أو بوعد للناس بتحسين أوضاعهم نتيجة لما عانوه من حكامهم، ويصعب الاحتفاظ بالإمارات

الجديدة إلا بالسكن والإقامة فيها، على الأمير ألّا يُسند المراتب الرفيعة إلى أناس سبق أن أساء إليهم، ولا ضير على الأمير أن ينافق العدو الأقوى.

من المشاهد التي يضع ماكيافيللي إصبعه عليها، أن الناس تعشق من يصون مصالحها، ولكي تحكم أرضًا فعليك بخلخلة التركيبة السكانية فيها كما فعل العثمانيون في اليونان. إذا سيطرت على شعب فاجعل أعزته أذلة وأذلته أعزة، واقضِ على حلفائك في أقرب فرصة حتى لا يتحولوا إلى شركاء لك في الحكم، اقضِ على الشخص الذي يعمل بمثل مستواك حتى لا يكون منافسًا لك، وكن كريمًا إلى أن تصل إلى السلطة ثم لا مانع من أن تعود إلى غريزتك الرئيسة وهي البخل، كن قاسيًا وظالمًا ومكتسحًا، لكي تكتسح شعبًا فعليك باختراع القوانين التي تناسبك حتى يذعنوا لها، واعرض القوانين الجديدة على الدهماء وبطريقة مستعجلة قبل أن يتدخل القلة فيعرقلون القانون.

لا تقضِ على الخصوم مرة واحدة، لكن حالف بعضهم حتى تفرّقهم واقضِ على غيرهم بالتدريج، أحيانًا ستحتاج إلى إنجاز فلا بد لك من تفجير قضية، وبعد تفجيرها ردّ عليها ردًّا حاسمًا حتى تسجل نصرًا في رصيدك كما فعل (فرناندو) حين طرد العرب من الأندلس باستخدام القسوة الدينية. أقم المشاريع العظيمة حتى تذهل شعبك وتكون متسلطًا على عقولهم واشغلهم بالمشروع تلو المشروع وهكذا سينشغلون عنك في معظم فترة سلطانك.

ضرب ماكيافيللي مثلًا للأمير الذي لا شريك له في إمارته بسلطان الدولة العثمانية، فهو الآمر الناهي الذي لا يُطاع غيره، وكل من حوله رهن إرادته، يولّي على الولايات من يشاء ويعزل فيها من يشاء، هذا النوع من الأمراء من الصعب اكتساحه لأن أعوانه لا يقبلون سيدًا غيره وهم ليس لهم سلطان على الشعب حتى ينشقوا عليه، هذه الصورة من السلطنة هي ما يصبو إلى تحقيقه الإرهابيون.

يرفض ماكيافيللي جيوش المرتزقة الآتية من الخارج للدفاع عن الإمارة، ويرى أن قدرة المدينة في الدفاع عن نفسها هي التي تجعل الأمير ذا سلطة ثابتة وقادرة على الاستمرار، من يستخدمون القسوة الحكيمة هم من يتمكنون من إرضاء الله والناس، أما من

يستخدمون القسوة الطائشة فمن المستحيل عليهم أن يحتفظوا بمراكزهم، على الحاكم الجديد استخدام القسوة مرة واحدة بحيث لا يحتاج إلى العودة إليها مرارًا، وبذلك يأمن شعبُه جانبه. الإساءات ينبغي أن تتمّ مرة واحدة ليكون ألمها مُفردًا فتنسى سريعًا، أما الحسنات فتُعطى شيئًا فشيئًا ليكون قدرها أعظم.

لا ينبغي لأمير أن يستغني عن علم الحرب وإلّا فقدَ احترام جنوده، وينبغي له أن يمارس الحرب في فترة السلم بالعمل والتعلم، فيُبقي جنوده مستعدين ويمارس الصيد ويمارس ارتقاء الجبال وهبوط الوديان ويتعلم أنواع الأنهار ليعرف جغرافية بلاده، أما تدريب العقل فيكون بدراسة تاريخ العظماء والبحث عن أسباب النصر، ينبغي له ألّا يحرك لسانه بكلمة لا تدل على أنه متّصف بالخصال الحميدة فلا يُسمع منه سوى الأمانة والعفة والتقوى وحب الإنسانية، وأهم تلك الصفات هي التقوى، فكل الناس ترى ظاهرك وقليلون يلمسون حقيقتك. وعلى الأمير الابتعاد عن الخِفّة والخوف وعدم الثبات وضعف العزيمة وإلا صار مرذولًا، وعليه إفهام الناس أنه لا يزعجه قول الحقّ أمامه، لكن إذا تجرأ الجميع فقد يفقد الأمير احترامه، فينبغي اتخاذ وسيلة أخرى وهي السماح للخاصة بقول الحق عند سؤالهم بدون حرج.

فكم من صفات «الأمير» انطبقت على أمراء القاعدة و«داعش» ومن سيأتي بعدهم؟

خوارج العصر الحديث

تحدث الفيلسوف الفرنسي (أوغست كونت) في القرن التاسع عشر عن ثلاث مراحل تاريخية مر بها العقل البشري في رحلة تطوره:

1. العقل اللاهوتي: يلجأ الفرد إلى تفسير مختلف الظواهر باستخدام الأسباب الخارقة للطبيعة أو القوى الخفية.

2. العقل الميتافيزيقي: يسعى الفرد إلى معرفة العلل الأولى للظواهر التي تقع تحت الحس دون أن يتوصل إلى تفسيرات محددة للأشياء، ويردّها إما إلى قوة وحيدة مُسيّرة وإما إلى قوى طبيعية.
3. العقل الوضعي: هو عقل يمثل ذروة العقل الإنساني في نضجه وكماله وطريقة تفكيره فهو يستكشف القوانين الصانعة للظواهر من حوله من خلال الملاحظة والتجربة والتعقل(٢٢).

لا تتصور أن المتطرّف يعيش نفس الحالة العقلية التي يعيشها الناس في عصره، فهو لا يزال منغمسًا في مرحلة عقلية بدائية ينتظر فيها معجزة تسحق أعداءه ويكون هو أحد أدواتها، هو نسخة مكررة لأفراد عاشوا في قرون سابقة يتوارثون نفس السمات والمواصفات الفكرية والاعتقادية. تحمل هذه الفئة نفسية غريبة سماها المفكر الفرنسي (جوستاف لوبون) بـ«النفسية اليعقوبية»(٢٣). واليعقوبيّون هم جماعة مسيحية من ذوي الأخلاق الحماسية الضيقة تتضمن نفسيتهم فكرًا عنيدًا ينابذ كل ما هو خارج أفكارهم، ويبدو اليعقوبي بمظهر العاطفي الساذج الذي لا يدرك إلا ظواهر الأمور دون نتائجها ومآلاتها وارتباطاتها المنطقية، وهم بذلك يتطابقون مع مقاتلي «داعش» تطابقًا تامًّا بالرغم من اختلاف أسمائهم ومذاهبهم. تُسنِد روح التدين قدرتها المتعاظمة إلى قوى علوية تتمثل في ألفاظ وصيغ تُشكل أساس المعتقدات الدينية والسياسية، يُشبَع فيها المنطق بالمشاعر والعواطف التي تدفع الأتباع إلى بذل حياتهم في سبيل الخيال الذي يقدسونه. هذه العقلية تتكون من عقل ضعيف وعاطفة قوية وتديُّن صلب أقام فيه الفرد آلهة تدفعه إلى اقتراف أكثر الأعمال قسوة.

لو قبلنا التقسيم التاريخي لمذاهب الإسلام إلى سنّة مُوالين وشيعة مُعارضين وخوارج ثائرين، فإن أقرب الفِرق الإسلامية إلى إرهابيي اليوم هم فرقة الخوارج، المعروف عنهم أنهم لا يقبلون الحلول الوسطى ولا الحق الأرسطوي المتوسط بين طرفين، لذلك تراهم منذ نشأتهم الأولى يرفضون أي حلّ تُشمّ منه -ولو من بعيد-

رائحة التنازلات والمساومات. نقل لنا التاريخ أن الخوارج كانوا يبقرون بطون الحوامل من المسلمين المخالفين، وفي نفس الوقت يحذرون بعضهم بعضًا من التعرض لخنازير أهل الكتاب. لما ثار عبد الله بن الزبير على الدولة الأموية طلب منه الخوارج التبرؤ من أبيه الزبير بن العوام حتى ينضموا إليه، فلما رفض رفضوه ووضعوه في قائمتهم السوداء حتى نال منه الحجاج بن يوسف الثقفي.

هذه العقلية الأسمنتية هي ما جعلت الخوارج يخرجون على علي بن أبي طالب حين قبِل مصالحة معاوية بعد موقعة صفين، فرؤيتهم تنعدم فيها نسبية الحقيقة التي تحوم في مساحة شاسعة بين القطعيات المحدودة، فهم مكعبات صلبة لا تقبل التشكيل والتطور، وهذا مما أوقعهم في نزاع نفسي مع ذواتهم ومع غيرهم.

انعكست هذه السمات النفسية الفكرية على واقع الجماعات المتطرفة اليوم، فصار من ملامح مذهبهم إطلاق الأحكام العامة بالمطلق على كل من لا يتواجد في صفوفهم، فتراهم يُكفّرون المسلمين بالجملة ويستحلون دماءهم بالجملة. وقد يحمل هذا التكفير صورًا عديدة، منها تكفير مرتكب الكبيرة، والتكفير بما هو ليس بذنب أصلًا، والتكفير بالظن، والتكفير بالأمور التي يسوغ فيها الخلاف والاجتهاد، والتكفير دون التّحقق من توفر الشروط وانتفاء الموانع كما يقول علماء العقائد في شروطهم. ولكي يُقنعوا أنفسهم بأنهم أهل الحق أخذوا يطلقون على أنفسهم ألقابًا يشعّ من بريقها ختْم الإيمان والتقوى من قبيل: الجماعة المؤمنة والصابرة والمحتسبة، فتسموا بجميع الأسماء التي يفتقدون وجود معانيها في حياتهم.

يجيد هؤلاء إخفاء دلائل اضطرابهم النفسي عن طريق تقمّص الاستقامة بين من يعرفونهم أو من يسمعون عنهم، فهم يبدون لمن يراهم أناسًا عاديين وأحيانًا ظرفاء ولطفاء بصورة مريبة، يبحثون عن طريقة لمساعدة غيرهم حتى يكون من ساعدوه مدينًا لهم، يستخدمون كلمة «نحن» حتى يُشعروا الناس بأنهم وإيّاهم في قارب واحد، يتجاهلون رفض الآخرين لهم، يتحدثون ويقدمون الكثير من التفاصيل غير

الضرورية لتشتيت من يستمع إليهم، مستهترون ويتظاهرون بالشجاعة ليخفوا جزءًا من قلقهم حتى لا يراهم الآخرون جبناء منتكسين.

يميل نمط تفكيرهم إلى التصلّب والتجمد في أكثر تفاصيل حياتهم، يجعلون من فروع الدين أصولًا يقاتلون من أجلها ويسفكون لها الدماء، هم على استعداد لاضطهاد من يخالفهم في طول اللحية وقِصر الثوب وحدود الطرب والغناء بالرغم من كونها فرعيات احتلت مساحات ضئيلة في كتب الفقه، لكنها أضحت اليوم جرس إنذار يكشف لك عن مدى قرب من يتحمس لها إليهم، ويكفي فتوى تطعن في شرف من يحلق لحيته من أحد شيوخهم لتجعل المتطرّف يرى نفسه ناصر السنّة الأوحد مقابل كل من يحلق أو يخفف لحيته، وقديمًا قال الغزالي في متطرّفي الماضي: «أشد الناس حماقة أقواهم اعتقادًا في فضل نفسه».

من سمات خوارج اليوم الأخرى هو جعلهم أصول الدين فروعًا يسوغ الاختلاف فيها، بل هي من الاختلاف المندرج تحت قاعدة «اختلاف أمتي رحمة»، فعندما يختلفون حول جواز قتل شخص بحكم الردّة فإنهم لا يترددون في صناعة صندوق تصويت على دمه من قبل أئمة ودعاة ومحتسبين لم يستكمل كثير منهم التعليم النظامي، وبعد إفضاء مجلس كبار جهابذة «داعش» إلى قتل ذلك الشخص، يقوم أعضاء المجلس بحضن وتقبيل بعضهم بعضًا وهم يردّدون بخشوع ما قاله الشافعي: «ألا يصحّ أن نختلف ونبقى إخوانًا»، فالخلاف المعتبر عندهم ليس هو الخلاف في ما يجوز ذبحه وأكله من الحيوانات، بل هو في جواز وكيفية ذبح من لا يخضع لسلطانهم.

من اللافت أن المتطرّف أو من يقترب منه لا ينصدم مما ينصدم منه الناس الطبيعيون، فتساقط أبراج شاهقة وتفجير مطارات عامرة وتفخيخ مترو أنفاق ومقتل مئات وجرح آلاف وفزع ملايين لا يصدمه كثيرًا، فهو يعدّ ذلك كله جزءًا من وعيد الله الذي ينتظر أعداء دينه. تراه يدخل طورًا غريبًا من الهدوء أثناء ممارسته

الصراع، ثم يتحين الفرصة لممارسة العنف، وعنده رغبة عارمة في السيطرة على غيره، ويبحث عن أسباب السطوة الاجتماعية بكل السبل الدينية. وعندما لا تؤهله شهاداته العلمية ولا حسبه ولا نسبه لممارسة دور القيادة الاجتماعية، فإنه لا يجد خيرًا من الدين ليكون باسمه وصيًّا على الناس، الذين جعلوا منه أمرًا مشاعًا لمن لم يجد كلية تؤويه أو تخصصًا يحتويه.

يوجد نوع آخر من المتطرّفين لم تؤهله إمكانياته الاجتماعية لخطف الدين بسبب وجود منافسة حامية الوطيس مع وعاظ أكثر تأثيرًا وجاذبية، فأوجدوا لأنفسهم طريقًا آخر لقيادة الناس من خلال مواقع التواصل الاجتماعي التي تستطيع إظهار النملة العرجاء في مظهر الماموث العملاق، وكثيرًا ما تراهم يحرصون على نقل دروسهم وخطبهم في البث المباشر وقنوات (اليوتيوب) و(السناب شات) و(الإنستغرام) و(الواتسآب)، حتى لو كان موضوع الدرس هو «مفاسد وسائل التواصل الاجتماعي». هذه الفئة وإن لم تكن مع «داعش» حاليًّا فإنها تزيد من قابلية عقول الناشئة لتقبل أفكار التطرّف كما تزيد المواد الكيميائية من خصوبة الأرض القاحلة. أحيانًا تلاحظ أن المراجع التي يعتمدها بعض المتشددين في دوراتهم العلمية هي نفس المراجع التي يقررها خليفة «داعش» على ولاته وأتباعه، فيجد المتشدد المُسالِم نوعًا من الأُلفة اللاإرادية معهم، وعقله الباطن يدرك أنه يتبع سنن حياتهم ويستدل بنفس أدلتهم ويقلد نفس علمائهم.

لا تستغرب أن يحنّ الفرع إلى الأصل في لحظة صحوة، ويتصالح مغسول الدماغ مع ذاته ومع ما تعلمه طوال تلك السنين، فيبدأ برحلة البحث عن ذاته منطلقًا من الإلهامات التي تلقنها ورددها في سراديب التطرف، ليجد في «داعش» الحاضنة الوحيدة في العالم التي تتيح له التخلص من مرحلة النظريات والتأملات وتدخله في مرحلة التطبيق والتمكين.

يذكر أحد الدعاة أنه راسل أحد الرموز المتشدّدة في اليمن لكي يتفقوا معه على التفاهم ووحدة الصف في ظلّ وجود أعداء يتربصون بالبلد، فكان ردّه أن الأولوية عنده هي التخلص من الصوفية التي اعتبرها أشد خطرًا على المسلمين من اليهود والنصارى والشيوعيين، انعكس هذا السلوك على تلاميذه الذين صاروا منظّرين ودعاة في تنظيمات القاعدة و«داعش».

لو أسقطنا هذا الموقف العدائي على جماعة الجهاد ذات الجذور الأخلاقية المشتركة مع المتشددين فإننا سنرى أنهم -وبفضل تزمتهم وعقائدهم الجامدة- لا يمكن أن ينسجموا مع محيطهم المتحضر، هم أنفسهم لم ينسجموا مع إخوان منهجهم وتفرقوا إلى جماعات متفرقة بينها ثأر وذبح ودم، فكثرت انشقاقاتهم على أمرائهم الذين هم في الأساس منشقون على أمراء آخرين في سلسلة انشقاقات لامتناهية.

يؤكد (مارك سيجمان)، المسؤول السابق في وكالة الاستخبارات الأمريكية، في كتابه (جهاد بلا قيادة)(٢٤) إن الأعضاء المعتدلين في أية جماعة سيتركونها، ما يرفع احتمال تحول الجماعة إلى المزيد من التطرّف، إذ يصبح أعضاؤها أكثر تشابهًا وانسجامًا بخروج الأصوات المعارضة، وبما أنه من السهل إعلان إمارة منشقة بأمير منشق فإن سهولة الانشقاق تُسهّل تكوين جماعات أكثر تطرّفًا إلى ما لانهاية.

هذا التقوقع والتشرذم يعكس واقعهم النفسي الذي لا يحتمل خلافًا كبيرًا ولا صغيرًا بين أفراد التوجه الواحد، فأسرع طريقة للتواصل بينهم هي لغة الرصاص، وقد يلجؤون إلى وسائل الحشاشين لاغتيال المنشقين عنهم، ولو راجعت أسباب خلافهم بعضهم مع بعض لحمدت الله على أن جعل لك أعداء بهذا الغباء، ومع أنهم أحيانًا يبدون كشبكة فريدة منظمة بفضل بعض أجهزة المخابرات التي اخترقتهم، إلا أن الحمقى والمتهورين منهم هم الأغلبية في ميدان الإرهاب.

الإرهاب عبر التاريخ

هل تعلم أنه لا يوجد تعريف جامع يتفق عليه الجميع بخصوص الإرهاب، بينما تتوفر تعريفات محددة لجرائم القتل والاغتصاب والسرقة؟

يختلف تعريف الإرهاب باختلاف أدبيات الأمم والشعوب. قامت الباحثة (مارثا كرينشاو) في ٢٠٠٧ بمراجعة ١٣ كتابًا في مجال الإرهاب ولم تجد تعريفًا متفقًا عليه(٢٥)، هناك أيضًا من وجد اختلافًا في تعريف الإرهاب الانتحاري، الذي قد يُعرف بكونه هجومًا عنيفًا بدوافع سياسية يُنفذ فيه الهجوم برعب تام وشكل متعمد ومعرفة كاملة بموت المنفذ. سبب هذا التباين في الآراء هو اختلاف المنطلقات والرؤى التي ينطلق منها الباحثون والميدانيون، فالاستشهاد عند البعض هو فعل غير انتحاري لارتباطه بقيم دينية مقدسة، في حين أن العمليات الفدائية بكافة مسمياتها وأنواعها يُنظر إليها كعمليات انتحارية غير مشروعة عند آخرين.

تُعرّف الولايات المتحدة الأمريكية الإرهاب على أنه عنف متعمد، ذو دوافع سياسية، تنفذه مجموعات أو عناصر سرية ضد أهداف غير قتالية، ويُقصد به التأثير في الرأي العام، فالإرهاب هو حرب نفسية تستخدم العنف كوسيلة للتواصل مع العالم. وهناك من يُعرّف الإرهاب بأنه عُنف يُرتكب بغرض سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو إيديولوجي أو ديني ينتهك المبادئ العامة للقانون الإنساني، ومصادره مختلفة ومتفاوتة بين الشعوب، تتضمن الإيديولوجيات الدينية واليمينية والقومية والشوفينية، كذلك تشمل الجماعات الفوضوية التي تؤمن بالإرهاب كوسيلة لهدم الأنظمة الاجتماعية القائمة بجميع أشكالها.

(جيرولد بوست) المحلل النفسي الذي كانت الإدارة الأمريكية تعتمد على تحليلاته لشخصيات زعماء العالم، يقسم الإرهاب إلى عدة أقسام(٢٦)، منها: الإرهاب المرضي، الجنائي، والسياسي -الذي يندرج تحته إرهاب الدولة وما دون الدولة- والإرهاب اليساري

واليميني، الإرهاب القومي الانفصالي، وإرهاب التطرّف الديني الذي يقوم فيه محاربون عقائديون بالدفاع عن إيمانهم ضد أعدائهم تحت تأثير تخدير من يفسرون النصوص الدينية بطريقة دموية، ويظل هذا النوع قائمًا طالما كانت هناك جماعات عقائدية تريد تهيئة العالم لنهاية ملحمية موعودة.

أطلق ابن خلدون أوصافًا لاذعة ضدّ عرب الجاهلية الذين تتقاطع أوصافهم مع الإرهابي اليوم، والذين مارسوا الإرهاب عن طريق الغدر والغزو والسبي باستخدام الوسائل المتاحة في ذلك الوقت، فكلاهما «عصبي المزاج، سريع الغضب، يهيج للشيء التافه، ثم لا يتوقف في هياجه عند حد، وإذا اهتاج أسرع إلى السيف وأحكم إليه، حتى صارت الحرب نظامهم المألوف وحياتهم اليومية المعتادة، ميالون إلى الغزو والأخذ بالثأر وعاطفيون تتحكم العواطف في حياتهم، ويغضبون لأتفه الأمور»((٢٧).

تمتد جذور العمليات الانتحاريةالعنيفة في عُمق التاريخ المُدوّن، والذي شمل تصرفات اليهود إبان الاحتلال الروماني ليهوذا، وعمليات الاغتيال التي قام بها الحشاشون إبان الحروب الصليبية، وتفجير الجنود الهولنديين لأنفسهم في وسط أعدائهم في حرب السيطرة على تايوان في عام ١٦٦١، وهجوم (الكاميكاز) اليإبانيين بالطائرات في الحرب العالمية الثانية، وعمليات نمور التاميل في سريلانكا، ثم وصولًا إلى فاتحة القرن الواحد والعشرين المشؤومة: الحادي عشر من سبتمبر.

تُعتبر العصور الوسطى أعنف فترات الأصولية المسيحية التي احتكرت فيها الكنيسة المعرفة والحقيقة وألغت كل «آخر» مخالف أمامها. اشتعلت شهوة السلطة والثروة في داخل الصوامع والأديار والكاتدرائيات لتنتج موجات شديدة من العنف الممنهج تبلور في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش وملاحقة الهراطقة، ويزخر تاريخ (الإخوان الدومينيكان) أو (حُراس الرب)، وهم جماعة أصولية أسسها الراهب الإسباني القديس دومينيك لمحاربة الهرطقة عام ١٢١٦، واستخدمتها الكنيسة الكاثوليكية لقمع وتعذيب وقتل من اعتبرتهم هراطقة. ففكت ثقافة العنف -التي فرضها النظام البعثي في العراق-

منظومة القيم والمعايير الاجتماعية، وأحلت محلها قيم الحرب والقمع والخوف عن طريق عسكرة المجتمع، صار العنف هو الوسيلة لحسم الصراعات على المصالح، وتدهورت طرائق التفكير والعمل والشعور وتشوهت الثقافة وصار الفرد أنانيًّا وعدوانيًّا.

بين هويتين

بعد سقوط الاتحاد السوفييتي في أوائل التسعينيات، تنفست الجمهوريات التائبة الصعداء، وفتح لهم باب السياحة إلى الدول غير الاشتراكية كما يفعل الأفراد الطبيعيون، صاروا يُرون في الشواطئ وقد جلبوا هويتهم المُتخففة من القيود إلى مناطق لم تعتد استقبال السياح، لم يكن مشهدًا مألوفًا أن تُرى امرأة من ذوات القطعتين بالقرب من رمال البحر الهادئة، فكان المراهقون يلاحقون السياح ويقذفونهم باستخدام الكلمات النابية، هذا التصرف السطحي هو شكل من أشكال صراع الهويات الذي يبدأ من اشتباك المظاهر.

الإرهابي لا يولد إرهابيًّا، وإنما يصبح كذلك بفعل عوامل بيئية واجتماعية وسياسية ودينية مختلفة. هناك دور في غاية الأهمية لعبه كلٌّ من الأنبياء والمصلحين والمفكرين في وضع قواعد تهذب السلوك العدواني عند الإنسان، ومع أن الدين ينبذ العنف والكراهية، فإن العنف باسمه هو الأكثر قدرة على إثارة الرعب والهلع في نفس البشر عن طريق التلاعب بالمقدس. رعت الكنيسة إحساس الشعور بالمعصية عند المؤمنين كما يعبر عالم النفس والفيلسوف (إيريك فروم)(٢٨) والذي تم تخفيفه والتكفير عنه بالانخراط في الإرهاب ضد معتقدات الآخرين. يُحفز الصراع عندما تبرز صورة تعدد الهويات مع ثورة الاتصالات، فتنخرط كل هوية في صراع مع الهوية الأخرى من أجل إثبات وجودها وتحقيق هويتها الخاصة، وهكذا تُعاد صياغة المعتقد ومن ثم نقله إلى خارج نظام المؤسسات التقليدية، تنفصل المعالم الدينية عن المعالم الثقافية بعد انقلابها على الثقافات السائدة، يصاحب هذا التحول جنوح عنيف ضد كل مفرزات الحداثة.

إن صاحب الفكر المتطرف الذي يعيش بين حدود حضارتين يضع نفسه في وضعية حدودية مبنية على الاختلاف العقائدي، ما يمنعه من قبول الآخر المختلف عنه لأنه يرى في ذلك نفيًا لذاته، لذلك يتّجه إلى خلق نظام أخلاقي ذي طابع عقائدي غير متجانس مع السائد. تُولّد هذه الحالة صراعات ومنازعات تتخمر لتنفجر لاحقًا. إن ادعاء الانتماء إلى السلف الصالح يمنح المتطرّفين فرصة للفت الانتباه وإثبات وجودهم، وعندما يفقد الفرد قيادة عالمه الحقيقي فإنه يتحول إلى التاريخ والمعتقد ليبحث فيهما عن هويته الضائعة ويتحرر من محنته النفسية.

بحسب الباحثين، فإنه من غير المرجح أن يظهر الإرهاب الانتحاري كنتيجة حتمية لبعض الأسباب التي نعتبرها جذرية مثل الفقر والقمع فقط، فالإرهاب أداة وتكتيك حربي قد يستخدمه أي أحد. تشير الأبحاث إلى كون الإرهاب الانتحاري يبدأ من حاجة الفرد إلى أن يجد هويته أو يعيد هيكلتها بشكل هادف، فالانتماء إلى جماعات اجتماعية داعمة يستطيع أن يقلل من الاضطراب النفسي لدى الفرد ويعزز من احترامه لذاته بل وقد يكون علاجًا لبعض الجروح القديمة الناتجة من التجارب الشخصية الصعبة، وأحيانًا يتطلب العلاج أن يكون في حالة حرب مع الآخر وإلا فقد قيمته أمام نفسه ومجتمعه.

ظاهرة الحرب

«يمتنع أعضاء الهيئة جميعًا في علاقاتهم الدولية عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضي أو الاستقلال السياسي لأية دولة أو على أي وجه آخر لا يتفق ومقاصد «الأمم المتحدة»».

المادة ٢ (٤) من ميثاق الأمم المتحدة.

الفارق بين الحرب والإرهاب كبير، والمشترك بين الحرب والإرهاب أيضًا كبير، يصعب التفريق بينهما بشكل حاسم ونهائي. بالنسبة إلى الجماعات الإرهابية ما تفعله هو حرب ضد الدول النظامية، لكن محدودية قدراتهم -كذبابة في محل خزف- لا يجعل الدول تعتبر مواجهتهم حربًا، فتسمية الحرب تفترض بالضرورة أن الأطراف المتحاربة كيانات ضخمة متقاتلة، لو قالت الدولة إنها في حرب مع هذه الفئة أو غيرها فهي تعطي تلك الفئة صفات ضخامة وأهمية مهينة للدولة ومشرفة للفئة الإرهابية. ربما هذا ما جعل الإدارة الأمريكية تلجأ إلى تسمية «الحرب على الإرهاب» لحل هذه المعضلة، وتعطي لحملتها العسكرية تسمية الحرب دون أن تنزع عن عدوها صفة الإرهاب.

الحروب أكثر ضخامة وتأثيرًا وحسمًا وأسوأ ضررًا بما لا يقاس من العمليات الإرهابية، لما تنطوي عليه من ضخامة الفرق المتقاتلة وسعة قدراتها، وربما كانت ظاهرة الإرهاب ذرية غير شرعية للحروب، التي هي ظاهرة قديمة قدم الإنسان ذاته. مفكرون لا حصر لهم نظروا إلى الحرب ونظّروا فيها، في محاولة لفهم وتأصيل هذه الظاهرة، وإن كنا نحاول أن ننظر في ظواهر التطرف والتوحش والإرهاب، قد يكون من المفيد أن ننظر ولو سريعًا في بعض أهم هذه الأفكار.

رأى عالم الاجتماع (ماكس فيبر) أن ممارسة العنف هي حق حصري للدولة(٢٩)، وبالغ المفكر الشيوعي (ليون تروتسكي) فاعتبر أجهزة الدولة مؤسسةً على العنف. يهدف العنف

إلى المحافظة على نظام وكيان الدولة ضد الأخطار الخارجية عن طريق ممارسة الحرب بنوعيها: الهجومي والدفاعي. بينما يرى المهاتما غاندي أن العنف غير مبرر أبدًا ويجب مكافحته بالفكر والتعاليم الروحية، والتي هي كفيلة بصنع خيبة أمل عند من يمارسون العنف عند مواجهتهم بالصيام عنه.

(غاستون بوتول)، عالم الاجتماع الفرنسي، يُعرّف الحرب على أنها أحد أشكال العنف المنظم المحدود في مكان وزمان معينين(٣٠)، تستطيع الحرب تطوير الغريزة العدوانية الفردية وتحولها إلى سمة جماعية، العدوانية قد تكون ناتجة من خيبة أمل حين يعجز الإنسان عن تحقيق آماله، وهي سلوك مكتسب من الجماعة، فالإنسان ليس عدوانيًا ولا مسالمًا بالفطرة، بل هو قادر على تطوير سلوكه في الاتجاهين وفق علاقته المتبادلة مع بيئته وثقافته.

تتسابق الشعوب -عادة- في اتجاه حيازة أكبر قدر ممكن من الأسلحة، إما من أجل الحرب وإما من أجل منع حصولها، فهل الحرب هي الأصل؟ أم السلم هو الأصل؟ كثير من العلماء يرون أن الحرب العدوانية بعيدة عن أن تكون طبيعة في الإنسان وأنها لا تحدث إلا عندما تبلغ الثقافة درجةً كبيرة من التعقيد، لكن وُجد أن بعض قبائل الإسكيمو -من ذوي الثقافة البسيطة- لم يعرفوا الحرب قط، بل كانوا يُسوون المنازعات بينهم عن طريق الأغاني التهكمية، فتعقيد الثقافة والحضارة لا يمكن أن يكون عاملًا وحيدًا في الميل إلى اختلاق الحروب.

لا نستطيع إنكار أن كثيرًا من الأسلاف كانوا يرون في الحرب ظاهرة طبيعية بل وفطرية، كما رأى ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع وصاحب النظريات الشهيرة في العمران، فالحرب أمر لا يمكن تجنبه، وهي واقعة في الخليقة منذ الأزل وأصلها إرادة الانتقام من الآخرين على حد تعبيره(٣١)، وربما كانت الحرب عند بعض الشعوب أهم مصدر من مصادر التلاحم الاجتماعي بسبب خلقها هدفًا محددًا تتوحد حوله الجماعة.

أما مونتسكيو، فيلسوف السلام والقوانين الفرنسي في القرن الثامن عشر، ومن جاء بعده من أنصار السلام العالمي، فكانوا يرون أن السلم هو الأصل وأن الحرب هي خرق للطبيعة الأولى.

اليوم تُعتبر الحرب أصلًا عند كثير من الجماعات المتطرّفة التي ترى في العنف غاية أكثر من كونه وسيلة، فصار العدوان عندهم مقدسًا في أدبياتهم، وله فضائل وميزات لا تدانيها أعمال الخير قاطبة.

هل يمكن اعتبار الحرب مظهرًا للتوازن السكاني والاقتصادي؟ يرى بعض الفلاسفة في الخراب تخليدًا للجنس البشري، حيث يساعده في عملية اصطفاء الأقوى والأشرس، ومن ثم توريث صفات القوة للأجيال اللاحقة. إن تهجمات (نيتشه) على أخلاق العبيد -المُهادنة والمُسالمة- أدت إلى تقوية فكرة عبادة البطل التي كان أحد إفرازاتها ولادة النظام الفاشي في إيطاليا والنظام النازي في ألمانيا واندلاع الحرب العالمية الثانية ومقتل ملايين الناس بسبب داروينية اجتماعية مارست العنصرية العرقية والعقدية في أكبر صورها.

طبيعة الإنسان والحرب

الفيلسوف الإنجليزي (توماس هوبز)، رأى أن للسلطة حقًّا في تقرير المعتقدات الدينية والقواعد الأخلاقية وحسم الخلافات لإقرار النظام(٣٢)، البشر في حالة تنافس دائم من أجل العزة والكرامة، وبناءً عليه ينشأ بينهم الحسد والكره اللذان يولّدان الحرب. إن المخلوقات غير العاقلة لا تستطيع التمييز بين الجُرح والهلاك، وهكذا تظل مطمئنة ولا تشعر بالخطر من أقرانها، أما الإنسان فعندما يشعر بالاضطراب في طمأنينته فإنه يستعمل حكمته لضبط الأعمال التي تحكم النظام العام، هذه الحكمة هي التي دفعت (جون كينيدي) و(نيكيتا خروتشوف) إلى ضبط أصابعهما والامتناع عن التراشق بالقنابل النووية بين جيشي الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في أعقاب أزمة الصواريخ الكوبية في

ستينيات القرن العشرين. هناك قوة جمعية تجعل الناس في حالة خشية وتُوجّه أفعالهم نحو الربح الجمعي.

اعتقد هوبز أن غريزة الإنسان قائمة على حبّ البقاء وهذه الغريزة هي التي تُسيّر الحياة الإنسانية، فالإنسان ذئب مفترس في حالة «الكل في حرب ضد الكل». لكن الفيلسوف الإنجليزي (جون لوك) قد خالف (هوبز) وقال إن الحالة الطبيعية هي الحالة السلمية والتي تعتمد على الأمن من خلال الواقع الذي يتجه نحو الكمال والملكية الخاصة. أما نظيرهما الفرنسي (جان جاك روسو) فإنه لم يرَ للإنسان سلطة طبيعية على أقرانه، وأن القوة لا تنتج أي حق، ولا يستطيع الإنسان أن يتخلى عن حريته ويجعل من نفسه عبدًا لآخر ليحصل على الأمن والسكينة المدنية لأنه بذلك سيرزح تحت وطأة نظام مستبد وتعيس.

الحرب والسلطة

في كثير من فترات التاريخ البشري، حاول بعض الحكّام محاكاة السلطة الإلهية ما يمنح من يتبعونهم الحق المطلق في الحكم على من هم دونهم، ادعى ملوك بريطانيا وفرنسا الحقّ الإلهي الذي أعطاهم حقًّا وواجبًا في الدفاع عن المسيحية في الأرض(٣٣)، ففرضوا على رعاياهم واجب الإخلاص والطاعة العمياء لهم. دُحضت هذه السلطات المطلقة إلى حدّ كبير في ثورات القرنين السابع والثامن عشر التي أرست الأحكام الدستورية ذات الحقوق والواجبات بين الحاكم والمحكوم.

قال (أدولف هتلر) إن الشعوب عندما تناضل من أجل كيانها فإنه لا يبقى محل للاعتبارات الإنسانية والجمالية، فهذه الاعتبارات ما كانت لتكون لولا مخيلة الإنسان، والشعوب التي تناضل للدفاع عن كيانها لا تلبث أن تفقد القدرة على الدفاع عن نفسها إن هي أولت المبادئ الإنسانية اهتمامًا أكثر مما تستحق(٣٤). ويُنقل عن (مولتكه)، ملك بروسيا في القرن التاسع عشر، قوله إن في الحرب تكون أساليب القتال العنيفة أكثر الأساليب إنسانية، لأنها تعجل بوضع حد للنزاع والنضال. ربما إذًا كان الرئيس الأمريكي (ترومان) متأثرًا بقول

(مولتكه) هذا عندما أعطى الإذن بإلقاء القنبلتين النوويتين على مدينتي (هوروشيما) و(ناجازاكي) في اليابان من أجل تعجيل إنهاء الحرب العالمية الثانية، في وجه عدو يريد أن يقاتل حتى آخر رمق من أجل الإمبراطور والتراب الياباني المقدس. وقال الجنرال والمؤرخ البروسي (كارل كلاوزفيتز) إن استخدام القوة دون وخز ضمير ودون أن يأبه لسفك الدماء الناجم عنها وفي الوقت الذي يحجم فيه الطرف الثاني عن القيام بالمثل، ستكون الغلبة للأول، لكن سيجبر الطرف الثاني على أن يحذو حذوه، وسيدفع كل طرف الطرف الآخر إلى الأقاصي(٣٥).

لاحظ (برتراند رسل) في كتابه (أثر العلم في المجتمع) أنه كلما كان للمنظمة غاية قتالية أصبح أعضاؤها غير راغبين في انتقاد مسؤولي المنظمة واتجهوا إلى تحبيذ ممارساتهم التعسفية وإساءة السلطة بسبب سيادة ذهنية الحرب(٣٦)، ولذلك من الطبيعي أن يشجّع قادة العنف هذه الطريقة من التفكير. والمخرَج -بحسب (رسل)- هو تسوية أكبر عدد من الخلافات بالوسائل القانونية لا بعرض العضلات. طالب (رسل) بتوحيد العالم تحت إمرة حكومة واحدة، وإلّا عاد البشر إلى البربرية وانقرض الجنس البشري، وإذا قرر الجنس البشري أن يستمر في الوجود فعليه أن يقوم بتغيرات أساسية في طرق تفكيره وشعوره وسلوكه، وعليه أن يُبطل مقولة «أفضل لنا أن نموت من أن نفقد الشرف». يجب الخضوع للقانون -حتى لو فرضه الأجانب الذين نحتقرهم- ولو كان غير عادل، فالانتقاء سيكون بين العقل وبين الموت. عمليًا لا يمكن أن تحكم العالم كله حكومة واحدة بسبب الاختلافات الشاسعة بين دول العالم، لكن من الممكن أن تُضبط تصرفات الأفراد في دول العالم كلها من خلال منظمات عالمية مثل الأمم المتحدة وغيرها.

في الجانب المسيحي، حاول القديس (أوغسطين) في القرن الخامس الميلادي، أن يتوصل إلى تسوية بين النزعات السلامية لآباء الكنيسة الأوائل والاحتياجات العسكرية للدولة الرومانية التي تبنت المسيحية ولكنها لا تزال بحاجة إلى خوض الحروب العسكرية. كانت هذه التسوية هي بذرة المبدأ المسيحي (الحرب العادلة)، والتي يلتزم فيها المحارب بالتزامات أخلاقية بنشر العدل وحماية الأبرياء. كان هذا المبدأ محل نقد شديد من

الواقعيين والسلاميين(٣٧)، فالواقعيون يشككون في فكرة تطبيق الأخلاق من خلال الحرب، والتي ما لبثت أن غدت دوافعها هي التأثير الدولي والأمن القومي والمصالح الشخصية وليس الرغبة في تطبيق المفاهيم الأخلاقية، أما السلاميون فلا يرون في الحرب حلًّا سليمًا، فهناك دومًا حل أفضل للمشكلات ولا بد للأخلاق من أن تهيمن على الشؤون الدولية. بين هاتين الفئتين يكون الحق الذي يقول إن الحرب قد تكون أخلاقية وقد تكون أخف الضررين وأفضل الشرين، وقديمًا قال الجنرال الصيني الشهير (صن تزو) صاحب (فن الحرب)، إن قمة التوفيق هي إخضاع العدو دون حرب.

من الممكن صياغة ثوابت لظاهرة العنف في تاريخ الإسلام كما تحدث المفكر المغربي (محمد عابد الجابري)، وهي تتمثل في عدة أمور، منها أن التطرّف ردّة فعل على وضعية مادية أو رمزية، هو عمل لاعقلاني يعتمد التمويه الإيديولوجي ويتجاهل الأسباب الحقيقية المنتجة له، هو ردّ فعل تقمصي أسطوري لنماذج يختارها المتطرّف من التراث في تماهٍ معها، لذلك يعد التطرّف ظاهرة مرضية تتطلب معالجة عقلانية عبر إشاعة الفكر النقدي في الثقافة والتعليم وتصحيح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

يقول الباحث الجزائري (محمد أركون) إن العنف الوارد في نصوص القرآن -كسورة التوبة- هو عنف مُوظّف في خدمة حقوق الله وإنه قد تم تصعيده على هيئة قربان للتعبير عن الطاعة المعترف فيها بالجميل(٣٨)، وجد هذا العنف حضورًا مكثفًا في أول تاريخ الإسلام عند بعض فرق الخوارج -كالأزارقة- الذين هم أكثر الفرق شبهًا بحركات «داعش» والقاعدة اليوم، خصوصًا في طريقة تعاطيها وسائل الإرهاب المختلفة وتكفيرها للناس من حولها. إن العنف يُعدّ مكونًا بنيويًّا للإنسان العربي -كما يقول أركون- وقد أسبغ عليه بعض الفقهاء التقليديين مضمونًا متعاليًا صار داخلًا في صميم الإيمان عند المؤمن التقليدي. يجب شجب كل قراءة تبرر العنف الملازم للطبيعة الإنسانية وتمنحه شرعية دينية عبر رفض التعددية وحقّ الاختلاف كما يقول (محمد الطالبي)، فهل تستطيع الفلسفة القيام بهذا الدور؟

الفلسفة والعنف

يعتقد البعض أن الفلسفة لن تحل مشكلة العنف والإرهاب بسبب إغراقها في التفاصيل والحجج التي يترفع عن قراءتها المنخرطون في التطرّف، بل يرونها لونًا من ألوان الزندقة، إلا أن الفيلسوف الألماني المعاصر (يورغن هابرماس) يرى أهمية وجود دور فاعل ومؤثر للفلسفة في المجتمع، فالفلسفة لا ينبغي لها أن تكون موضوعًا جامدًا منفصلًا عن حياة الناس، ودعا إلى مبدأ المواطنة العالمية التي تدفع إلى الانفتاح على الآخر المُختلِف. يرى (هابرماس) أن طائرات الإرهابيين في ١١ سبتمبر كانت موجّهة نحو الحداثة المغلوبة المرتبطة بالعولمة، فالإرهاب هو أثر لصدمة التحديث الذي انتشر حول العالم بسرعة البرق وكان ذروته اعتداءات سبتمبر، يحمل الإرهاب ملامح فوضوية غرضه غرس إحساس الصدمة والقلق لدى الشعوب والحكومات(٣٩).

لم يتعرض فلاسفة الإغريق لمفهوم العنف بصورة مباشرة، فأغلب حوارات أفلاطون كانت تدور حول العدالة والمساواة والفضيلة والسعادة، إلا أن نقده للديمقراطية -التي أعدمت شيخه سقراط- يدل في طياته على اهتمامه بالاضطرابات وحركات العنف. لا يبدو أن الفلاسفة اليونان قد عرفوا معنى الاستشهاد، فجاء المعنى الشرقي أو التوحيدي للشهادة ليقلب مفاهيمهم رأسًا على عقب، الشاهد في الأناجيل المسيحية يعني الحضور، حضور السيد المسيح كان حقيقيًا وتجلى في التضحية بالنفس من أجل دفع ديون خطايا العباد بحسب العقيدة المسيحية.

تشكّل معنى الشهادة في القرن الثاني ميلادي عندما قبل المسيحي بالموت من أجل إيمانه الديني ليُسمّى باسم شهيد الإيمان بالمعنى الكنسي. وجاء الإسلام متبنّيًا المعنى المسيحي للشهادة بعدما أضاف عليها تعديلًا حاسمًا بأن جعل الشهادة شيئًا فاعلًا يدل على اقتدار جبار، وليس شاهدًا منفعلًا على موته الخاص كما كان يصنع الشهيد المسيحي الذي يستشهد من أجل إظهار إيمانه للعالم. فالإسلام له سيرة أخلاقية مستقلة عن المسيحية،

هو ليس دين شهداء رهبانيين بل شهداء محاربين يقاتلون عدوًّا وثنيًّا كما يقول الفيلسوف التونسي فتحي المسكيني(٤٠).

ينتحر اليوناني في جسده لأن الجسد عنده سجن أو قبر، بينما يستشهد التوحيدي في نفسه لأن النفس عنده نفخٌ إلهي. لم يكن الانتحار بأمر غريب على الفلاسفة، فاعتبرها أفلاطون خطًّا إن لم تكن هناك إشارة من الآلهة تدعو إلى فعله. الفيلسوف الهولندي (سبينوزا) لم يحصر أمر الشهادة على شهداء الدين، بل وسّعه ليشمل شهداء الاضطهاد وكأنها شهادة على النمط الروماني أو الوثني. أما الألماني (شوبنهاور) فقد كان يرى الشهادة على أنها الطريقة الوحيدة لشهرة الفرد بدون أدنى مهارة.

رأى الفارابي أن الغلبة والقهر من خصائص المدينة الضالة، أما ابن خلدون -كما ذكرنا سابقًا- فكان يرى العنف نزعة طبيعية عند الإنسان، وأصل الحرب منذ بداية الخليقة هو إرادة انتقام البشر بعضهم من بعض، وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل، وسببه إما الغيرة وإما المنافسة وإما العدوان وإما الغضب لله أو للملِك.

وضع (توماس هوبز) أساس نظرية أخلاقية تقوم على الأنانية الفردية وترتبط بفكرة سعي الإنسان للحصول على اللذة وتجنب الألم، يكون أساس التعاون الاجتماعي هو الخوف المشترك للأفراد على ذواتهم، حيث ينطلق هذا الخوف من غريزة المحافظة على الحياة. يستطيع الفرد الذي يملك القوة والقهر أن يُصبح الرئيس الأعلى للجماعة وتكون في يده جميع السلطات ويدين له الكل بالطاعة المطلقة، وهو الملك المستبد الذي لا يمثل طرفًا في العَقد الاجتماعي، لذلك فإن له الحق في فعل ما يشاء دون حساب وليس لرعاياه سلب ذلك الحق منه، فالعقول بدون قوة السيف ليست سوى كلمات لا قدرة لها على المحافظة على حياة الإنسان، وهو بذلك يتحيز للملكية الحاكمة في بريطانيا المتمثلة في أسرة ستيوارت.

لم يحرق (جون لوك) كتب (هوبز) كما فعل أساتذة جامعة أوكسفورد، فقد خالفه في موضوع الحرية المطلقة للحاكم وفي كون الناس عبارة عن ذئاب في غابة، فأساس القانون الطبيعي المستمد من الفطرة الأولية عند (لوك) هو الحرية والمساواة رغم كون الإنسان

يحمل طبيعة أنانية، إلا أن اشتباك المصالح والصراعات يدفع الأفراد إلى إبرام اتفاق على عقد اجتماعي يتنازل فيه الأفراد عن بعض حقوقهم لمن يمثل سلطة المجتمع. وكذلك (جان جاك روسو) فقد خالف (هوبز) في أصل حياة الإنسان التي رآها روسو خالية من الشر والشقاء، حيث كان يرى الإنسان طيبًا في فطرته. تقع الملامة على أول إنسان وضع يده على أرض وادَّعى ملكيتها ليبدأ بذلك سلسلة من الجرائم والحروب والقتل والبؤس بين أفراد الجنس البشري، هذا ما جعل روسو يدعو إلى تأسيس العقد الاجتماعي المُخفِّف للظلم الواقع على بعض فئات المجتمع.

اتفق منظرو السياسة في القرنين السابع والثامن عشر -مثل جون لوك ومونتسكيو- على حقيقة أن العنف لا يمكن أن يعيد إصلاح إنسان أو مجتمع معين، وقد تبدو هذه النتيجة تقدمًا هائلًا لما حققه المتعصبون المسيحيون الذين نادوا بالعنف المطهر للروح. كان القرن الثامن عشر هو عصر التنوير في أوروبا، ظهر فيه كتاب (روح القوانين) لـ(مونتسكيو)، والذي رأى في فكرة كون الملك ظل الله في الأرض -وأن معارضته هي معارضة للإرادة الإلهية- قبولًا للظلم والتعدي، فدعا إلى أن تكون القوانين مطابقة لروح العصر، مؤسسًا بذلك لمبدأ نسبية القوانين التي تختلف باختلاف المجتمعات ومقدار الحرية التي يمتلكها الأفراد فيها.

أما فيلسوف الشيوعية الألماني (كارل ماركس)، فقد أكد -في حديثه عن صراع الطبقات- على دور العنف لإسقاط الطبقة الحاكمة، وكان يقول إن أية ولادة لمجتمع جديد لا بد وأن يسبقها عنف تمامًا مثل الآلام التي تسبق مخاض الولادة، إلا أنه تراجع عن مبدأ إلزامية العنف، حين رأى إمكانية حدوث التحولات الاشتراكية سلميًا في البلدان الرأسمالية التي قطعت شوطًا طويلًا في المكتسبات الديمقراطية. أما تلاميذه فلم يتسببوا في مخاضات ولادة قاسية فحسب، بل تسببوا في تحول ملايين الناس إلى وقود لحرق مراحل صناعة الشيوعية العظمى. رأى مؤسس الصين الحديثة (ماو تسي تونغ) أن العنف قوة محركة للسياسة في حين أن القوى الأخرى تقع أسيرة التفاصيل، لذلك أطلق في عام ١٩٦٥ الثورة الثقافية التي طاردت البرجوازيين والإقطاعيين والرأسماليين وحطّمت المعابد والآلات

الموسيقية والتحف الفنية والأثرية، وغرقت الصين بسبب ذلك في الفوضى والدماء، مما اضطره إلى إيقاف هذه الثورة في عام ١٩٦٩.

ويقول (فريديرك إنجلز)، المؤسس المشارك للفلسفة الشيوعية مع ماركس، إن وفاة إنسان بسبب إيذاء بدني قد نسميه قتلًا غير متعمد، أما إذا عرف المعتدي مسبقًا أن ضربته قاتلة فإن ذلك يُطلق عليه اسم القتل العمد، وهذا هو الذي يحدث عند وضع العمال في ظروف تجعل نهاياتهم محتومة وغير طبيعية، فالمجتمع عاجز عن حماية العمال من هذا القتل وهو يعلم أنه عاجز عن ذلك.

إن جوهر أفكار الماركسيين هو المساواة بين المتسبب المباشر في الكارثة مع من سمح للظروف بالاستمرار لتحصل الكارثة. بهذا المنطق يُعد اكتشاف لقاح للسرطان في جامعة أو مصنع أدوية يعني أن الحكومات والعلماء والأطباء والباحثين والاقتصاديين مسؤولون مسؤولية مباشرة عن وفاة الناس بالسرطان لأنهم كانوا يستطيعون منع الكارثة لكنهم لم يفعلوا ذلك. هذا الأسلوب التفكيري يتقاطع مع عقلية بعض الجماعات الإرهابية التي وسعت من نطاق نشاط العنف ضد المدنيين الذين قد لا يعلمون موقع فلسطين في الخريطة، ولكنهم مسؤولون في نظرهم عن كل تجاوز أو جريمة تحدث في فلسطين بسبب تصويتهم لحكومة تمتلك علاقات دبلوماسية مع إسرائيل.

جاء أصحاب الفلسفة الوجودية بعد مشاهدتهم ويلات الحرب العالمية الثانية -بقيادة (جان بول سارتر)- ليطلقوا مفهوم الحرية المطلقة مقابل سخف الحياة وعبثية الوجود الذي يورث القلق والغثيان، فالإنسان يوجد ثم يخلق ماهيته ومشروعه الحر، فرفعوا الإنسان فوق كل شيء ورفعوا القيم الحسية والأخلاق النفعية وهمَّشوا القيم النبيلة المرتبطة بالحقّ والضمير وذلك في صراعهم مع فلسفة (هيغل) و(كانط)، وانتقدوا فرويد بسبب إلغائه حرية الإنسان لصالح اللاشعور الخارج عن إرادة الإنسان، أراد الوجوديون تمجيد العنف باعتباره جوهر الإنسان، فهو فشل لا يمكن تجنّبه كما يقول سارتر نفسه، لأننا نعيش في عالم فيه عنف لا يوقفه إلا عنف مضاد له.

ألهمت كتابات الفيلسوف والطبيب النفسي المناضل (فرانس فانون) الثورية العديد من حركات التحرر في أرجاء العالم، فقد شخّص الحالة النفسية للإنسان الذي يعيش تحت قهر المستعمر والذي من أبرز مظاهره الاغتراب والعذاب النفسي الذي يعانيه بسبب قهر واستعباد الدول الاستعمارية، ولا يمكن القضاء على هذه الحالة إلا باللجوء إلى العنف الذي ينفخ الحياة في جسد المقهور ويوقظه من سباته العميق ويكشف له إنسانيته التي طمسها المستعمر. أشاد (جورج سوريل) بالعنف وجعله طريقًا لإحياء المجتمع، وأنه يجب تحريك الجماهير عن طريق ترويج الأساطير والأفكار التي تثيرها، لأن الجماهير تؤمن بالأساطير السياسية أكثر من إيمانها بالأفكار الواقعية. عندما تطرق (ميشيل فوكو) إلى العنف في السجون، ذكر أن الهدف منه هو تطويع الأجساد وتذويب العقول وغرس الرعب في النفوس بهدف قبر كل نزوع إلى العصيان والتمرد، وهكذا يفقد الإنسان بعد خروجه من السجن ذاته ووعيه الاجتماعي.

بالرغم من نجاح المذهب الدستوري في الأنظمة الغربية في تحجيم دور العنف في الحياة السياسية، فإن القرن العشرين شهد تجربة غير مسبوقة للعنف، عدد الضحايا وكمية التدمير وبراعة الأدوات لم يكن لها نظير في التاريخ المدون، كان القرن العشرون هو قرن الشرطة السرية ومعسكرات الاعتقال وغرف الغاز والتصفية المتعمدة للآخر. ووجد من يستنكر العنف وفي نفس الوقت يرتكبه، فالرئيس الأمريكي (ليندون جونسون) حثّ النيجيريين في عام ١٩٦٥ على إدراك أنه ليس هناك طائل من العنف، في الوقت الذي كان منغمسًا فيه في استخدام العنف في فيتنام، تُعتبر الحرب نوعًا من العنف المؤسساتي الذي يهاجم فيه المقاتل العدو باعتباره قوة سياسية منظمة وليس كأفراد، وقد يتبعها مقتل أطفال ونساء ضمن إطار تلك المؤسسة أو الدولة، بخلاف جرائم القتل العادية فهي موجهة إلى أفراد بعينهم لدوافع شخصية أو خاصة.

في بعض المدن الأمريكية، توجد أحياء (جيتو) المخصصة للأمريكيين من أصول إفريقية، ترتفع فيها معدلات الجريمة والعنف وتقوم مجتمعاتها على أسس مشابهة لأنظمة الاستعباد، تقوم المؤسسات فيها بانتهاك حرية الأشخاص المشتركين فيها لأنهم أنكروا

بصورة نظامية الخيارات المتاحة للأغلبية العظمى من أعضاء المجتمع الذي يعيشون فيه، فهم يمارسون العنف الهادئ تجاه هؤلاء الناس لإصلاح الوضع الراهن للأشخاص الذين ينكرون كرامتهم واستقلالهم(٤١)، فالعنف عند البعض مصطلح لا يحمل دلالة أخلاقية مثل التي تحملها كلمة العدوانية.

يرى عالم الاجتماع الألماني (ماكس فيبر) أن جوهر السلطة هو ممارسة العنف، وحين يختفي العنف تعمّ الفوضى وتضيع مصالح المواطنين، فالسلطة تحتكر العنف في يدها فقط. في رسالة (فرويد) لعصبة الأمم المتحدة التي شرح فيها أهمية الغرائز البشرية وارتباطها بالحرب، أكّد أنه لا تتمّ السيطرة على غريزة الموت التدميرية إلا من خلال الثقافة التي تقوّي العقل وتتحكم في غريزته كما ينقل (الحيدري). أما (إريك فروم) فكان على العكس من فرويد الذي اعتبر أن مصدر معاناة الإنسان هي الدوافع البيولوجية، فقد كان يرى أن الطاقة النفسية هي التي توجه السلوك الذي يتأثر بمتطلبات الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فالعنف مكتسب من الممارسة الاجتماعية بين البشر وليس موجودًا بالفطرة، ووُجد من المفكرين من مجّد العنف لأنه رآه خلّاقًا ومنقذًا لجوهر الجماعة.

هؤلاء المفكرون قدموا فقط توصيفًا للعنف، والآن، خذ نفسًا عميقًا وتذكر أن ولا يزال علينا إيجاد سبيل لتجنبه ما استطعنا، وخير سبيل لذلك هو سبر أغوار النفس البشرية لمعرفة نقاط الدهشة فيها.

قلق المتطرّف

ارتبط اسم «المتطرّف» بالمتشدّد الديني بسبب تصدر أسامة بن لادن مشهد أحداث الإرهاب، لكن التاريخ يحدثنا عن أنواع مختلفة من التطرّف، مثل التطرّف القومي، في مثل نازية هتلر وفاشية موسوليني، والفكري في مثل شيوعية ستالين، والعلمي في مثل الداروينية الاجتماعية والتطهير الجيني، وفي كل نوع من هذه الأنواع درجات تتفاوت بين تطرّف خفيف لا يتجاوز ذهن صاحبه أو منزله، وتطرّف شديد يُحول محيط المتطرّف إلى

دم وأشلاء وأيتام وأرامل. طرحت كلية علم النفس التطبيقي في جامعة أمستردام ورقة بحثية(٤٢) مثيرة للاهتمام تقترح وجود أربعة مشتركات نفسية تجمع المتطرّفين فكريًا. دعونا نستعرضها ونسقطها على واقعنا:

المشترك الأول: يعاني المتطرّف بشكل عام من ضغوطات نفسية تدفعه إلى دخول عالم التطرّف. يخلق المتطرّف لنفسه وضعًا نفسيًا متميزًا باستخدام المعتقدات التي يؤمن بها، والتي -إذا أُسيء استخدامها- ستجعله يشعر دائمًا بأنه مقصر ومتخاذل ومنتكس ما لم يقُم بفعل شيء حيال تلك المخالفات التي تحيط به من كل جانب، فيتصبب المتشدد الديني عرقًا عندما يسمع ألحانًا ودندنة في الأسواق، ويغلي دمه عندما يسمع جاره يلقي نكتًا مضحكة لم تحدث أبدًا. جعل المتطرّف كل ما حوله مصدرًا للضغوطات النفسية التي تدفعه دفعًا إلى مقاومتها باستخدام الفظاظة والعنف والاندفاعية حتى يُبرئ ذمته وينام ليلته وهو مرتاح البال، ولو على حساب من شهَّر أو طعن فيهم.

المشترك الثاني: تتسم طريقة التفكير المتطرّفة بأنها اختزالية ومبسِّطة للعالم وظواهره الاجتماعية، ترى المتشدد الديني ينظر إلى هذا العالم الشاسع والمختلف في مذاهبه وأديانه وأعراقه على أنه إما عالم مؤمن وإما عالم كافر، وتجد الشيوعي لا يرى في خريطة العالم إلا ساحة ثورات محتملة على الطبقات البرجوازية. يتعامل المتطرف بنفس الذهنية البسيطة المُكعّبة التي لا تستوعب تعقيد العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تربط الناس بعضهم ببعض، يريد فقط أني يقضي فورًا على أي فكر معارض ويعلن الحرب على كل من لا يوافقه لحظيًا.

المشترك الثالث: يتميز المتطرّف بأنه مُفرط الثقة في قراراته وأحكامه، فكل حكم يصدره قطعي ولا يحتمل الظن، وكل ما يجري على لسانه هو «أجمع»، «بالاتفاق»، «بلا شك» و«قطعًا». هذه الألفاظ متغلغلة في قراراته الشخصية وغير الشخصية، فتراه صلبًا لا يمكن إقناعه بوجود آراء وسياقات مختلفة، بل لا يمانع من أن يُغرق الناس ويُقذف بهم إلى الجحيم التي بلا شك سيذهب إليها كل من يخالفون رأيه القاطع. هذا نشاهده -مثلًا- عندما

يرى المتشدد الناس يبتهجون باحتفال (حق الليلة) أو (عيد الأم)، فيثير ذلك عنده الحكّة والحساسية ويدفعه إلى الجزم والقطع بالتحريم والتجريم، وهذا ما كان يراه المؤمنون بتفوق الرجل الأبيض قديمًا عندما يقطعون بدنو مكانة الأعراق الملونة، وما كان يعتقد النازي بأنه الطريق القويم وهو يطلق الغاز السام على اليهود دون أن يرمش له جفن.

المشترك الرابع: لدى المتطرّف مستوى منخفض في تقبّل المجموعات الأخرى. ترى المتطرّف -مثلًا- يضيق صدره ببناء دور عبادة لغير مذهبه، ولو كان الأمر بيده لزرع الديناميت في الدور المُشيّدة، ولو كانت درجة تطرّفه منخفضة فإنه سيسمح للجماعات الأخرى بممارسة طقوسها وشعائرها في غرف النوم شريطة أن تكون الأنوار مغلقة وألا تكون في حيّ يقع في محيط نظره.

يتوهم المتطرّف أنه قد بُعث لتحرير الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، لكن مبادئ الحرية التي يزعمها لنفسه لا تختلف عن مبادئ أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد والتي كانت تعطي الحرية والعدالة للنخبة دون مواطنيها من النساء والعبيد والمهاجرين، فالمتطرّف لا يعطي الحرية إلا لإخوانه المتطرّفين كما يقول الفيلسوف الفرنسي المعاصر (روجيه دروا) في كتابه (فقه الفلسفة)(٤٣).

أُضيفُ إلى تلك المشتركات مشتركًا تحدث عنه (آلان بوتون) في كتابه (قلق السعي إلى المكانة). في القرن السابع عشر كانت المبارزات مسؤولة عن حصاد ٥٠٠٠ شخص في إسبانيا، لذلك كان الأجانب يُنصحون بالتزام الحرص الشديد عند مخاطبة الإسبانيين حتى لا ينتهي بهم الأمر إلى القبر، وفي إنجلترا لن تكون نبيلًا بدون أن يكون قد سبق لك نزع سيفك من غمده ولو لمرة واحدة. كانت شرارة هذه المبارزات تافهة جدًّا ودائمًا ما ترتبط بالشرف، في فرنسا مات رجل في مبارزة بسبب قوله إن شقّة قاتله تفتقر إلى الذوق، في فلورنسا مات آخر بسبب اتهامه بأنه لم يفهم شِعر دانتي. كانت قيمة الإنسان مبنية على أحكام الناس المتبدلة والتي كانت هي المعيار الوحيد لتقييم الشخص لذاته، فالفرد كان يعدّ نفسه صورة لآراء الآخرين. هذه الحالة القلقة ما زالت تستوطن بعض المجتمعات

القروية سواء كانت مسلمة أو هندوسية أو غيرها، وصار ذلك الأذى النفسي لا يرتفع إلا من خلال العنف(٤٤).

المبارزة هي مثال تاريخي على الاستعداد العاطفي لما قد نفعله عندما توضع مكانتنا على المحكّ، هذه المكانة قد تكون معرضة للانهيار بسبب وصمة يُخشى من الأجيال الحالية أو السابقة -في المنامات والأحلام- أو القادمة -التي لم تولد بعد- أن تعيّرنا بها. هذه الحالة المُحزنة تحتاج إلى جرعات مخففة من علاج الفيلسوف (شوبنهاور) الذي كان يرى أنه يتوجب علينا أن لا نستمع إلى أية إدانة خارجية تحطم احترامنا لأنفسنا، وعلينا ألّا نعذب أنفسنا في سبيل نيل استحسان الآخرين، بل علينا أن نكون غير مبالين بما يجري في عقول الآخرين، لا سيما إذا اكتسبنا معرفة كافية حول ضحالة أفكارهم وتفاهتها وتعصب آرائهم وحقارة عواطفهم وضلال آرائهم، فكل من يُضفي قيمة كبيرة على أمثال هذه الفئة من الناس قد يوليهم شرفًا أكثر مما يستحقون، فلا يمكن لعازف الموسيقى أن يشعر بالإطراء أمام تصفيق جمهوره له إذا علم أن جميعهم من الصمّ الذين لا يسمعون ما يريد منهم الاستمتاع به.

تساءل (بوتون) ما هي المبادئ التي توزع المكانة على أساسها؟ لماذا تحتفي بعض المجتمعات بالعسكريين بينما تحتفي مجتمعات أخرى بالنبلاء وملاك الأراضي؟ قد يستطيع بعض الناس نيل المكانة من خلال قدرتهم على حماية الآخرين باستخدام القوة أو المال، هذا ما فعله فرسان أوروبا في القرن الثاني عشر، أما في الدول المتقدمة والحديثة التي تعتمد على الاقتصاد والتكنولوجيا المتقدمة، فإن الاحتفاء سيكون موجهًا في اتجاه رجال الأعمال والعلماء. ما إن يعجز قطاع من الناس عن تقديم خدمة حصرية فقد ينتهي بهم المطاف إلى خسارة كرسي المكانة، فالرجل مفتول العضلات قد يخسر مكانته «الإغريقية» عند وجود مجتمع سلمي وآمن لا يحتاج فيه إلى عضلاته وفحولته.

علينا أن ندرك أن اهتمامات المكانة عند الناس متبدلة ومتحولة، قد يكونون في زمن ما هم القديسين والزهاد والصالحين من أصحاب النظريات الأخلاقية، وفي زمن آخر قد يكونون

من أصحاب المواهب الجسدية والفنية مثل لاعبي كرة القدم والشطرنج، قد تتبدل العوامل المحددة لكرسي المكانة تبعًا لدواعي قلق المكانة في نفوس الناس. في فترة من الفترات تكرّست المحافظة على مظاهر الدين أكثر من بواطنه، وصارت مكانة الإنسان ترتفع بتمادي تلك العلامات الظاهرة كإطالة اللحية وتقصير الثوب. تحاول الجماعات المختلفة شنّ معارك اجتماعية وربما عسكرية من أجل ترسيخ نظام التقدير السائد تبعًا لشروط الشرف والكرامة عندها، لذلك علينا استكشاف سراديبها بحذر شديد.

سرداب العنف

تعددت النظريات التي حاولت تحليل السبب الذي يدفع الإنسان إلى ارتكاب العنف على الرغم من عدم اختلال صحته العقلية والنفسية، وبالرغم من امتلاكه الإرادة والقدرة الكاملة على اختيار طريق آخر للوصول إلى هدفه. هل السبب هو إرضاء غريزة البطولة؟ تلك التي وصفها (إرنست بيكر) بأنها إحدى ميكانيزمات الدفاع الإنساني ضد الموت، بالقيام بأفعال ضخمة التأثير على البشر تُخلد ذكر وقيمة مرتكبها حتى بعد فنائه المادي(٤٥)؟ أم أن السبب هو متطلبات حياة البشر التي تقتضي وجود حرب دائمة ضد إحساسهم بالدونية، فيكون الباعث الرئيسي لسلوكيات البشر الإجرامية هو رغبتهم في تحقيق القوة لسد الشعور بالنقص كما يقول مؤسس علم النفس الفردي (ألفريد أدلر)(٤٦)؟ أم أن السلوك العدواني هو خلل قديم منذ أيام الطفولة يرجع إلى عدم تلبية الرغبات الجنسية التي تقابلها غريزة الموت، والتي هي الأخرى تقف على قدم المساواة مع غريزة المحافظة على استمرار حياة النوع البشري، وبالتالي يُعتبر الموت والتدمير غريزة في باطن الإنسان كما تقتضي نظريات فرويد(٤٧)؟

سيتبادل الأكاديميون أطباق الأدلة حول هذه النظرية وتلك، لكن للعنف باطن نفسي ينبغي سبر أغواره جيدًا قبل إطلاق الأحكام، إنه سرداب في منزل فسيح يُظهر لناظره أنه قد ألمّ بتفاصيل المكان قطعة قطعة، لكن ذلك لم يكن سوى البساطة الماكرة.

في الماضي كانت ممارسة العنف في المجتمعات البشرية لا تخرج عن نوعين، أحدهما دفاعي يُقصد به صدّ عدوان الآخرين، والآخر هجومي يهدف إلى سلب الأراضي والممتلكات. لكن مع تطور التقنيات وطرق تعاطي الاعتقادات صرنا نرى نمطًا مختلفًا من ممارسة العنف، وهو العدوان التدميري الذي هدفه إبادة الآخر عن بكرة أبيه وليس مجرد استغلاله أو نهبه وتركه على جانب الطريق.

كان أنصار المدرسة السلوكية في علم النفس -وعلى رأسهم (فريدريك سكينر)- يرون أن المشاعر والعواطف والغرائز لا قيمة لها بدون تحولها إلى سلوك. أراد (إيريك فروم) تصحيح نظرية (فرويد) و(سكينر) والتي اعتبرها قد خلطت بين العنف والعدوان والتدمير، فالعنف الحيواني هدفه السيطرة والزعامة وإشباع الحاجة البيولوجية دون أن يهدف إلى التدمير، أما الإنسان فوحده القادر على إحداث تدمير قد يشمل التعذيب والقتل لمجرد المتعة، هذا الأمر لم يوجد في عالم الحيوان، بل يُقال إن هذه النزعة تكاد تكون غير موجودة في الحضارات البشرية البدائية مثل أستراليا والهند وأمريكا الشمالية، ما ينفي طابع الغريزة في التدمير. استنتج فروم أن مستويات العنف تواكب ندرة الثروة وطرق الإنتاج وتراكم الثروات، وكلما تقدمت الحضارة تصارعت على تخزين الثروة بدلًا من الصراع على إنتاجها، وهنا ينتقل العنف إلى أقصاه المدمر، والذي سيجد له تبريرات سياسية ونفسية واجتماعية ودينية وتاريخية، ليقود في النهاية إلى الوحشية والمجزرة.

الرحلة تبدأ من الطفولة

تقترح نظرية «الاستجابة التكيفية التنبُّئية»(٤٨) أن التعرض لبيئة قاسية في وقت ما قد يدفع الإنسان إلى النقيض المتطرّف في مرحلة لاحقة من حياته، الجنين الذي يحصل على تغذية محدودة داخل الرحم يطور من عملية الأيض من أجل تخزين مزيد من السعرات الحرارية، والتي تنتهي بمنع بعض الجينات من إنتاج البروتينات، فيتجه الجنين المحروم إلى طريق البدانة وأمراض تصلب الشرايين التي يستطيع نقلها إلى الأجيال اللاحقة. إن التعرض لعوامل قاسية في فترات مبكرة من الحياة قد تدفع الفرد إلى سلوك طريق متطرّف في فترات لاحقة، بشكل يؤدي إلى تكرار نفس الشيء مع الأجيال التالية.

لدى بعض الأطفال ميول عدوانية وقدر من القسوة تجعلهم يشعرون بالمتعة عندما ينزعون أجنحة ذباب حيّ أو عندما يلقون أعواد ثقاب مشتعلة على القطط، فالطفل هو محارب شرس لكن بدون جيوش مُطيعة، ومن ليس له جيش ليست له طاعة، المتطرّف هو

طفل لم تستطع التربية والبيئة والقوانين تهذيب سلوكه في الوقت المناسب، من هنا قد تنمو بذور التطرّف وتنتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة والشباب، قلّما تجد من يمارس العنف وهو في سن الكهولة إلا إذا كان أصوليًا غارقًا لا يُرجى شفاؤه.

في مرحلة الطفولة يبرز صراع من أجل تقدير الذات، الطفل لا يخجل من الإفصاح عما يحتاجه أو يرغب فيه بنرجسية فطرية، وعندما يتواجد عدد كبير من الأطفال يطالبون بامتيازات توسع ذاتي وشعور بالأهمية الكونية فإن ذلك قد يحول حياة الأبوين إلى جحيم، نسمع من الأطفال عبارات «أعطيتَه مالًا أكثر منّي» و«أكل شوكولاتة أكثر منّي». وإذا أعطيته إياها سيقول لك: «قطعة الشوكولاتة التي أكلها كانت أكبر من التي أعطيتني إياها». لا تكمن المسألة في كون الطفل أنانيًا أو مستبدًا، بل تكمن في كون الإنسان يريد أن يبرز كقيمة جوهرية في الكون وأن يكون بطلًا، كفاحه في هذا الطريق متجذّر في طبيعته التطورية والعضوية كما يقول (إرنست بيكر) في كتاب (إنكار الموت)، إن الرغبة في البطولة هي أمرٌ فطريّ بُنيت حوله عادات وقواعد المجتمع.

إذا أردت صناعة إرهابيًا فعليك خلق حالة من التفاعل بين أربعة عناصر مهمة، عليك أولًا إيجاد جماعة تحمل أجندات سياسية، غذِّ هذه الجماعة بإيديولوجيا عقائدية تبرر العنف تلقائيًا، ثم ابحث عن أفراد ضعفاء يردّدون شعارات الجماعة لضمهم إلى أحد أعمالها. هذا الحساء الإرهابي بحاجة إلى درجة من الدعم الاجتماعي للجماعة وإيديولوجيتها سواء عرف المجتمع حقيقة الجماعة أم تعامل معها بسذاجة أو عدم اكتراث، يتبع ذلك ظهور نماذج انتحارية يجري تسويقها كقدوة في المجتمع. أحد الإرهابيين مثلًا قبل قيامه بالعملية الإرهابية كان معروفًا بين أبناء مدينته بصفتي الشجاعة والإقدام، والتي تبين أنها لم تكن سوى صفات تهور وعدم استقرار ذهني.

أظهر (إدوين شنيدمان) -عالم النفس الأمريكي ومؤسس علم الانتحار- أن السلوك الانتحاري يمكن التنبؤ به على أساس مفهوم أسماه الألم النفسي(٤٩)، والذي عرفه بكونه ألمًا نفسيًا لا يطاق يكون الانتحار فيه وسيلة لوقف وعي المرء وإغلاق ألمه الذي لا يطاق.

يرى (بروس بونغر) أن الشخص الانتحاري هو شخص مفصوم عاطفيًّا ومخدر ويعيش حالة من الهدوء الغريب قبل قيامه بالعملية، بعض من أُخذت شهاداتهم بعد فشل عملياتهم الانتحارية يقولون إنهم خاضوا تجربة نفسية تحمل نشوة غريبة وكأنهم في ثمالة رغم عدم استخدامهم أية مواد مخدرة. تستطيع الإيديولوجية المتطرّفة انتشال الفرد من حالة الميت الحيّ -التي يكتنفها الألم العاطفي الشديد والذكريات المؤلمة والكوابيس وعدم القدرة على التركيز- إلى حالة مطمئنة وساكنة، فالحياة عند بعضهم صارت عبثًا لا يُطاق، وبما أنهم يحرم عليهم الانتحار دينيًا بشكل بات، فإنهم يلجؤون إلى فكرة الإسعاف النفسي السريع الذي قد يتضمن إعلانًا انتحاريًا.

الدافع والإيديولوجية

في بدايات التاريخ المكتوب كان الملوك خدمًا للآلهة، ففرعون مثلًا كان ممنوعًا من القيام بأي فعل يحيد عن الهدف من وجوده في هذا العالم، كان مقيدًا بقوانين آلهة معلّقة فوق رأسه تحدد له كمية طعامه وشرابه وعدد مرات معاشرته لزوجته، ولعل ذلك هو السبب في كون الحضارات المبكرة رحيمة بأعدائها المهزومين بسبب كونهم محكومين بقوانين الآلهة التي علمتهم قداسة الروح البشرية، فالقسوة والوحشية بحاجة إلى قدرٍ كبيرٍ من الذاتية والأنانية، بدأ التحول الكبير في الألف الثانية قبل الميلاد عندما كف الملوك عن التصرف كخدام للآلهة وبدؤوا ممارسة القوة والقسوة والإرهاب ضد أعدائهم بلا وازع إنساني(٥٠).

اتضح أن كثيرًا من الحروب عبر التاريخ كانت تدور حول امتلاك المكان والذي كان له ما يوازيه في عالم الحيوان، فقد أظهرت الدراسات الحديثة أن عددًا من الذكور المهيمنين -من الأسود وقرود البابون والفئران- يقتلون صغار أعدائهم المهزومين، فالجريمة ليست إلا جانبًا من هذا الميراث الحيواني، ذهب بعض العلماء إلى أن البشر تطوروا بسبب عدوانيّتهم، فلا يجب أن ندهش من قيام الحروب ووقوع الجرائم والعنف. أما الفيلسوف الفرنسي (جان بول سارتر) فقد ذهب إلى كون البشر أعداء طبيعيين بعضهم لبعض، ولو

خرج شخص ما ليمشي منفردًا بين الحقول وفي أحضان الطبيعة لكره وجود بشر آخرين أثناء تجواله.

لا يحتاج البشر إلى إيديولوجية سيئة لدفعهم إلى ارتكاب سلوك مشمئز كما يقول (كولن ويلسون) في كتاب (سيكولوجية العنف)، فالمشاعر الجامحة تستطيع السيطرة عليهم بكل سهولة وبدون إيديولوجية مسبقة.

أغلب من قاموا بإبادة جماعية على مسار التاريخ لم تكن لديهم مشاعر تجاه ضحاياهم، تمامًا كما يشعر آكلو اللحوم تجاه الأغنام التي يأكلونها، اليابانيون غزوا (نانكنج) الصينية وأحرقوا جثث سكانها واغتصبوا عشرين ألفًا من نسائها وجعلوا أطفالها أهدافًا تدريبية حيّة بالسلاح الأبيض، كانوا يقاتلون في سبيل الإمبراطور وكانوا يعتقدون أن قضيتهم عادلة ومبررة. أيضًا الجنود الألمان الذين قذفوا الأطفال الفرنسيين الفارّين من الكنيسة المحترقة إلى داخلها، كل أولئك كانوا جنودًا محبوبين من أزواجهم وأبنائهم وأصدقائهم، لكنهم تحولوا إلى وحوش كاسرة مع أعدائهم.

إن أسوأ أنواع الجرائم لا يرتكبها الحمقى والأغبياء بل يرتكبها المتحضرون الأذكياء عن طريق اتخاذ قرارات لها مبررات ودوافع مقنعة بالنسبة إليهم وإلى أتباعهم، لا يوجد إنسان في هذا العالم لا يشعر في قرارة نفسه بأنه شخصية تستحق أن يؤرّخ لها وأن تُنشر قصة حياتها لتحظى بما يليق بها من اهتمام الآخرين، فأهم دافع في حياة الأفراد هو دافع البطولة، وقد تختلف تلك الدوافع بين القوميات المختلفة، فالفرنسيون والإيطاليون يقتلون لأسباب عاطفية، الألمان يقتلون بدوافع سيادية، والإنجليز يقتلون بعد وضع خطة مُحكمة، والأمريكان يقتلون لأسباب عادية وليدة اللحظة، أما الأصوليون والشيوعيون والنازيون فهم يقتلون لأسباب إيديولوجية بحتة.

دوافع العنف

في عام ١٩٦٦ قتل (تشارلز ويتمان) البالغ من العمر ٢٥ سنة زوجته وأمه في سريرهما ثم صعد برج جامعة تكساس ليقتل ١٣ شخصًا ويجرح ٣٢ آخرين، اللافت أنه كتب رسالة طلب فيها تشريح جثته لمعرفة سبب الصداع الشديد الذي يعاني منه والذي صاحبته أفكار مزعجة وغير منطقية، وجد أطباء الطب الشرعي بالفعل بعد التشريح ورمًا في المرحلة الرابعة في حجم الجوزة في منطقة تحت المهاد ويضغط على الحصين واللوزة، اعتقد البعض أن هذا الورم هو سبب تلك العدوانية التي صاحبتها نوبات الغضب. لكن ليس كل المتطرّفين عندهم ذلك الورم النادر(٥١).

عندما تتسع الهوة بين القيم السائدة والقيم المعلنة، تصل إلى الفرد رسالة مزدوجة تجعله يعيش في حيرة وقلق تدفعه إلى التشكيك في مصداقية في كل ما هو حوله، وبالتالي يصبح أكثر عدوانية تجاه محيطه، قد يشتبك مع مجتمعه بسبب رغباته الداخلية -كالرغبة الجنسية- التي تجعله يُنفّس عما يخشى أن يسقط فيه عن طريق توجيه الصراع إلى العوامل التي تثير غريزته ويجعلها مسؤولة عن كل مشكلة يقع فيها.

يلعب التحريض العقائدي دورًا مهمًّا في اللعب بعقول الشباب السذج والمعقّدين نفسيًّا الذين يعِدونهم بتسكين رغباتهم الجنسية، ما يجعلهم لا يترددون في فعل أي شيء يقرّبهم إلى ما يصبون إليه، فما بينهم وبين النعيم المقيم هو كبسة زر في شارع عمومي مكتظ بالأطفال والنساء من أجل استهداف دبابة عدوّ قد تمرّ وقد لا تمرّ.

إن غسل الدماغ الذي يسبق العملية الإرهابية أمرٌ في غاية الأهمية، غسل الدماغ ليس عملية غسل بالماء والصابون لأوساخ ظاهرة في الثياب، بل هو عملية سيكولوجية يُخدر خلالها العقل عن طريق إخضاعه خضوعًا لا إراديًّا يجعله تحت سلطة نظام لا يُفكّر، وهي طريقة قديمة استخدمها المصريون القدماء والصينيون الشيوعيون لتخليص أعدائهم من ترسبات الماضي. أثبتت تجارب (بافلوف)، عالم الطب الروسي الشهير، أنه يمكن تثبيت أو إزالة أنماط سلوكية في الإنسان نتيجة عوامل فسيولوجية متشابهة، فعندما ينهار العقل تحت وطأة التوترات الشديدة، فإن السلوك الناجم عن ذلك يتغير، وهكذا يمكن غرس أنواع

مختلفة من العقائد في أذهان الناس بعد اضطراب وظائف المخّ، وتحدث عملية غسيل الدماغ عبر مراحل، منها الكشف عن الجوانب النفسية والدينية والعاطفية والسياسية عند الشخص المستهدف، التعرف على المحيطين به، تفريغ ما لديه من أفكار ووضعه في حالة تمزق نفسي، تغذيته بالأفكار والمعلومات من خلال دروس فردية وجماعية، وأخيرًا متابعة مستوى تقبل الفرد للتغيير الجديد كما يقول (الحيدري)(٥٢).

كذلك علينا ألا نغفل مسألة ذوبان الفرد في المتطرّف الأقوى الأكثر احترافية، ربط (إيرك فروم) في كتابه (الخوف من الحرية) هذا الأمر بالنزعة السادية التي تدفع إلى التسلط والنزعة المازوشية التي تدفع إلى الخضوع(٥٣)، فهناك من يتخلى عن استقلالية ذاته ويندمج في شخص آخر من أجل الحصول على القوة التي يفتقدها، وهذه الآلية هي نتاج الخطاب الثقافي القمعي والمعوقات الذاتية التي تتمثل في آليات التفكير السلبية. هناك من يفتش عن «آخر» يُحمّله وزر قهره وأخطائه وعدوانيّته ليسقط إحساسه بالذنب على غيره. كان هتلر ينصح الساعين إلى الزعامة بتركيز اهتمام الشعب -إعلاميًا- وحصره في خصم واحد، بل حتى مع وجود عدة خصوم فإنه يجب إدخال في روع الشعب أن جميع هؤلاء الأعداء يصدرون عن رأي واحد ويعملون لهدف مشترك، لأن الشعب قد يرتاب في عدالة قضيته إن تعددت ساحات القتال وأسبابه(٥٤).

أشارت بعض التقارير إلى أنه ضُبطت عشرات آلاف الحبوب المخدرة عند الجماعات الإرهابية(٥٥). تستطيع بعض أنواع حبوب الهلوسة التأثير على التغيرات المزاجية والسلوك عن طريق إعاقة مادة السيروتونين في الدماغ، ولعل هذا ما يفسر مشاهدة عدد من المنتحرين بالأحزمة الناسفة والسيارات المفخّخة وهم يهلوسون ويضحكون بشكل هستيري قبل القيام بعملية التفجير بعدّة ساعات. صحيح أن كثيرًا من أعضاء تلك الجماعات يُظهرون التزامًا دينيًا يمنعهم من تعاطي المُسكرات والمخدرات، إلا أن رؤية بعضهم يتعاطون الدخان قد يوحي بأن تناول المحرمات الأخرى غير مستبعد عندهم خصوصًا الأفراد المستجدين الذين اختيروا للعمليات الانتحارية بدون النظر إلى مسألة

التزامهم الديني، فكثير منهم غاضبون يبحثون عن أدوات انتقام أكثر من بحثهم عن نصرة المعتقدات.

هناك أسباب اجتماعية تفاقم من فرص تكون العنف، منها الحرمان من رعاية الوالدين والصدمة النفسية في الطفولة والعلاقة المضطربة مع الأقران، وإذا حصل اضطراب في العلاقات الشخصية فإن ذلك قد يتطور إلى رفض الطاعة والانصياع للسلطة سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو دينية، كذلك يرتبط انخفاض المستوى الاجتماعي والاقتصادي مع عدم قدرة الأسرة على دعم وتزويد أفرادها بمهارات التكيف في وقت الأزمات. بحسب نظرية العنف كسلوك اجتماعي مكتسب، فإن الفرد يتعلم العدوان ويطور أساليبه طبقًا لقواعد التعلم التي تعتمد على عناصر التعرض والتكرار والربط والمكافأة، فالعنف والعدوان بحاجة إلى ظروف اجتماعية تثيره وتجعل من عمله ممكنًا، كوجود حالة من الإحباط أو التعرض للعدوان أو الحصول على مكافأة معنوية أو مادية، وتوجد ظروف محيطة بالفرد تسهل من ممارسة العنف مثل الازدحام والضوضاء وتلوث البيئة وتعاطي المخدرات والكحول والعقاقير.

افترضَت النظريات القديمة وجود علاقة ثابتة بين الإحباط والعدوان، فبمجرد ما يواجه المرء عوامل مثبطة لما يريد الوصول إليه فإن أعواد العدوان تشتعل فيه، لكن النظريات الأكثر حداثة لا ترى علاقة مطَّردة بين الإحباط والعدوان، فهناك عوامل أخرى مهمة تقيد ردود أفعال الفرد المُحبط مثل درجة التعليم والخبرة السابقة والثقافة والتربية وغيرها، وربما يجعل الإحباط الدائم الفرد أكثر عرضة لممارسة العدوان.

الغرائز الدفينة

هناك دافع غريزي يوجّه سلوك الإنسان تلقائيًا ويدفعه إلى التعدي على الآخرين، قد تكون إحدى صور هذه الغريزة غير المباشرة النشاطات الرياضية والألعاب التنافسية والتنافس على السلطة، وكل هذه الأمور المختلفة تنبع من قوة الغريزة. تصور (فرويد) وجود

غريزتين متناقضتين تفسران السلوك الإنساني، أولاهما غريزة الحياة أو (آيروس) وطاقتها هي الليبيدو Lipido التي تدفع نحو التكاثر والمحافظة على الحياة، أما الغريزة الثانية فهي غريزة الموت أو (ثاناتوس)، والتي تتّجه طاقتها نحو الدمار، تحقّق هذه الغريزة الهدف الأكثر سطوة وهو الرجوع إلى حالة ما قبل الحياة، إذا ما ثُبطت هذه الغريزة فقد تُوجه طاقتها نحو الغير بدلًا من توجهها نحو الذات(٥٦).

يرى (كونراد لورنتس) -المتخصص في علم الحيوان- أن العدوان الإنساني نابع من غريزة النزال التي تحفّز الصنف الحيواني على الانتشار والهجرة من أجل الحصول على أكبر قدر من المكاسب والمصادر، وهذا ما يفسر سلوك الهجرة عند الحيوانات، فالحيوانات التي تمارس العنف تدفع غيرها إلى الهجرة، والتي هي الأخرى تمارس العنف من أجل حيازة مصادر جديدة للعيش، هذه الغريزة تضمن بقاء الأقوى والأصلح وإقصاء الأضعف والأهزل.

يرى (لورنتس) أن طاقة العدوان عند الحيوان قد تتراكم مع مرور الزمن إذا لم تُصرف في وقتها، فإذا توفرت البيئة المناسبة لتصريفها انطلقت في محيطها. وقد انتقد العلماء هذه النظرية بسبب اقتباسها صفات من عالم الحيوان ودفعها إلى عالم الإنسان، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر كثيرًا من مظاهر تشابه السلوك الإنساني والحيواني، فهناك العديد من السلوكيات الإنسانية -مثل الوفاء- موجودة في عالم الحيوان. مع ذلك، فإن «لورنتس» يرى أن دموية الحيوان المفترس أسطورة، فلا توجد علاقات عدوانية إلا بين الحشرات، أما الحيوانات الفقارية فتقتصر عدوانيتها على الدفاع عن المجال الحيوي والبحث عن الطعام والرئاسة والتزاوج، مع وجود مجال يكبح الميل العدواني عند الحيوان، وهو ما يفتقده الإنسان الذي لا يمتلك سوى كوابح حضارية، ما يميز عدوانية الإنسان هو عامل الحقد الذي يشتعل عنده ويدفعه إلى العدوان(٥٧).

لم يستسغ بعض العلماء مبدأ غريزة العدوان التي تتولد بصورة تلقائية، فاستبدلوا بها دافع العدوان الذي ينشأ من دافع خارجي يُشعر الفرد بالخطر، رغم القبول العام لهذه النظرية فإنه لا توجد -عمليًا- فروق جذرية بين نظرية الغريزة ونظرية الدافع سوى أن الدافع في

الغريزة دافع داخلي وفي الدافع حافز خارجي، وفي كلتا النظرتين تكون الطاقة المُحركة للفرد أساسها متجذر في الطبيعة البيولوجية للفرد التي توفر الطاقة العصبية الفسيولوجية المطلوبة لممارسة العنف.

نظر التحليليون المتأخرون إلى العنف كطاقة عقلية عامة تلعب دورًا مهمًّا في الصراعات العقلية قد تماثل الدافع الجنسي، وإذا ما تم اعتراض هذا الدافع فإنه سيتحول إلى مرض نفسي عصابي أو انحراف في خصائص الشخصية. أما عالم النفس (كارل يونغ) فكان يرى وجود رابط بين الميل العدواني والإحباط سواء كان ذاتيًّا أو جنسيًّا، فالمرء يشعر بالذنب إذا لم تُتح له فرصة إبراز فرديته الخاصة ما يولد عنده شعورًا متزايدًا بالعدوانية.

عند تفسير العدوانية علينا الانطلاق من دراسة التجربة الذاتية للإنسان في تفاعله مع الآخرين، فليس هناك اعتداء اعتباطي، بل هو نتيجة عملية تغير داخلي بطيء يقضي على روابط الحب والمشاركة يرافقه تضخيم للذات يبخس قيمة الخارج وينعدم فيه الإحساس بالآخرين، وهو ما قد يفسر حالات الإبادة الباردة وما يرافقها من لا مبالاة كما قال الطبيب النفسي النرويجي (إيناركرين جلين).

عُقد نفسية

في الأدبيات الغربية يُصور الإرهاب الانتحاري كفعل ناتج من انحرافات اجتماعية ودينية، مع ذلك لم يُعثر في كثير من الانتحاريين على علامات اكتئاب نفسي أو اعتلال اجتماعي، بل كان عندهم حسّ عالٍ بمسؤولية تحقيق الهدف والتركيز على المهمة والولاء للجماعة، يمنح المُقاتلُ في صفوفهم المقاتلَ الآخر حريته بحسب (سواتيمو خرجي)(٥٨). المرض النفسي ليس ملازمًا للتطرّف كما أن التطرّف ليس رديفًا للمرض النفسي، لكن إن وجد فإنه قد يُضاعف من فرص حصول التطرّف، تمامًا كعلاقة السرطان بالدخان، فالتدخين يضاعف من فرص الإصابة بسرطان الرئة إلا أن ذلك لا يستلزم إصابة كل مدخن بالسرطان، كذلك لا يستلزم أن كل غير مدخن معصوم من الإصابة به.

يذكر خبراء علم النفس بعض الاضطرابات النفسية التي قد تصاحب الشخصية الإرهابية، منها النرجسية والوسواسية القهرية والشخصية المعادية للمجتمع والشخصية التي تحمل نمطًا فصاميًّا، المشاكل النفسية -مثل القلق والاكتئاب والبارانويا- التي قد تجعل الفرد شخصًا متعاليًا ومتسلطًا يريد توجيه الناس ولا ينتظر منهم سوى السمع والطاعة وإلّا قوبلوا بالقوة، الاضطرابات الذهانية -كالفصام والهوس والاضطرابات الضلالية- قد تجعل الفرد يعتقد أنه مصلح عالمي من الطراز الرفيع حتى لو أخفى ذلك الشعور المتعالي عن الناس، وأحيانًا تدفع الضغوط النفسية -المصاحبة للفشل المادي أو الاجتماعي- الإنسان إلى أن يحول قضيته إلى قضية عامة حتى يخفف من آلام الإحباط الشخصي الذي يدفعه إلى الشعور بالوحدة.

إن كنت تعتقد أن المجرم يقلّ معدل ذكائه عن المعدل الطبيعي فعليك مراجعة افتراضك هذا، فالمجرم ليس ما كنت تراه في الأفلام القديمة، ليس ذلك السفاح البشع ذا العيون الحمر الجاحظة والهالات الرمادية والأسنان السود والروائح النتنة والملابس الممزقة، فالمجرم قد يكون أنيقًا ووسيمًا وحسن المعشر وطيب النفس مثل مجرمين مشهورين من أمثال (تيد باندي) و(جيفري دامر)، وإذا نظرنا إلى السينما العربية فإنها ليست ببعيدة عن المشاركة في رسم هذه الصورة عن المجرمين، فكفار قريش هم أبشع الممثلين رغم ما عُرف عنهم من الأناقة والكرم والوسامة وانتقاء الكلمات وقوة الحجة، كل ذلك يشوش التلقي الصحيح لنمط المجرم. الإرهابيون أناس منغمسون في ذواتهم بصورة مفزعة ويمارسون العنف من أجل تحقيق هذه الذات، وربما يمارسونه لدوافع ناتجة من أفكار مشوشة من المثاليات لخلق عالم مثالي، فهم يقتلون من أجل المصلحة العامة وليس من أجل مصلحتهم الخاصة.

وبينما يعزو فرويد العدوان إلى غريزة الهدم داخل النفس البشرية والتي تتعارض مع غريزة الحب والحياة، فإن (غاستون بوتول) يُرجع الطبيعة العدوانية عند البشر إلى ثلاث عقد كما ينقل (ولسون)(٥٩):

الأولى: عقدة إبراهيم، والتي استلهم اسمها من قصة محاولة ذبح النبي إبراهيم عليه السلام لابنه، ومع أن سبب المحاولة هو منام ظنه إبراهيم أمرًا إلهيًّا، فإن بوتول استخدم هذا الاسم ليُعبر عن عقدة الصراع بين جيل الآباء وجيل الأبناء الذي سيستولي على سلطان وأموال وكفاح الآباء، وضرب أمثلة إعدام كثير من ورثة الملوك -مثل فيليب المقدوني وإيفان الرهيب وسليمان القانوني- ليعبر عن تلك العقدة الكامنة. إن قول هتلر إن مذابحه الضخمة ستضمن بقاء الرايخ الثالث ألف سنة مقبلة كان في أحد جوانبه يُعبر عن التضحية بجيل شاب من أجل خلود هتلر نفسه.

الثانية: عقدة كبش الفداء، تشمل تنشئة المجتمع على الإشارة إلى عدو تقليدي يتحمل باستمرار كل الأزمات والمصاعب، فيعدّ سلاحه دفاعًا عن النفس وسلاح غيره سلاحًا هجوميًّا، هذه العقدة هي الشماعة التي تصنعها الجماعات المتطرّفة من أجل حشد الأتباع حولها.

الثالثة: عقدة «ديموقليس»، والتي تعبّر عن الخوف الدائم وعدم الأمن الذي شعر به (ديموقليس) الذي احتل مكان سيده ملك (سيراقوطة) لعدة أيام، حيث وجد نفسه في مكان يتصدر هو فيه احتفالًا فخمًا، محاطًا بجميع رجال القصر، إلا أنه اكتشف وجود سيف ثقيل معلق فوق رأسه جاهز للسقوط عليه في أي وقت. إن الخوف من الموت وعدم اليقين في مقدار أعمارنا يدفع بنا إلى كل أنواع القلق الميتافيزيقي ويدفعنا إلى أن نعيش ونقاتل حتى آخر لحظة في حياتنا، يحاول المرء البحث عن الناس الذي يهددون حياته ما يجعله عرضة للانفعالات العنيفة. انبثقت من هذه العقدة عقدة الازدحام التي دفعت النازيين إلى ارتكاب مجازر باسم المجال الحيوي، وهو ما دفعهم إلى القيام بالحروب الوقائية ضد جيرانهم مع إرضاع الأجيال الناشئة روح العداء(٦٠).

ذهب فيلسوف علم الاجتماع (إميل دوركايم) إلى أن درجة التكيف الاجتماعي للفرد هي العنصر المحدد للفعل الانتحاري، فالقيم الاجتماعية كالأخلاق والمبادئ والسلوك السوي تخلق في داخل الفرد إحساسًا بالواقع الذي يُعد عنصرًا ضروريًّا لمنع الانتحار(٦١). المشكلة

الرئيسية للامنتمين أنهم يملؤهم الإحساس بظلم العالم لهم، فيتبلور عندهم شعور عميق بالإشفاق على الذات والتعاطف معها، يجعلهم ذلك الإحساس على درجة كبيرة من الحساسية ويصبح مزاجهم متقلبًا بين العدوانية والرقة المتناهية، وفي كلتا الحالتين يستقطبون تعاطف الآخرين. يمارس الإنسان العنف ليس من أجل رغبته في الموت ولا بسبب جيناته، بل بسبب حاجته إلى تأكيد ذاته وأنه ذو قيمة أكبر من قيمة غيره كما يعبر (فروم).

الجريمة والعنف يأتيان نتاج مواقف ذهنية سلبية، والتي ترجع إلى الاختيارية في آلية الإدراك، وبمجرد أن يغلق الإنسان ذهنه إراديًا عن الواقع والوجود فإنه لا يرتبط بالواقع الخارجي إلا من خلال خيط واهٍ هو عبارة عن طلباته المُلحّة، وكما يقول بعض العلماء فإن كثيرًا من البشر يموتون قبل وقت طويل من موتهم الجسدي، يموتون وهم أحياء يتنفسون، يظلون يستجيبون للمؤثرات الخارجية مثلهم مثل طاحونة الهواء الهائلة المفرقعة والتي لا يسكنها إلا فأر ميت.

يرى (إيريك فروم) أن السلوك التدميري عند الإنسان نتيجة دوافع ونزعات ذات علاقة بالممارسات والشعائر الطقوسية الدينية وليست بالضرورة نتيجة دوافع ونزعات طبيعية، ففي حروب البشر على مدى التاريخ تتوفر شروط موضوعية -مثل النزاعات السياسية والدينية وفقدان قيمة الفرد والفقر- تُساهم في تغذية النرجسية الجماعية على الصعيد القومي أو الديني، فالطاقة التدميرية طاقة كامنة تغذيها العوامل الخارجية وليست الطبيعة البشرية المجرّدة، فتجد المتطرّف مستحضرًا للتوحش بأدلة من كتب قديمة يراها تسوّغ له ذبح وحرق الناس بحماس شديد بحجة الالتزام بالنصوص المقدسة.

كلما انغمس المتطرّف في جماعته، خسر جزءًا من الأنا التي يملكها، وأصبح لعبة في يد من استحوذ عليه. مع الانغماس في الجماعة تختفي الأنا تمامًا تحت تأثير التنويم المغناطيسي الجماعي -كما يقول بروفيسور علم النفس (إيان روبرتسون)- ومن بعد ذلك تبدأ الوحشية في جر وحشية أخرى(٦٢)، ومعها تتحوّل الضحية إلى جلاد، فالجنود النازيون الذين كانوا

متّهمين بالوحشية كانوا في الأصل مضطهدين إما جسديًّا وإما جنسيًّا. كذلك يصبح التعامل مع الآخر على أنه «شيء» -حيوان أو حتى جماد- لا نفس بشرية، وكل ما ينبغي عمله تجاه هذه الأشياء البشرية هو الثأر منهم.

هرم (ماسلو)

قدم عالم النفس (إبراهام ماسلو) تفسيرًا علميًّا لمسألة تغير أنماط الجريمة عبر الزمن بحسب سلسلة الاحتياجات، والتي استنبطها من مراقبة طويلة للقرود في حديقة الحيوانات، حيث كان يعيش صراعًا فكريًّا بين (سيجموند فرويد) و(ألفريد أدلر)، كان (فرويد) يرى أن كل أنواع العصاب تنحدر من سبب جنسي، و(أدلر) كان يرى أن حياة البشر عبارة عن حرب ضد إحساسهم بالدونية فيكون الدافع الرئيسي لسلوكياتهم الإجرامية رغبتهم في تحقيق القوة، في هذه الظروف العلمية نشأ «هرم ماسلو» الشهير الذي يتكون من عدة احتياجات تبحث عن إشباع(٦٣):

١- الاحتياجات العضوية: هناك احتياجات حيوية مثل الحاجة الى الأكسجين والماء والغذاء والجو المعتدل نسبيًّا، في مرحلة الطفولة تتشكل نظرة وتصور الإنسان عن الحياة وعن ذاته تحديدًا، وتبقى معه هذه الاستنتاجات بقية عمره، لذلك يجب أن يكون إشباع تلك الاحتياجات من بين الأولويات التي على الدول توفيرها من أجل إنشاء جيل سليم ومعافى.

٢- احتياجات الأمن والسلامة: عندما تُشبع الاحتياجات العضوية بحيث لا تكون هاجس تفكير وسلوكًا فرديًّا، فإنه يبدأ بالبحث عن الأمان، الإنسان في هذه المرحلة يبدأ في التفكير في امتلاك بيت يأويه هو وأسرته، ويبدأ بالبحث عن بيئة اجتماعية آمنة تسدّ له هذه الاحتياجات باستمرار.

٣- الاحتياجات العاطفية والانتماء: عندما تُشبع احتياجاته العضوية والأمنية، تبدأ تنشط لدى الفرد الاحتياجات العاطفية التي تدفعه إلى البحث عن علاقات إنسانية في محيطه الاجتماعي، فتبدأ تخالجه مشاعر الرغبة في الحبّ خارج إطار الأسرة، وتعتريه مشاعر قوية في بناء علاقات وصداقات مع الآخرين عن طريق الانضمام الى النقابات والتجمعات وغيرها، كثير من الجماعات المتطرّفة تقتنص الفرد في هذا المربع لتلبي له رغباته العاطفية.

يرى (ماسلو) أن سلوك الفرد في هذه المرحلة هو سلوك قهري، وإذا حُرم الفرد من إشباع تلك الحاجة فإنه قد يظل بقية عمره متعطّشًا إلى إشباعها بأية طريقة، سواء كان قاضيًا أو أستاذًا جامعيًا أو سائق سيارة أجرة، سيظل باحثًا عن علاقة تغلق له باب هذه الحاجة. لاحظ البعض أن أغلبية مجتمعاتنا العربية في حقبة ما قبل النفط كانت تتميز بعلاقات عاطفية محدودة بين الجنسين، وقد يكون السبب أن الأغلب كان منشغلًا بتدبير أموره المعيشية والسكنية حتى يأخذ كفايته منهما قبل أن ينتقل إلى مرحلة الانتماء وتكوين العلاقات الاجتماعية إن سمح امتداد العمر له بذلك.

٤- الحاجة الى التقدير والاحترام: عندما تُشبع الاحتياجات الثلاثة للمراحل الأولى، تبدأ لدى الإنسان مشاعر الرغبة في أن ينال التقدير من الآخرين لذاته، يؤكد (ماسلو) أن الإنسان غريزيًا يرغب في أن يكون له احترام ثابت وقوي من قبل الآخرين. عندما تُشبع هذه الرغبة يشعر الفرد بالثقة وتخالجه مشاعر القوة والإعجاب بذاته وبأهميتها، ومن ثم يبدأ في تطوير قدراته من أجل ترسيخ هذه الصورة في أذهان الآخرين. إن لم تُشبع هذه الرغبة، فإن الفرد قد تعتريه مشاعر الوهن والضعف ويبدأ في تصور نفسه كإنسان فاشل وبلا قيمة عند الآخرين، هذا الإحساس قد يكون مصدرًا من مصادر هدر الكوادر البشرية التي قد تسبب دمارًا اجتماعيًا واقتصاديًا هائلًا.

هذه المستويات الأربعة يسميها ماسلو «احتياجات العجز» ويؤكد القول إن الإنسان إذا لم يتمكن من أخذ الكفاية منها فإن نداءات خفية في داخلة ستظل تطرق فؤاده الى آخر

العمر. ثم تأتي ذروة الهرم وهي الحاجة إلى «تحقيق الذات»، والتي تتحقّق عند إشباع كل الاحتياجات الأربعة، وفيها يكون الفرد بحاجة إلى أن يكون قادرًا على القيام بالعمل الذي يرغب في مزاولته بدوافع ذاتية، أي أنه يملك المهارة والمقدرة والرغبة في هذا العمل الذي يليق بالقدرات الكامنة في أعماقه، فالموسيقار يجب أن يمتهن الموسيقى، والرسام يجب أن يصنع اللوحات الفنية. تخيل لو أن هذا المستوى تمّ حشوه بأفكار صدامية وعنيفة! قد تكون النتيجة أن الفرد سيحقّق ذاته عن طريق تفجير نفسه في مترو أنفاق أو ملهى ليلي، كثير من مرتكبي التفجيرات الانتحارية قد يكونون مراهقين لم تنضج عندهم هذه المرحلة بالشكل الصحيّ السليم.

المتطرّف المراهق

يوازن المراهقون بين مشاعرهم الشخصية وفهمهم للقواعد والمقايضات الممكنة في المجتمع حتى يخططوا أفعالهم ويتخذوا قراراتهم، ربما حتى يكتسبوا هويات أكبر وأقوى، وقد يتعثر المراهق من خلال تجربة أدوار اجتماعية مختلفة ينتظر من ورائها إطراءً من الناس، فالحياة عند المراهق هي سلسلة من المساومات والصفقات، فهو لا يفعل الشيء من أجل الشيء في حدّ ذاته، بل من أجل عملية تبادل توصله إلى نهاية سارّة. مع مرور الأيام تهزم قيم المراهق بعضها بعضًا وينضج الإنسان ليصل إلى مبادئ أكثر علوًّا وتجريدًا، ويدرك أن العالم أبعد من تلك المقايضات المستمرة التي يجربها المراهق حتى يتلقى الاستحسان والثناء، إن لم يتعلم المراهق أن العالم لا يستجيب لنزواته دائمًا، فسيُصاب بصدمة كبيرة حين يتلقى ضربات مؤلمة من محيطه، فالمجتمع لا يحب الشخص الأناني الذي لا يُعير مشاعر الآخرين اهتمامًا.

المتطرّف مثل المراهق، يقع في أزمة أمل بمجرد أن يفوق الألم سقف توقعاته، أو يقل المكسب عما توقعه، فلا يجد فائدة مما يصنعه ويلقي بنفسه في أعماق العدمية، كالطفل الذي يحمل قيمًا هشة تجعله يقلب الدنيا إن حُرم من قطعة حلوى يريدها، أما الإنسان

الناضج فهو يمتلك عتبة مرتفعة للألم الذي يستطيع تحويله إلى شيء ذي معنى، وكلما صار العالم مخيفًا أكثر استجمع شجاعته للمواجهة.

مهما وعد المتطرّف أتباعه بالخلاص والسعادة المطلقة، فإنهم كلما أخفقوا في تلبية طلباته ازدادوا ملامة لأنفسهم وازداد إحساسهم بالذنب وصاروا أكثر استعدادًا لفعل ما يطلبه المتطرّف حتى يُكفّروا عن تقصيرهم. يرى المتطرّف أن قيمة جماعته هي أهم من قيمة النظام نفسه، فيكون على استعداد لقلب هذا النظام وإحلال جماعته مكانه لجعل هذا العالم يجري كما يريده، ويرفضون الإقرار بأية مصالح أو قيم خارج مصالحهم أو قيمهم، وهم متسلطون من غير خجل يرجون قدوم أب يجعل كل شيء صحيحًا، يعرف المتطرّف كيف يُلبس قيمه الطفولية لبوس لغة المقايضات والصفقات، حتى لو تطلب ذلك الحدّ من حرية الآخرين من أجل حرية الجماعة.

في حين أن الديانات الكبرى تدعو الناس إلى تبنّي القيم الناضجة غير المشروطة كجزء من ميل فطري إلى الأمل، كالمغفرة غير المشروطة عند المسيحيين والعدالة التامة عند المسلمين، إلا أن بعضًا من أتباعها ما زالوا في مرحلة المراهقة والنرجسية التي تتسم بالمقايضات من أجل الحصول على السعادة.

سيارة المهرّجين

تتحول سيارة وعيك إلى سيارة مهرّجين عندما يستسلم دماغك المُفكّر لدماغك الذي يشعر، هنا قد تتّجه مقاصد حياتك نحو إرضاء النفس وتتحول الحقائق إلى صور هزلية لجملة من الافتراضات التي تخدم الذات فقط، وتضيع المبادئ في بحر العدمية كما وصفها (مارك مانسون) في كتابه (خراب: بحث عن الأمل)، هذه السيارة تتجه نحو الإدمان والنرجسية والاندفاعات التي لا يستطيع صاحبها مقاومتها(٦٤).

يسهل أن تتلاعب بمن يملكون مثل هذه العقول الشخصياتُ المؤثرة التي تعرف كيف تجعلهم مسرورين على الدوام، وإذا لم تتّجه هذه العقول نحو المتعة الجنسية والحفلات الإباحية فإنها قد تتجه إلى ممارسة السلطة بأشكال مختلفة وأحيانًا متطرّفة، فقد يُقدمون على تبرير الإساءة إلى غيرهم وكراهيتهم، هذا الخطاب يُشعرهم بنوع غريب من الطمأنينة قد يدفعهم دفعًا في اتجاه تدمير غيرهم، كل ذلك لأن دوافعهم الخارجية لا تعرف الإشباع إلا من خلال إخضاع العالم الخارجي وتدميره، لا يستطيع هذا العقل الاستقلال عن غيره، ولا يستطيع قياس التناقضات أو تغيير معتقداته.

سيارة المهرّجين هذه هي من دفعت الفلاسفة القدماء إلى التحذير من فرط الانغماس في المشاعر أو المبالغة في تقديسها، وهي من دعت الإغريق والرومان آباء الكنيسة إلى تعليم الفضائل، وذلك خوفًا من خراب يسببه نرجسيون مصابون بجنون العظمة، فعلاج تضخم الدماغ هو إعطاؤه القليل من الأكسجين حتى لا ينفجر في العالم من حوله.

إن تاريخ البشر في الماضي هو تاريخ تملؤه القسوة والخرافات والسادية، فالتسلية في العصور الوسطى كانت بتعذيب القطط، وتربية الأطفال كانت بأخذهم لرؤية لصوص يُعاقبون بالخصي في ساحة في وسط المدينة. بعد انتهاء تلك الحقبة، سيطر العقل المُفكّر وحصلت ثورة في الرفاهية والرخاء أدت إلى حصول تطرّف جديد في العقل الذي «يشعر»، وبعد أن تعرض للإخماد من قبل، صار الناس يبالغون في تقديس مشاعرهم بحيث صارت هي الشيء الوحيد الذي يجب تقديره، وطُليت سيارة المهرجين بطلاء جديد يمنحها طابعًا روحانيًّا فردانيًّا. صار من ينكر العقل -الذي يشعر- مخدّرًا لنفسه ومشاعره تجاه العالم ويصبح غير مبال بقراراته ولا بمشاعر الآخرين، ومن ينكر الدماغ المفكر يصبح طائشًا أنانيًّا تحركه شهواته ورغباته العصية على الإشباع.

دماغ المراهق

قبل ألفي سنة وصف أرسطو المراهقين اليونانيين بأنهم عاطفيون وسريعو الغضب وميالون إلى الحدة في دوافعهم، فهم غير عقلانيين ويركّزون على أنفسهم وميالّون إلى الشعور بأنهم لا يُقهرون ولا يفكرون في احتمال إصابتهم بالضرر كما تقول الدكتورة (فرنسيس جينسين) أستاذة علم الأعصاب في جامعة بنسلفانيا الأمريكية(٦٥).

مرحلة المراهقة مرحلة مليئة بالنشوة ولها مخاطرها التي تتضمن الاندفاع والمجازفة والتقلبات المزاجية ونقص البصيرة وانعدام الحكمة، لذلك صارت هذه الفئة العمرية هي الرصيد المتجدد للجماعات المتطرّفة، أجرى المعهد الوطني للصحة دراسة لفحص كيفية قيام مناطق الدماغ بتفعيل بعضها بعضًا خلال أول ٢١ سنة في الحياة، فوجدوا أن الدماغ يتصل ببطء من مؤخرته إلى مقدمته وأن آخر المناطق التي تتصل هي الفصوص الجبهيّة، وفي دماغ المراهق تكون الفجوة بمقدار ٢٠٪ حيث أنه لم ينضج إلا بنسبة ٨٠٪، هذا ما قد يفسر سلوكيات المراهقين المحيرة كتقلباتهم المزاجية وحساسيتهم واندفاعهم وانفجارهم والمشاركة في أمور خطرة وعدم قدرتهم على التركيز والتواصل مع البالغين الذين نضجت عندهم الأجزاء الجبهية من القشرة الدماغية المسؤولة عن البصيرة التي نادرًا ما يحظى بها مراهق بسبب تكوينه الفسيولوجي.

المراهقون أكثر ميلًا إلى عدم التعلم من الأخطاء، وأغلب استجاباتهم للعالم تدفعه المشاعر وليس المنطق، وبسبب قصور نشاط الفصوص الجبهية للمراهقين فإنه يكون من الصعب التعامل مع عواطفهم خاصة في حالات الأزمات، وقد يتسبب ارتفاع الكورتيزول فوق المعدل الطبيعي بقليل عند المراهق أن يجعله أكثر توترًا وقلقًا وخوفًا.

دماغ المراهق مليء بالتناقضات، ومن ناحية فسيولوجية هو مليء بالمادة الرمادية -التي تشكل بنية الدماغ الأساسية والمسؤولة عن التفكير والملاحظة والحركة- والتي عند غزارتها يجد الدماغ صعوبة في التقاط الإشارات الصحيحة والذي يسمى بالتنافر الإدراكي، دماغ المراهق شحيح بالمادة البيضاء -التي تساعد في تدفق المعلومات بفاعلية من جزء

من الدماغ إلى آخر- فلا تفترض أن يكون هذا العقل قد نضج بمجرد رؤية صاحبه وقد أتم شروط البلوغ الفسيولوجي.

إذا تُرك المراهق دون رقابة فسيلجأ إلى وسائله الخاصة للحصول على المعلومة، فيصبح من المحتمل أن تقوده هذه المعلومات إلى تقليد تصرفات تلحق الأذى بالنفس كالانتحار، فالمراهق سريع التأثر بقوة الإيحاء التي أصبحت متوفرة بكبسة زر في هاتفه المحمول، معظم المراهقين في القرون السابقة كانوا يعملون في مزارع، فمدى تحركهم ووصولهم إلى المعلومات كان محدودًا في ظل رقابة البالغين عليهم، ما جعل احتمال المخاطرة والتهور أقل.

عندما يُبدي الإنسان رغبة ملحة في المثلجات الغنية بالسعرات الحرارية أو المقامرة أو الجنس فإنه لا يكون باحثًا عن لذة طعام أو مال أو نشوة، بل هو باحث عن الدوبامين Dopamine الذي يعمل كناقل عصبي يعمل على تحفيز الدماغ على تعزيز النشاط الموجه نحو الأهداف، فكلما زاد إنتاجه زادت الرغبة في محفزات الدوبامين، فيقبل المراهق على المخاطرة من أجل نيل المثوبة على عمله.

المراهقة مرحلة تطور يمتلك فيها المراهق قدرات إدراكية فائقة ودرجات عالية من التعلم والذاكرة، ومع ذلك فهو معرض لتعلم الأشياء الخاطئة بسبب رغبة الدماغ في الحصول على المثوبة سواء كان ما تعلمه جيدًا أو سيئًا، تتجلى الخطورة في كون دماغ المراهق غير مرن، فتعرضه للماريجوانا يضرّه أكثر من ضرره لدماغ البالغين، لأن المراهق في مرحلة حرجة تتطور عنده أكثر أجزاء الدماغ تأثيرًا وهو قشرة الدماغ الجبهية التي تساعد الإنسان على القيام بمهام فكرية أساسية كالتفكير المجرد والقدرة على تغيير السلوك وتثبيط الاستجابة غير المناسبة.

دماغ الإرهابي

كيف تفكر الجماعة المتطرّفة؟

كانت رواية ١٩٨٤ للكاتب الإنجليزي جورج أورويل مصدر إلهام للباحث السيكولوجي بجامعة ييل (إيرفنج جانيس)، الذي قال إن الجماعات تخمد أنفاس المعارضة وتعطي الإجماع قيمة أعلى من قيمة التعديل والتصحيح، وقد تفشل في اختيار البدائل والعواقب ما يسبب لها إخفاقات فادحة. ضرب (جانيس) عدة أمثلة على قرارات سياسية فاشلة وخطرة اتُّخذت بسبب «عقلية الجماعة»، منها موافقة الرئيس الأمريكي (جون كينيدي) على القيام بغزو خليج الخنازير في كوبا للقضاء على الشيوعية، تصعيد حرب فيتنام بين عامي ٦٤ و٦٧ من قبل الرئيس الأمريكي (ليندون جونسون) ومستشاريه الذين حاولوا إخماد أنفاس كل من يعارض مشروعهم من أجل الحصول على إجماع في زمن الحرب، فضيحة (ووترجيت) التي أطاحت بالرئيس (ريتشارد نيكسون) بسبب سماحه بعمليات تجسّس على خصومه السياسيين، محاولة (نيفيل تشامبرلين) رئيس وزراء بريطانيا استرضاء هتلر وكسب ودّه، غزو ألمانيا للاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، قرار شركة (كيمي جروننتال) تسويق دواء (الثاليدومايد) للتحكم في الألم، والذي اكتشف لاحقًا أنه يسبب تشوهات خطرة في المواليد(٦٦).

جميع تلك القرارات صاحبتها مشاكل عميقة في أسلوب التفكير أدى إلى التحيز الانتقائي في معالجة المعلومات والعجز عن تقدير البدائل والبحث الهزيل عن المعلومات. ارتبطت تلك القرارات بالجهد الجمعي في ممارسة العقلنة للظهور بمظهر المفكر العقلاني. هذا النمط من التفكير قد يخلق أحيانًا صورًا ذهنية جامدة لا ترى المخالفين إلا أعداء لا يستحقون بذل جهد للتفاوض معهم ولا الجلوس معهم. من أجل تجاوز هذه العقلية ينبغي على القادة

تشجيع التفكير النقدي والاستفادة من خبرات المحايدين القابعين في خارج المنظومة والبعيدين عن تأثير المركز.

الجماعات المتطرّفة عادة لديها قادة أقوياء يستطيعون إقناع الآخرين بأنهم محقون ولا يتسببون في أخطاء جسيمة، وإذا كانت الجماعة تتكون من خليط من الغرباء فإن ذلك قد يفاقم من فداحة القرارات حيث يخشى الجميع من طرح آراء مخالفة تمزق وحدة الجماعة. الصراع الإثني لا يورث بالدم، فعندما يولد أبناء كوريا الشمالية فإنهم لا يملكون موقفًا سلبيًا من اليابانيين، إلا أن نظام الحكم الشمولي يقوم برسم صورة تاريخ الأمة بطريقة توحي بأن الشعب الياباني في الحاضر هو عدو أزلي لهم. عندما استولى هتلر على الحكم في ألمانيا دفع اليهود ليكونوا أكثر توحدًا بعضهم مع بعض من أجل حماية أنفسهم، فعندما تكون جماعة معينة معرضة للخطر فإن أعضاءها يترابطون من أجل التأكيد على وحدتهم. يقول الخبير الاقتصادي والسياسي (تيمور كوران) إن اليوغسلافيين كانوا يعيشون معًا في تناغم مقبول عبر الخطوط الإثنية، ولم تقُم الأحقاد القديمة بين الصرب والكروات والبوسنيين بأي دور في حياة معظم الناس الذين كانوا يجهلون معظم تلك الأحداث التاريخية، لكن في غضون أشهر بدأ ملايين من الصرب -الذين لم يسبق لهم أن أبدوا قدرًا كبيرًا من الحمية الإثنية- بالاهتمام بالإحصائيات الإثنية، وقاموا برفع شأن الرموز التي تظهر الصرب بمظهر الأعلى منزلة، وحطوا من شأن غير الصرب وطردوهم من الجوار وانحلت زيجات مختلطة مع الأعراق الأخرى(٦٧)، فكانت النتيجة حربًا أهلية ذهب ضحيتها أبرياء من جميع العرقيات التي لم يعرف أفرادها لماذا بدأت الحرب وكيف انتهت.

سيكولوجية المؤامرة

تحتل نظريات المؤامرة مساحة شاسعة في عقول الجماعات المتطرّفة وكثير من الناس غير المتطرّفين. كثير من المتطرّفين لا تنبثق نزعتهم المتطرّفة من اللاعقلانية بالضرورة، ولكن من كونهم لا يعلمون إلا معلومات قليلة ذات صلة بالموضوع والتي يبنون عليها

تحليلاتهم للأحداث من حولهم، حتى أنك ستجد من يقول إن إسرائيل هي المسؤولة عن أحداث ١١ سبتمبر أو إن مراكز أبحاث صينية هي المسؤولة عن خلق مرض كوفيد-١٩ حتى ينعشوا تجارة الأدوية واللقاحات لفترات طويلة، فبعض المجتمعات العربية أكثر تقبلًا للمؤامرة لأنها ترى إسرائيل مستفيدة من تداعياتها. الناس مدفوعون إلى تصديق التفسيرات التي تتلاءم مع قناعاتهم السابقة والتي تمنحهم شعورًا منسجمًا مع أفكارهم السابقة، لذلك لا تستغرب إن رأيت الكتب الأكثر مبيعًا هي الكتب التي تتاجر بالمؤامرة مثل كتاب الفرنسي (ثيري ميسان) الذي حمل عنوان (١١/ ٩ الكذبة الكبيرة).

تستطيع نظريات المؤامرة المختلفة توجيه الرأي العام وحشد الناخبين والتأثير في قراراتهم، من خلالها ظن الناس أن التغيير المناخي خدعة اخترعها الصينيون، وأن شركة الأدوية واللقاحات تخفي أدلة تدل على تورطها في التسبب في مرض التوحد. رغم أن هذه النظريات تبدو سخيفة للوهلة الأولى بسبب افتقارها إلى أدلة مفحمة، فإنها تلقى رواجًا بين الناس بمختلف طبقاتهم الاجتماعية. إن تسليم الناس بها يعود إلى أسباب سيكولوجية عميقة يبحث فيها الفرد عن جماعة توفر له الأمان واليقين الروحاني وتحميه من كل ما يستهدفه من عناصر أجنبية. لا يريد أحد أن يعيش حياة شخصية الممثل (جيم كاري) في فيلم (The True man Show)، التي كان فيها أصدقاؤه وعائلته والمحيطون به جزءًا من مؤامرة خداعة جعلته يعتقد أنه يعيش حياة طبيعية، أو مسلسل مثل (House of Cards) الذي يصور الساسة في البيت الأبيض كعناصر في مؤامرة عالمية. إن حصول حدث كبير لسبب بسيط، مثل لو مات رئيس أمريكي بعد حضوره مباراة كرة قدم بسبب فيروس كورونا، سيصعب استيعابه من قبل كثير من الناس لبساطته، لا بد من وجود سبب أكبر من ذلك تسبب في تلك الوفاة الصادمة(٦٨).

حين كنت طالبًا في المرحلة الثانوية بدأنا بدراسة مادة الحاسوب لأول مرة، كانت هذه المادة آخر ما يهم الطلاب في ذلك الوقت الذي كانت فيه المواد الكلاسيكية مثل الرياضيات والفيزياء مهيمنة على المشهد، وجدتني مضطرًا إلى أن أهتم بالحاسوب، في عام ١٩٩٩ عندما سمعت عن «خطأ الألفية» الذي سيشل محطات الطاقة والأنظمة المصرفية

والكهرباء والاتصالات عندما يحل العام ٢٠٠٠ الذي لم يستعدّ له الكمبيوتر، كان أكثر ما أخشاه هو تعطل مكيف منزلنا وعدم قدرتي على مواصلة لعب الـ(بلاي ستيشن) خلال إجازة نهاية السنة، كنت أظن أن هذا الاعتقاد الساذج هو وليد بيئتنا وثقافتنا المحلية فقط، لكن اكتشفت بعد عشرين سنة أن كثيرًا من الأمريكان كان يشاطروننا نفس المخاوف من مؤامرة حاسوبية قادمة.

تنبع تلك التصرفات من مخاوف عدم اليقين؛ يخبرنا علم النفس التطوري بأن الإنسان تسيطر عليه غريزة الحفاظ على الذات، وأن ربما عقلية المؤامرة ومخاوف عدم اليقين قد جاءتنا نتيجة لتلك الغريزة بالذات. لو رأيت شيئًا على العشب ولم تعلم أكان عصًا أم ثعبانًا فمن الطبيعي أن تتوخى الحذر، فقد تموت إذا كان ثعبانًا سامًّا، لكن لو أخطأت في حكمك وكان الشيء عصًا فلن يحدث ضرر حقيقي، هكذا مات الأسلاف الذين لم يقلقوا من العصا واتضح أنها ثعبان، وعاش الذين توتروا وقلقوا وحاذروا وابتعدوا، وتكاثروا وأنجبوا من ورثوا عنهم تلك المشاعر(٦٩). تؤدي مشاعر اللايقين إلى افتراض الأسوأ، وهو ما يدفع إلى افتراض سوء النية في تصرفات الآخرين التي تحوم حولها شكوك المصلحة الشخصية، فلو تبرع (مارك زوكيربيرج) -مؤسس فيسبوك- بـ٩٩٪ من ثروته للأعمال الخيرية فسيثير الشبهات حوله حتى لو كانت نيته صادقة. عندما يؤمن الناس بنظريات المؤامرة فإنهم يسقطونها على كل قائد عرفوا أنه غير أخلاقي، بينما لا يسقطونها على من عرفوا عنه التزامه الأخلاقي.

أحد عناصر الجذب الكبيرة في أفكار المؤامرة أنها ممكنة الحدوث وقد تكون مستندة إلى أحداث حصلت بالفعل، فمن يعتقد بالمؤامرة السياسية سيستند إلي واقعة (إيران كونترا) حين باع بعض مسؤولي الحكومة الأمريكية أسلحة لإيران -رغم أنها كانت عملية محظورة- ليموّلوا عمليات (الكونترا) في نيكاراغوا(٧٠). ومن يعتقد بالمؤامرة الصحية سيستند إلى تجربة (توسكيجي) في علاج الزهري، والذي تظاهر فيه العلماء بتقديم علاج إلى الرجال الأمريكان السود لمرض الزهري بينما كانوا في الواقع يدرسون تطور المرض الطبيعي في وقت لم يتوفر فيه علاج لهذا المرض، ليعيش أفراد التجربة -ورغم توفر

العلاج لاحقًا- ضحايا لمضاعفات الزهري(٧١)، والتي قد ينطلق منها البعض في اعتبار مرض كوفيد-١٩ مؤامرة عالمية، وقد سبق أن تعرّضتُ لتحليل ذلك الادعاء في كتابي (الاجتياح: كورونا، ماذا حدث وكيف يبدو المستقبل؟)

الاعتقاد بنظرية مؤامرة واحدة يفتح الباب للاعتقاد بنظريات مؤامرة لا نهاية لها تنتهي بالاعتقاد بالحكومة الخفية التي تدير العالم. يمكن للناس أن يختلفوا في معتقداتهم لكن العمليات المعرفية الأساسية التي تخلق المؤامرات متشابهة وتلقائية، ومتجذرة في أسلوب التفكير البديهي بدلًا من التفكير التحليلي، ما يجعل الناس يعتمدون على مشاعرهم الغريزية في إصدار أحكامهم بدلًا من إخضاع المعلومة للنقد والمساءلة والذي يتكلف جهدًا ووقتًا أكبر، الأمر الذي يرتبط بدرجة ما بمستوى التعليم العالي الذي يناله الفرد والذي يجعله أقل عرضة لتصديق نظريات المؤامرة. وجدَت سلسلة من الدراسات أن الأشخاص الذين رأوا أنماطًا في نتائج رمي العملات العشوائية كانوا أكثر عرضة لتصديق نظريات المؤامرة رغم كونها أنماطًا عشوائية، وذلك ينطبق على من يعتقد بأن وجود وزير الدفاع الأمريكي (دونالد رامسفيلد) في مكان آمن -عندما ضربت الطائرة البنتاغون- هو دليل أن ضربات ١١ سبتمبر هي من تدبير الحكومة الأمريكية، رغم أن الوزير كان متواجدًا في مكان من المفترض أن يتواجد فيه باستمرار.

تعرضت إندونيسيا لهجمات إرهابية في (بالي) بين عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٥ استهدفت السياح الأجانب وضباط الشرطة، أجريت دراسة لتحديد ما إذا كانت الهجمات الانتحارية ستزيد من منسوب نظرية المؤامرة عند الشعب المتأثر بتلك الهجمات، خلصت النتائج إلى أن نسبة كبيرة من المشاركين الذين شعروا بتهديد الغرب كانوا يؤمنون بأن تلك الهجمات كانت مؤامرة من الغرب ضدهم، وهذا يدل على وجود جذور اجتماعية قوية لنظرية المؤامرة. بينما لا تجد من يعتقد أن مجازر رواندا -التي خلفت مئات الآلاف من القتلى- هي مؤامرة من الغرب، ببساطة لأنها بعيدة عن المحيط الجمعي للناس حول العالم.

قد تكون نظرية المؤامرة مثالًا متقدمًا على جنون العظمة عند المتطرّفين الذين يعتقدون دائمًا أن هناك مؤامرة ما في مكان ما تُحاك ضدهم. هناك خمسة مكونات تتكون منها نظرية المؤامرة كما يقول عالم النفس السلوكي (جان بروجين) في كتاب (سيكولوجيات نظريات المؤامرة): ١- الأنماط: شرح الأحداث عن طريق روابط غير عشوائية بين الأحداث والأشخاص، فالكلام المُشتبه فيه لم يحدث مصادفة. ٢- العوامل: الحدث حصل بطريقة متعمدة من أحدهم. ٣- الائتلافات: وجود ائتلاف من جهات فاعلة متعددة. ٤- العدائية: توجد أهداف شريرة تضر بالمصلحة العامة. ٥- التكتم المستمر: تدور الأحداث حول تحالفات تعمل في الخفاء.

لنضرب أمثلة توضيحية: تترك محركات الطائرات خيوطًا بيضاء تتشكل من جزيئات ماء في عوادم الغازات تشبه الغيوم، والتي تتحول إلى بلورات ثلجية بسبب انخفاض درجات الحرارة في المناطق المرتفعة، ظهرت نظرية (الكيميتريل) Chemtrail التي تقول إن هذه المواد التي تخلفها الطائرات هي مواد كيميائية تستهدف التأثير على سلوكيات السكان وجعلهم مطيعين للحكومة، من يصدق أن ٣٪ من عينة تمثيلية آمنوا بهذه النظرية في هولندا في عام ٢٠٠٩، وهناك من اعتقد أن هذه المواد موجهة إلى أصحاب البشرة السوداء في الولايات المتحدة من أجل إيذائهم.

عندما تكون الحرية مكبلة فإن ذلك يعني أنه لن يتوفر سوى قدر قليل من المعلومات التي قد تبرّر المؤامرة الكونية ومن ورائها التطرّف والعنف الذي يُترجم إلى أعمال إرهابية. الأحداث المرعبة تخلق الغضب، وعندما يغضب الناس فإنهم يبحثون عن الأفعال التي تبرر حالتهم الانفعالية، والتي تقوم نظرية المؤامرة بالتنفيس عنها وتفسيرها تفسيرًا يبدو للوهلة الأولى عقلانيًا، كذلك يلعب الانتقاء الانفعالي دورًا مهمًّا في تضخيم الحالات المثيرة التي تركز عليها وسائل الإعلام مع كونها نادرة جدًّا مثل التحذير من خطر البكتيريا الآكلة للحوم البشر.

الأنظمة المتطرّفة مثل النازية والفاشية تقمع معارضيها بالقوة، أمر ستالين بقتل آلاف الأشخاص لأنه اعتقد أنهم كانوا يتآمرون ضده. الأحزاب الإيديولوجية تعبر عادة عن نظريات مؤامرة قوية بين أتباعها، وقد تُلهم العنف المتطرّف والإرهاب فهي عنصر مضاعف للتطرّف كما يقول الباحثون، فهي تستطيع شيطنة الغرباء ومنح أفرادها شعورًا بأن العنف هو الطريق الوحيد المتبقي أمامها.

التطرف كخروج عن المألوف

الإرهابيون ليسوا طائفة متجانسة كما يقول (جيرولد بوست)، فهناك طيف واسع من الجماعات والمنظمات الإرهابية، ولكل منها سيكولوجية ودوافع وبنية صناعة قرار مختلفة، يجب على المرء ألّا يتحدث عن سيكولوجيا الإرهاب بصيغة المفرد، بل عن سيكولوجيات الإرهاب(٧٢).

اعتبر الكاتب (آموس عوز) المتطرّف شخصًا يهتم لأمرك كثيرًا إلى درجة أنه يفضل قتلك على أن يراك تعيش حياة بائسة، يريد أن يجعل العالم كله متجانسًا وأحاديًّا مهما كلف الثمن، هذا العالم الذي لا مكان فيه لأي لون عدا اللون الذي يختاره هو في الوقت المناسب له. سواء الإرهابي الذي يحاول إرغام العالم على تقبل معتقده بالقنابل، النباتي الذي يتمنى افتراس جميع آكلي اللحوم، وغير المدخن الذي يودّ خنق كل مدخني العالم بالغازات السامة، كل هؤلاء متطرّفون بدرجات متفاوتة من وجهة نظر (عوز)(٧٣).

التطرّف لغةً هو البعد عن الاعتدال، وفي علم الاجتماع هو الخروج على المفاهيم والسلوكيات الاجتماعية العامة، وفي السياسة هو عدم الامتثال للقوانين والدساتير المُتعارف عليها، وكما يقول خبراء الطب النفسي فإنه يجب وجود نموذج مثالي Ideal Model نقيس عليه سلوك الناس فنعرف ما هو قريب من النموذج وما هو بعيد عنه.

ليس كل تطرّف سلبيًّا، فمثلًا، أغلب الناس يقتربون بعضهم من بعض في متوسط القدرات العقلية والذهنية، إلا أن هناك فئة تطرّفت عن هذه الأغلبية ومثلت جهة العبقرية والذكاء والإبداع، وفئة أخرى تطرّفت ومثلت الأشخاص من ذوي القدرات الذهنية المحدودة جدًّا. عند غياب أو غموض النموذج المثالي فإن بعض الأفراد يقعون في المناطق الحمراء المتطرّفة فيوصفون بالتطرّف. تقتضي مصلحة المجتمع وجود إطار مرجعي Frame of reference يضع في حساباته تركيبات المجتمع المعقدة والتي تشمل المعتقدات والقيم والأخلاق وغيرها، ولا يكون هذا الإطار جامدًا، بل حيويًّا يواكب تقدم المجتمع والحضارة.

ليس الخروج على المألوف أمرًا سيئًا في مجتمع تشيع فيه الرشوة والتزوير، فمع أن أغلب أفراده مرتشون فإن من يتطرّف عنهم يكون هو المرجعية وليس معاشر المرتشين والمزورين، فيجب أن تحمل مرجعيات المجتمع قيمًا أخلاقية عالمية حتى لا يصير الشذوذ هو القاعدة. النسبية الثقافية مهمة في تحديد السلوكيات الشاذة عن المجتمع، لكنها قد لا تكون صحيحة دائمًا لأن أفراد المجموعات داخل الثقافة الواحدة يختلفون فيما بينهم، ففي الاتحاد السوفييتي، حُشر معارضو الشيوعية في مستشفيات الأمراض العقلية. الأحكام تختلف باختلاف واضعها سواء كانوا الأهل أو المدرسة أو السلطات أو الأنداد ما يؤدي إلى صعوبة تشخيص التطرّف المرضي.

المشكلة الأخرى هي أن الثقافات قد تُختزل إلى ثقافات فرعية والثقافات الفرعية إلى ثقافات فرعية أخرى هكذا إلى ما لا نهاية، وإذا لم نكن حذرين فإن كل سلوك سيُعدّ سويًّا وصحيًّا بمعايير ثقافة فرعية واحدة، وخير مثال على ذلك هو ثقافة المنتسبين إلى القاعدة أو المتأثرين بهم والذين يريدون من المجتمع أن يتبنى ثقافة قادمة من سياق تاريخ وماضٍ وليس من سياق حاضر ومستقبل، فيصير كل من يُخالفها دخيلًا على المجتمع وغريبًا عن الإسلام بأكمله. إن الإيمان بقدرة إنسان اليوم على تعطيل قوانين الطبيعة عن العمل والإتيان بالخوارق والمعجزات يُعدّ من العقبات التي تواجه الشخصية العربية، فسلطان الماضي لا يزال يفرض نفسه على الحاقد الذي اصطنع سطوة للموتى على

الأحياء، فالإعجاب بالماضي يتعدى درجة الإعجاب إلى درجة التقديس الذي وضع ستائر كثيفة وحاجبة للأعين على التراث ليسد عنها ما جاءت به المعرفة الحديثة.

في حديثه عن الشخصية العربية، يقول (توما خوري) إن أساليبنا التربوية والتعليمية تتّصف بصفتين رئيستين هما الإقلال من الإقناع والمكافأة. الزيادة في العقاب الجسدي، والتركيز على التلقين الذي يعمل على تعزيز السلطة واستبعاد التساؤل وتعطيل طاقة الإبداع يعمل على تكوين أنماط جامدة من التعامل والحوار(٧٤). لكل إنسان رواسب انطباعات انفعالية يتوارثها الناس عن آبائهم ولها أثر في توجيه حياتهم، كتقديس الرقم سبعة المحفور في اللاشعور الجمعي، يمكن للوراثة أن تتجسد في وراثة صفات خُلقية مثل الذكاء والغرائز والمزاج والذاكرة والتخيل والعبقرية، بل والفن أحيانًا بحسب بعض الدراسات، أما البيئة فهي مشكل أساسي لشخصية الفرد.

حتى الطبيعة الجغرافية قد تلعب دورًا في صقل أخلاق الناس الذين يعيشون فيها، فتشكل عند الإنسان خوفًا من الظلمة والأفاعي، ربما لأن الإنسان البدائي قابل كثيرًا من الأخطاء في الظلام وكان ضحية الأفاعي السامة. اللاشعور الجمعي هو الأساس العنصري الموروث للبناء الكلي للشخصية، وعليه يبني الأنا واللاشعور الشخصي وجميع المكتسبات الفردية الأخرى، وما يتعلمه يتأثر تأثرًا جوهريًّا بهذا اللاشعور الذي يمارس تأثيرًا إرشاديًّا على سلوك الشخص منذ بداية حياته، وقد يُحدث اضطرابًا في العمليات الشعورية المنطقية وذلك بالسيطرة عليها وتحويلها إلى أشكال مختلفة تخلق الأعراض والهواجس المرضية.

مضطرب نفسيًّا

ما الذي يسبب الاضطرابات النفسية؟ جواب هذا السؤال يجعلنا نستحضر قصة العميان الستة الذين يلمس كل منهم جزءًا مختلفًا من الفيل فيستقر في مخيلة كل واحد منهم أن الفيل ما تلمّسه يده، من لمس الخرطوم ظن الفيل كالثعبان، ومن لمس الناب ظنه كالخنجر،

ومن لمس الأذنين ظنه كالمروحة، ومن لمس الذيل ظنه كالحبل، ومن لمس الرِّجل ظنه كالشجرة، ومن لمس الجسم ظنه كالحائط، صدق كل واحد في وصفه لكنه لم يمثل الملموس سوى جزء ناقص من الحقيقة.

يقول (راندولف إم نيس)، عالم النفس وأحد مؤسسي علم النفس التطوري، في كتاب (أسباب وجيهة للمشاعر السيئة) إن المناهج التي حاولت فهم الاضطرابات النفسية ركزت على نوع واحد من المسببات، فالطبيب يبحث عن العوامل الوراثية والأمراض الدماغية ويميل إلى استخدام العقاقير والتدخلات الجراحية، والمعالج النفسي يُلقي باللوم على مرحلة الطفولة المبكرة والصراعات العقلية ويوصي باستخدام العلاج النفسي، والممارسون السريريون يركزون على التعلم فيميلون إلى استخدام العلاج السلوكي، ومن يركز على التفكير المشوه يوصي بالعلاج المعرفي، والمعالج المتدين يوصي بالتأمل والصلاة، ومن يؤمن بأن مصدر المشكلة الخلافات الأسرية يوصي بالعلاج الأسري. قد يكون التطرّف شيئًا من بعض ما ذكر أعلاه، لذلك فمن الأفضل اعتماد نموذجًا بيولوجيًا -نفسيًا- اجتماعيًا، وإلا سيواصل التطرّف الإرهابي سباحته في الواقع الفوضوي لعالم الاضطرابات النفسية(٧٥).

كانت الطفلة الأمريكية (مارثا) تعيش فترة طفولة عادية جدًا، صحيح أنها لم تكن تبني صداقاتها بسهولة، إلّا أنها كانت مُتأقلمة مع صديقاتها ومحيطها، وعندما دخلت المرحلة الثانوية أخذت تُمشط شعرها بطريقة بسيطة وترتدي ثيابًا تجعلها تبدو في الخمسين من عمرها، لم تكن تضع مِكياجًا ولا حُليًا، ثم بدأ تحصيلها الدراسي بالتردي شيئًا فشيئًا، وأصبحت تقضي ساعات طويلة في قراءة الإنجيل وتوجيه النصائح الأخلاقية إلى الفتيات اللواتي كنّا يقهقهن عند سماع كلامها.

بدأت (مارثا) بممارسة الصوم والأعمال التطوعية الدينية، وكانت تتنقل بين سبع كنائس دون الاكتفاء بكنيسة ثابتة في كل يوم أحد، غطّت غرفتها بصور المسيح والصلبان والاقتباسات الدينية، ثم أخبرت والديها بأنها تريد اعتناق أحد المذاهب الدينية والترحال

عبر الولاية -في حالة من العوز والفقر- لحمل رسالة المسيح إلى الناس، أفزع ذلك والدها فأخذها إلى طبيب نفسي، حُجزت في المستشفى ثم شُخصت بالفِصام وجنون العظمة(٧٦).

هذه الحالة المرضية نقلها الدكتور (تيموثي ترول) في كتابه (علم النفس السريري)، وهي ظاهرة أشد استفحالًا في مجتمعنا الذي سمح -في يوم من الأيام- باعتلاء أمثال (مارثا) سُدة المنابر والمواعظ. إن كنت تقرأ هذا الكلام وقد جاوز عمرك الثلاثين عامًا فإنك على الأرجح تستذكر حالة شخص حولك انقلب حاله رأسًا على عقب بسبب إصابته بالهوس الديني الذي كانت له دوافعه وأسبابه الخصبة في منطقتنا. إن التحولات والصراعات التي حدثت في منطقة الشرق الأوسط في العقود السابقة كانت كارثية، بدءًا من القضية الفلسطينية ومرورًا بأحداث أفغانستان ولبنان والكويت وما صاحب كل ذلك من حروب كونية تخللها صعود المُتحدثين الحصريين باسم الله والذين أرادوا تسيّد الموقف الجماهيري، وكأنّ الناس كانوا يعيشون في جاهلية متطرّفة وإباحية سافرة حتى بعث الله إلينا جماعة «المُنقذون من الضلال».

يتحدث علماء النفس عن عدة أسباب للاضطرابات النفسية، منها البيولوجية التي تحصل بسبب إفراط في نشاط الدوبامين في الجهاز العصبي ما قد يؤدي إلى إصابة الشخص بالفصام لو كان هناك تاريخ جيني لأسلافه مع هذا المرض، وتضطرب أحواله. وأحيانًا يُصاب الإنسان بالاضطراب النفسي عبر تعلم سلوك غير سوي، بنفس الطريقة التي يتمّ بها تعلم السلوك السوي، هذا التعلم يحصل في المنزل والمدرسة والحيّ المجاور والحي البعيد، وقد يكتسب الإنسان عادة النظر بسلبية مفرطة إلى الذات والعالم والمستقبل، وقد يُصاب بالقلق الدائم بسبب اعتماده الزائد على تقديرات الآخرين مع إهمال الشخص نظرته لذاته.

هذا المزيج قد يساهم في تشجيع من يفكر في أن ينطلق إلى عالم التطرّف الذي لا يستلزم حمل رشاش أو حزام ناسف في سوق شعبية، فهذه صورة كلاسيكية لتعريف الإرهابي المتطرّف. هناك الكثير من المتطرّفين غير الإرهابيين في عالمنا، فالإنسان قد يسقط في

التطرّف المعرفي عندما ينغلق على فكرة معينة لا يقبل النقاش فيها أبدًا ويعدّها خطًا أحمر يؤدي إلى تهميش الآراء الأخرى وعدم السماح لها بالاقتراب من وعي هذا الشخص، وقد يسقط في التطرّف الوجداني عندما يندفع في اتجاه فكرة معينة دون تبصر ودون تقدير عواقب هذا الاندفاع، وأحيانًا يظل يشحن نفسه بشحنات وجدانية هائلة تهدده بالانفجار في أية لحظة، والإنسان قد يسقط في التطرّف السلوكي عندما يغالي في عمل ما يخرج عن الحدود المعقولة وبلا هدف أو فائدة، وقد يلجأ الشخص فيها إلى العدوان على الآخرين ليرغمهم على الإذعان له وتنفيذ ما يريد.

كيف تتشكل شخصية المتطرّف؟

اعتبر البعضُ الإرهابيين قتلة في حالة هياج، إلا أن هذا الهياج ليس تعبيرًا عن الغضب والجنون فحسب، إنه غضب مبرمج ومقصود بحسب المنظر الأمريكي (مايكل والزر)، الانتحاري ليس هو نفسه المنتحر الذي يثير مشاعر الشفقة والحزن وتغيب عنده نوايا قتل الآخرين، فهو يقوم بقتل آخرين ليس لهم معرفة مسبقة به، فالانتحار هنا نتاج ثانوي للهجوم.

النسب المئوية لدعم الهجمات الانتحارية تبلغ أعلاها في المناطق التي فيها متعاطفون محتملون، إن نشر ثقافة «الاستشهاد» بالطريقة «الداعشية» سيضاعف من وتيرة التطرّف والتعبئة والاستقطاب في تلك المناطق، ما لم تكن هناك وسائل مضادة تقلل من حدتها وهيجانها وتجفف منابعها قبل تمكنها من الاستفادة من صفات بعض الأفراد الشخصية.

تحدّثَت كثيرٌ من النظريات عن أسباب العنف -المشكّلة لشخصية المتطرّف- لعل أبرزها النظرية الماركسية التي ترى العنف نتيجة حتمية للصراع الطبقي بين الناس والذي يُعدّ المحُرك الأساسي لعجلة التاريخ، فهناك طبقتان لا ثالث لهما، طبقة مُستغِلّة وطبقة مُستغَلّة يدور بينهما صراع فردي أو جماعي. يرى المفكر الفرنسي (روني جيرار) أن الرغبة هي سبب العنف، فالرغبات هي التي تُوجّه سلوك الناس، وعندما تكون تلك السلوكيات متشابهة

أو موحدة يظهر التدافع والتنافس بين الناس والذي قد يتحول إلى حرب مفتوحة، وقد لا يتوقف هذا العنف إلى الأبد ربما بسبب ظهور سيكولوجية الانتقام الجماعي المؤجل من الخصم، إن نظرنا إلى عالم الحيوانات فإننا سنرى الصراع يخمد بينها بمجرد الغلبة وخضوع الأضعف للأقوى، بينما يمتلك الإنسان ذاكرة تخزينية حديدية.

معظم النظريات والاتجاهات التي حاولت تفسير الشخصية نظرت إليها كمكوّن افتراضي يُستدل عليه من السلوك الصادر من الفرد نفسه، لا يتفق العلماء على تعريف واحد للشخصية، لذلك وصل عدد تعريفاتهم لها إلى أكثر من خمسين تعريفًا، لعل أجمعها هو تعريفها بأنها أساليب ثابتة -نسبيًا- للسلوك تميز الأفراد بعضهم عن بعض، وتشمل تفاعلات بين الأنماط السلوكية والتغيرات الداخلية والمثيرات الخارجية.

تتأثر الشخصية بتغير العادات والخبرات السابقة وأنماط التفكير، فالشخصية تنمو وتتشكل من تفاعل الفرد مع بيئته الخارجية تحت مظلة العوامل الوراثية والنفسية والاجتماعية والسياسية، تمامًا كما هو وزن الإنسان الذي يمكن أن يتطرّف ويصبح ثقيلًا بسبب اجتماع الجينات مع العادات المُكتسبة من البيئة المحيطة. يتكون النمط الوراثي للإنسان بمجرد تكونه في الرحم والذي قد يكون مرتبطًا بتشوهات دماغية عند الولادة تؤثر على الشخصية والتي تتشكل صفاتها بناء على التفاعل بين العوامل الوراثية والبيئية.

عادة ما تتطور شخصية الإنسان الطبيعي في اتجاه أهدافها، فمتى حققتها عاش حاملها حياة طبيعية دون أقنعة مزيفة، لكن إذا ما أُعيق طريق الوصول إلى الهدف، فإن ذلك سيبدأ في تفجير صراع في داخل هذا الإنسان. يحمل الإرهابي شخصية غير سوية عاجزة عن التأقلم والتعامل مع التغيرات المحيطة به، وتتسم بالعدوانية والتسلط والدموية والاندفاع والقسوة دون اعتبار لسلامة الناس.

الإرهاب والجريمة

«..هل سبق لكما ودرستما فلسفة الجريمة؟.. فدراسة الجنون ليست سوى دراسة لفلسفة الجريمة.. المجرم يعمل دائمًا في جريمة واحدة، ذلك هو المجرم الحقيقي الذي يبدو أنه مقدر له سلفًا أن يرتكب جريمة محددة ولن يفكر في جريمة أخرى... الكونت دراكولا ليس لديه عقل امرئ ناضج، إنه ذكي ومحتال وداهية ولكنه لم يبلغ مرحلة النضوج العقلي، إنه ذو عقل طفولي في الغالب... ولا يفعل فعلته سوى الأطفال، فصغار الطير والسمك والحيوانات لا تتعلم نظريًا بل تجريبيًا... وفعل ذلك مرة واحدة هو نقطة الارتكاز التي يصير فيها العقل الطفولي عقلًا ناضجًا... إن الكونت دراكولا مجرم وينتمي إلى نمط إجرامي، وسوف يصنفه (نورداو) و(لومبروزو) وفق ذلك التصنيف، وكمجرم فهو ذو عقل غير مكتمل النشوء، بناء على ذلك هو مضطر إذا ما واجه عائقًا أن يسعى للحصول على ملاذ باللجوء إلى سلوك عادة ألفها، وماضيه دليل على ذلك...» من رواية (دراكولا) لـ(برام ستوكر)(٧٧).

في حين تُعد دراسة سلوكيات الإرهابيين حديثة نسبيًا، دراسة الإجرام وسلوكياته قديمة وثرية، ويمكننا أن نستفيد بما قدمته في محاولة فهم السلوك الإرهابي، ففي النهاية، الإرهاب يظل فرعًا من فروع الجريمة، حتى لو كان فرعًا أشد خصوصية وخطرًا من فروعها المتعددة.

يقول علماء الجريمة إن السلوك الإنساني مرّ بمراحل تفسيرية مختلفة تتّصل بشكل وثيق بثقافة المجتمع، انتقل فيها الناس من التفسيرات الغيبية إلى التفسيرات الفلسفية، ثم إلى التفسيرات العلمية، وهي كلها تفسيرات لا يزال لها وجود في مجتمعات ما بعد الحداثة. بما أنه يصعب التنبؤ بالسلوك الإنساني فإنه يصعب كذلك وضع سياسات اجتماعية عامة بسبب تنوع الظروف والثقافات والمتغيرات، سترى الكثير من النظريات الاجتماعية والنفسية تتعايش مع بعضها دون أن تسيطر إحداها على الأخرى، فمن الصعب إيجاد نظرية واحدة تستطيع تفسير السلوك الإنساني المعقّد، والذي يمثل التطرّف أحد أشكاله القبيحة والإجرامية.

من هو المجرم؟ يُعرّف عالم القانون والجريمة (بول تابان) المجرم بأنه الشخص القادر قانونيًا على ارتكاب فعل يتعدّى به على القانون مع إثبات ذلك القصد أو النية والفعل، ولا يُنعت بالمجرم إلا في محكمة، ويرى آخرون أن المجنيّ عليه ليس طرفًا سلبيًا في العملية وقد يكون هو من شكّل ذلك المجرم باستفزازه بكلمة أو فعل، وقد وجد الباحثون أن ربع جرائم القتل كان سببها تهوّر المجني عليه واستفزازه للجاني، وهنا يأتي دور المجتمع في تقويم ردود الأفعال في إطار القانون وإلا انقلبت الحضارة غابة يسري فيها قانون البقاء للأشرس، فماذا يقول المختصون في علم الجريمة؟(٧٨).

النظرية البيولوجية: هل يولد المجرم مجرمًا؟

قدّم بعض علماء الجريمة تفسيرًا بيولوجيًا بحتًا للجريمة، والذي افترض وجود سمات جسدية تجمع المجرمين من خلال صفات شاذة أقرب إلى الإنسان البدائي منها إلى الإنسان العاقل، ترى المدرسة الوضعية الإيطالية أنه من الممكن إيجاد سمات بيولوجية -موروثة- مشتركة للمجرمين، قام أحد رواد هذه المدرسة في القرن التاسع عشر، الطبيب الإيطالي (سيزار لومبروزو)، بالعديد من الأبحاث التي تقترح وجود علاقة بين الصفات الجسدية والعقلية والجريمة منذ الولادة، فالمجرم عنده مرتدّ في سلم التطور وهو أقرب إلى التوحش والبدائية منه إلى الحضارة.

فحص لومبروزو ٣٨٣ جمجمة لمجرمين متوفين و٦٠٠٠ جمجمة لمجرمين أحياء، وضع لهم صفات تشريحية مشتركة كانحدار الجبهة وكبر حجم الأنف والشعر الخفيف الأجعد وبروز عظم الخد والتشابه الكبير بين ذكورهم وإناثهم. ثم جاء الأنثروبولوجي الأمريكي (إرنست هوتون) وقسّم الجرائم على حسب الشكل، فالنحيفون الطوال يميلون إلى ارتكاب القتل والسرقة المسلحة، صغار الحجم يميلون إلى ارتكاب السرقة والسطو، القصار السمان يغلب عليهم ارتكاب جرائم الاعتداء الجسدي والجنسي.

لكن النظرية البيولوجية انتُقدت كثيرًا لعدم استنادها إلى نظريات عملية في تفسير الجريمة وعدم وجود منهج علمي واضح من حيث وجود جماعات ضابطة وأخرى تجريبية للمقارنة بينهما، ومما ينقض النظرية البيولوجية أن من ٧٠ إلى ٨٠٪ من سلوكياتنا متعلّمة والمتبقية قد تكون موروثة، كذلك هناك عوامل ثقافية واجتماعية واقتصادية لا يمكن التغاضي عنها عند تفسير ظاهرة العنف، لا يمكن تصنيف المجرمين بناء على سماتهم الجسدية مثل شكل جماجمهم أو حجم أنوفهم، هذا أمر قد بتّ فيه الواقع، فكم من مجرم وسيم أُدين بجرائم قتل متسلسلة مثل الأمريكي (تيد بندي). علينا أن ننتبه إلى أن التقسيم البيولوجي يحمل بذرة عنصرية يتم التعامل فيها مع الناس على أساس نسبة جمالهم وليس أقوالهم وأفعالهم.

كذلك نستطيع اعتبار ما قاله أصحاب النظرية الفسيولوجية بعيدًا عن الصحة، فهم يرون العدوان ناتجًا من ردود أفعالنا العضوية فقط، وجعلوا الجينات وحدها مسؤولة عن السلوكيات الاجتماعية، فالعصبية عندهم منشؤها نشاط الدماغ الذي يولّد ردود أفعال عاطفية، فالمجرم بهذا الاعتبار تُسيره عمليات الكيمياء الحيوية في دماغه بدون أن يكون للعوامل الأخرى وجود فاعل.

النظرية المعرفية: أنماط التكيف

وضع عالمي النفس (جلين والترز) و(توماس وايت) النظرية المعرفية التي تقترح أن علم الجريمة قد أهمل الجانب المعرفي والإدراكي في الشخص، وأن العوامل الاجتماعية والبيئية لا تحدد السلوك الاجتماعي ولكنها تحدّ منه. حدد أنصار النظرية المعرفية خمسة أنماط تكيفية موجودة في المجتمع:

1. الملتزمون: يشكلون السواد الأعظم من المجتمع، فئة ملتزمة بأهداف المجتمع الثقافية والوسائل المشروعة لتحقيق تلك الأهداف.

2. المخترعون: ميكافيلليون، الغاية عندهم تبرر الوسيلة، وقد يلجؤون إلى اختراع وسائل غير مشروعة لبلوغ أهدافهم لأنهم يعتقدون أن البناء الاجتماعي لا يوفر لهم فرصًا مشروعة.
3. الطقوسيون: يحترمون القوانين المجتمعية لكن لا تهمهم الأهداف ولا محاولات السعي إلى تحقيقها.
4. الانسحابيون: يرفضون الأهداف الثقافية والوسائل المشروعة لكنهم غير طموحين ويختارون الانسحاب من المجتمع واللجوء إلى التسول والكحول والمخدرات.
5. الثائرون: يرفضون الأهداف الثقافية والوسائل المشروعة ولديهم أجندتهم الخاصة من أهداف وقيم اجتماعية، وخير أمثلة عليهم الجماعات الثورية اليمينية واليسارية التي تحاول تغيير الأنظمة السياسية في مجتمعها بالقوة والإيديولوجية والعنف والابتزاز.

نظرية ترابط الاختلاف: تعليم الجريمة

عند عالم الجريمة الأمريكي (إدوين سذرلاند)، الجريمة سلوك متعلم من خلال عمليات التواصل والتفاعل مع الآخرين، وقد تحدث نتيجة العلاقات الحميمة مع الآخرين والتي يتفرع منها تعلم طرق ارتكاب الجريمة ودوافعها ونزعاتها وتبريراتها واتجاهاتها، يصبح الفرد منحرفًا إذا ما اعتنق التعريفات التي لا تحترم القوانين، ويتنوع ترابط الاختلاف تبعًا لعمليات التكرار والمدة والأولوية وكثافة الاتصال، قسم أنصار هذه النظرية المنحرفين إلى عدة أقسام:

1. مرضى: غير أسوياء يمثلهم القاتل العشوائي.
2. نادمون: من تم وصمهم بالفعل المنحرف ومن ثم امتثلوا لثقافة المجتمع كمدمني الكحول والقمار والمخدرات، هؤلاء قد ينضمون إلى جمعيات علاجية ويقدمون الاعتذار إلى أسرهم وأصدقائهم عن سلوكياتهم المنحرفة.

3. ساخرون: يعلمون جيدًا أن ما يفعلونه يُعدّ سلوكًا منحرفًا، إلا أنهم لا يبدون ندمًا ولا محاولة عودة عن هذه السلوكيات، هؤلاء قد يُشكلون خطرًا على النظام الاجتماعي لعدم احترامهم القواعد والقوانين.
4. أعداء: لا يعتقدون أن سلوكياتهم خاطئة ويدعون غيرهم إلى فعل ما يفعلونه، يندرج تحت هذا القسم كثير من المتطرّفين.

النظريات النفسية والاجتماعية

يقول (ألفريد أدلر) إن شخصية الإنسان مكتسبة وليست فطرية أو موروثة، وتُجرى بلورتها من خلال صراع الإنسان مع محيطه، أما مدرسة التحليل النفسي فترى أن الإرهاب هو صراع بين «الهو» و«الأنا»، إن نجحت الأنا اتزن سلوك الإنسان وتكيف مع بيئته، وإن فشلت انحرف السلوك وانفجرت صراعات اللاشعور المكبوتة منذ فترة الطفولة ليولد إجرامًا من خلال غريزة الموت، بينما تقود غريزة الحياة الإنسان إلى الإيجابية والتكيف.

يرى عالم النفس الشهير (كارل روجرز) أن المُعوقات قد تجعل الفرد يشعر بالاضطراب النفسي، والتي تدفعه إلى الاختفاء وراء الأقنعة مع محاولته تحقيق توقعات وتطلعات الآخرين التي قد تتعارض مع أمنياته، فيصير عاجزًا عن بلوغ المستويات والمعايير الاجتماعية المطلوبة من مجتمعه، وينفجر عنده شعور مضطرب يحوم بين الحقيقة والزيف. بينما يرى (سكينر) أن متابعة سلوكيات الشخصية يمكن التنبؤ بها بل والتحكم فيها عن طريق استخدام مبدأ التعزيز.

نستطيع تلخيص كلام مدارس علم النفس بقولنا إن أصحاب النظرية المعرفية يرون أن المجرم يحمل في عقله نمطًا غير منطقي ينعكس على سلوكه ويدافع به عن ذاته، أما أصحاب النظرية السلوكية فيرون الجريمة سلوكًا مكتسبًا مما يشاهده في محيطه، لذلك يركز (سكينر) على عامل التقليد الذي له دور مهم في تعلم السلوك

العدواني من خلال ما يشاهده الفرد في وسائل الإعلام. ويرى أنصار نظرية الضبط الذاتي أن العنف مردّه ضعف القدرة على ممارسة الضبط الذاتي بسبب غياب القوى الاجتماعية والتربوية التي تعلم الفرد الالتزام بالمعايير الاجتماعية والأخلاقية، فينشأ الإرهابي وهو لا يقيم لهذه المعايير وزنًا ولا يكترث بما يصيب الآخرين من أذى. ينبغي ألّا نغفل دور النظريات الاجتماعية -التي تولي احترامًا للقيم الاجتماعية- في تشكيل شخصية المجرم، فالانحراف قد يتناسب عكسيًا مع العلاقات الاجتماعية كما يقول (إميل دوركايم)، فتماسك المجتمع يدلّ على درجة أخلاقه بشكل لا يُستهان به.

كما نرى فإن نظريات علم الجريمة تتقاطع في كثير من جوانبها مع المتطرّفين الذين ارتكبوا جرائم أو عقدوا النية على القيام بها، لذلك يجب علينا اجتثاث أسباب العنف عن طريق الاستثمار في العوامل الاجتماعية المحيطة بالأفراد الذين يملكون ميولًا ثقافية لارتكاب العنف، فمنع تشكل عناصر جريمة خير من القضاء عليها عند ظهورها.

من أجل كسر روتين النظريات التي لم تستطع تقديم رؤية موحدة حول سمات المجرم الإرهابي، قام العالمان (صموئيل يوكلسون) و(ستانتونسيمناو) بتقديم نظرية تجريبية تعضد الجانب النظري، فقاما على مدى ١٦ عامًا بتحليل شخصية ٢٤٠ مجرمًا، فوجدا عندهم ٥٢ نوعًا من أخطاء التفكير ظهرت مبكرًا في حياتهم مما يرجح الطبيعة الوراثية والفطرية للجريمة، أو قد يعني أن اكتساب تلك الصفات يزيد من احتمال لجوء صاحبها إلى الجريمة. من هذه الأخطاء:

1. وجود خوف مبالغ فيه من أمور بسيطة مثل المرتفعات والأماكن المغلقة والفزع من نظرة الاحتقار من الناس.
2. وجود غضب حاد ومستمر، والذي قد يظهر على شكل عدوان ضد المجتمع.
3. تنامي الشعور بالنقص، مما يولّد مشاعر الحقد واليأس والغضب.
4. التفاخر بالجريمة وربطها بالرجولة.

5. المبالغة في التفاؤل مع كبت كل ما من شأنه أن يوحي بالخوف والفشل بغض النظر عن الضرر الذي قد يلحق بالآخرين.

لعل أفضل من تعرض لخصائص شخصية الإرهابي هو الباحث الإسباني في علم النفس والإرهاب (لويس إيبانييس)، وكأنه قد عاش بينهم في كهوف (تورا بورا) خلال القصف الأمريكي لمعاقل تنظيم القاعدة(٧٩). يميل عضو الجماعة المتطرفة إلى نزع الشخصنة، فهو يعدّ نفسه عضوًا قابلًا للاستبدال في المجموعة في أي وقت، فالأولوية هي لمصالح الجماعة واحتياجاتها، يهتم المتطرّف بالتماسك الاجتماعي الذي يحتم تقاسم نفس الهوية وتعزيز العلاقات الإيجابية للتماسك داخل الجماعة، وقد أظهرت الأبحاث أن التماسك المفرط للمجموعة يؤدي بالجماعة إلى اتخاذ قرارات أكثر تطرّفًا من المواقف الأولية المعتدلة للأعضاء. أيضًا كلما ازدادت حدة الانتماء إلى المجموعة زاد تأثير المجموعة واشتدت طاعة القائد، وتحفز المرجعية المجتمعية الإرهابي على تطوير قوالب سلبية متحاملة على المجموعات الأخرى في المجتمع، وينقسم العالم إلى «نحن» و«هم»، وتتعزز المشاعر السلبية كالكراهية والاستياء، والتي هي أحد أهم مصادر إلهام المتطرّفين.

تنويم المتطرّف

نظن أن التكنولوجيا المتقدمة التي أمدتنا بأجهزة إنذار متناهية الدقة سوف تحمينا من الأخطار التي تهدد وجودنا، لكن علماء النفس يقولون إن أفضل مصدر لحماية أنفسنا هو فطرتنا وحدسنا تجاه الأخطار التي تحدق بنا، فالخطر الإرهابي خير دليل على إمكانية التملص من التكنولوجيا باستخدام التكنولوجيا. المراهقون في عصر الإنترنت هم أكثر عرضة للتوتر والقلق والاكتئاب، فتعاستهم هي شكل من أشكال الخلل الاجتماعي، العالم الافتراضي قد يشجع على أعمال العنف والفساد الخلقي عن طريق تشجيع المحاكاة، والمجتمع الخاضع للترفيه الرقمي يقدم إلى قاطنيه فرصة

تجربة الملذات الوحشية بصورة أكبر من العالم الحقيقي، لذلك ترى المتخفّين خلف شاشاته يتقاتلون ويتلاعنون ويتوعدون من ورائها، لكنهم على اليابسة يتحولون إلى كائنات لطيفة وخجولة.

الإنسان المتطرّف كان زميلًا لكثير منا في طاولة الدراسة، يتأفف من دروس النحو وينام في حصة الرياضيات، يلعب معنا في فريق كرة القدم بعد صلاة العصر، يعشق ألعاب الفيديو، يشاهد المصارعة الحرة في الخفاء ليحدث عنها زملاءه الذين لم يسمح لهم أهاليهم بالسهر إلى منتصف الليل، يشجع منتخب ألمانيا في تصفيات كأس العالم، فما الذي قلب اهتماماته من هوايات شبابية بريئة إلى اهتمامات إمبريالية عالمية؟

في مقابلة تلفزيونية مع القاتل والمغتصب المتسلسل (تيد بندي)، وقبيل إعدامه بالكرسي الكهربائي في عام ١٩٨٩، فتح المجرم قلبه للمشاهدين والمستمعين، قال: «كنت في الأساس شخصًا عاديًّا، وكان لدي أصدقاء رائعون، وقد عشت حياة طبيعية باستثناء جزء واحد صغير منها، ولكنه كان قويًّا ومدمرًا جدًّا، وقد احتفظت به سرًّا متغلغلًا في نفسي... الأعمال الإباحية كانت حلقة ضرورية لا غنى عنها في سلسلة السلوك، مثل الإدمان الذي يجعلك تتوق إلى تعاطي شيئًا أقوى حتى تصل إلى النقطة التي لا تستطيع أن تمضي إلى أبعد منها». الاعتلال الاجتماعي الذي أصاب بندي كان جزءًا من هيجان إباحي في فترة الثمانينيات -التي ازدهرت فيها صناعة الأفلام الإباحية- والتي رافقها ارتفاع في معدلات الاغتصاب والاعتداء الجنسي كما ينقل (روس داوثت)، أما اليوم فالاعتلال الاجتماعي قد يكون نتيجة وسيلة لطيفة من وسائل التواصل الافتراضي اقتنصت مواطن النقص في بعض الأفراد ودفعت بهم إلى سواحل التطرّف بدون أن يشعر بهم أحد(٨٠).

ينتقد الكاتب الأمني (جافين دي بيكر) فكرة وجود عقلية إجرامية تميز بعض الناس عن بقية البشر، فمعظم الناس يقولون إنهم لا يستطيعون قتل غيرهم، لكنهم

يستثنون هذه الجملة بقولهم: «ما لم نكن مضطرين إلى حماية ما نحب»(٨١)، فذلك يستلزم منطقيًّا أننا جميعًا قادرون على التفكير في الأفعال الإجرامية بل والقيام بها، فإذا استطاع إنسان معين فعل شيء معين في ظروف معينة، فإن كل البشر يستطيعون فعل ذلك الشيء إذا ما تعرضوا لنفس تلك الظروف.

كثير من الناس اقتربوا من حفرة التطرّف الاعتقادي، منهم من استيقظ من غفوة التنويم وهو على شفا تلك الحفرة، ومنهم من سقط في القاع ليلتحق بنسخ مكررة منه تتلقى تعاليمها من كهنة الكراهية الذين يستخدمون أحدث أساليب الفقه اللاهب للحديث عن رائحة مسك تفوح من شهداء تعلوهم بسمة مطمئنة بعد مقتلهم على مشارف قندهار، وهناك رسائل لقادة المقاتلين تروي بطولات فانتازية عن كِنى مجهولة ادّعت دحر الشيوعية بسبب وقوف الملائكة إلى جانبهم في ليالي كابول المشتعلة، كل تلك الصور كانت مطعمة بحشد كبير من الأدلّة تم تأصيلها وتصفيفها عن طريق متشددين يرقعون الحكايات عن طريق ربطها بروايات أكثر غرابة من كتب التاريخ.

لهؤلاء المتطرّفين -أو من يقبعون في مرحلة ما قبل التطرّف- صفات مشتركة يعرفها من اقترب من دائرتهم سواء في مدرسة أو جامعة أو منزل عائلة، فلو أسقطنا عناصر العنف المذكورة في كتب علم النفس عليهم لوجدناها لا تختلف عن عناصر العنف المتوفرة في المجرمين غير الإرهابيين في الولايات المتحدة سوى في دوافع الجريمة، فجميعهم يحملون نفس العناصر النفسية الأربعة:

1. التبرير: هنا يقرر المتطرّف أنه تعرض للإساءة المتعمدة، فيبرّر عنفه عن طريق جعل كل أحداث العالم تدور حول الإساءة إلى كرامته الشخصية التي هي مقدم جبهة الأمة الإسلامية التي يتخيل أنها خوّلته بأن يأخذ بثأرها ممّن ظلمها، فالمؤمن الجبار لا يقبل أن يدوس على طرف ثوبه الفُجّار الذين لا يلحقهم إلا الذل في الدنيا والعذاب في الآخرة.

2. البدائل: هنا يبدو العنف له الطريق الوحيد للقصاص والعدالة، فالمتطرف لا يعترف بالحوار ولا بالأعراف ولا بالقانون كطريقة لاسترداد الحقوق، فجميع حقوقه -التي ضمنتها حقوق مسلمي العالم الذين يتحدث باسمهم- سوف يأخذها عنوة لأنه هو القوي والأعلى والأفضل والقائم والقادر والمستغني الذي انطبقت عليه شروط خلافة التمكين في الأرض رغم أنف الجميع.
3. التبعات: هنا يقرّر المتطرّف أنه على استعداد لتحمل تبعات سلوكه، فهو مستعد نفسيًّا أن يتحمل تبعات تفجير نفسه وقتل غيره وتترّسه بأطفال المسلمين وسبي نساء غير المسلمين من أجل أن يعود إلى عصور سابقة من أجل أن يحقق هدفه المتلخّص في إرسال الناس إلى النار باستخدام النار.
4. القدرة: هنا يثق المتطرّف بأنه قادر على استخدام سلاحه لتحقيق أهدافه، فهو يتوهم أنه مدعوم بأعين خالق العالم ومُرسل الأنبياء ومُكرم الصحابة وولي الأولياء وربّ ملائكة غزوة بدر، فلذلك عليك أن تستغرب ممن يستغرب من إقدام وشجاعة المتطرّف في ساحات الجهاد -التي هي عمليًا جميع أراضي اليابسة على وجه الأرض - فهو يستمد تلك القدرة من معتقد مضطرب يشعّ إيمانًا أحمر، لكنه يخفي جانبًا جبانًا كان يحاول إخفاءه عن غيره طوال تلك السنين.

التخلف والإنسان المقهور

التخلف النفسي أو الذاتي هو موقف وجودي من العالم المحيط بما يحمل من معايير وخرافات، والتي من خلالها يصقل الإنسان نظرته لنفسه وموقعه والهدف من حياته وكيفية الوصول إليه، وقد يخلق هذا القلق الوجودي آلامًا معنوية تزعزع التوازن النفسي، والتي يصاحبها بروز آليات دفاعية ضدّ هذه الآلام، وقد يفني الإنسان نفسه في عالمين مختلفين بسبب هذا الصراع، العالم الأول: هو عالم الضرورة الطبيعي، فيه تتهدد صحة الفرد وسلامته عن طريق تلبيته لخدمة رغبات الآخرين وإهمال رغبات واحتياجات الفرد الشخصية. هذا العالم قد يتلاشى في ظل التقدم التقني،

لكن الإنسان قد يظل عاجزًا فيه عن بلوغ قيمة ذاته. العالم الثاني هو عالم القهر التسلطي الذي تُهيمن عليه قلة من الأفراد -بالتحالف مع قوى خارجية- تتبع سياسة السيد والتابع وتمارس فيه أنواعًا من العنف المادي والمعنوي. دراسة المنظور النفسي للتخلف تجري بعدة طرق كما يذكر عالم النفس الاجتماعي اللبناني (مصطفى حجازي) في كتابه (سيكولوجية الإنسان المقهور):

- الطريقة الأولى: الطريقة السطحية، وهي التي تقرؤها في بيانات الأمم المتحدة وتشمل بيانات الفقر والتغذية والصحة والتعليم ومتوسط دخل الفرد، هذه البيانات لا تساعد على حلّ مشكلة التخلف إلّا بشكل سطحي وطفيف.
- الطريقة الثانية: الطريقة الاقتصادية، وهي طريقة تركّز على وسائل الإنتاج والمنطلقات التقنية والصناعية في البلد المتخلف، ثم تتّجه نحو الاهتمام ببُنى الاقتصاد بمزيد من العمق والشمول.
- الطريقة الثالثة: الطريقة الاجتماعية، التضخم السكاني في الدول المتخلفة لا يتناسب مع الموارد الاقتصادية للبلد مما يخلق أزمات اجتماعية واقتصادية تقود إلى الكارثة مع تفاقم البطالة وقلة الاعتماد على الكفاءة(٨٢).

القهر والإرهاب

تحدّث (مصطفى حجازي) عن جوانب جوهرية في شخصية الفرد المقهور الذي يشكل -بصورة أو بأخرى- البيئة الأولية التي يتفرع منها الفرد العنيف والفرد الإرهابي. يواجه إنسان العالم الثالث نمطًا من التسلط يُفقده الشعور بالأمن والسيطرة على مصيره مما يزيد من معدلات قلقه، يفاقم هذا الوضع غير الصحي وجود علاقة تسلطية بين الأب والابن، بين المعلم والتلميذ، بين الإنسان والحيوان والجماد، كل فرد يلعب دور المتسلط -بدرجة معينة- على

من هُم أدنى منه. ينتظم واقع الإنسان المقهور في ثلاثة أنماط مختلفة يتميز كل منها بِسمات نفسية معينة:

1. مرحلة القهر والرضوخ: حيث يخضع فيها الإنسان لقوى متسلطة تدفع إلى انهيار قيمته، فالمتسلط يرى الجماهير عاجزة وناقصة ولا تستطيع حكم نفسها، وقد تنتشر في هذه المرحلة العدوانية حالة إعجاب وخضوع للمتسلِّط من قبل الإنسان المقهور، وقد تكون هذه العلاقة متذبذبة بين التبعية والعدوانية الفاترة، فيحاول المقهور الانتقام بأساليب خفية مثل الكسل والنكات الساخرة، مما يولّد علاقة ظاهرها الرضوخ وباطنها العداوة، ضمن هذه الظروف تولد عقدة النقص التي تجعل الإنسان خائفًا من كل شيء في محيطه فيتجنب كل جديد، ويشعر بالاغتراب وانحسار الذات كلما خرج من دائرته. كذلك قد تولّد عقدة العار التي تجعل الفرد يرتدي سترة ظاهرية تُخفي بؤسه الداخلي يحافظ عليها مهما كان مظهرها سطحيًا، هنا قد يفقد الفرد ثقته وتزداد عنده معدلات التوتر الانفعالي نتيجة اليأس من الخلاص فينفجر في مجتمعه.
2. مرحلة الاضطهاد: لبّ شعور المُضطهَد هو البحث عمّن يحمّله جريرة ذنبه، فهو بحاجة إلى إدانة الآخرين ولومهم، مما يمهد إلى تبرير الاعتداء عليهم، وما يمنح فرصة للمتسلط الداخلي أو الخارجي لوصم هذا المجتمع بالدموية والعدوانية، الإنسان المقهور هو نتيجة عنف طويل الأمد، تجعله مفرط الحساسية ويملأ صدره الحسد والغيرة.
3. مرحلة التمرد: بعد الانغماس في اليأس، يترسخ الإيمان بوجوب خلق عنف مضاد ليحاور المتسلط بنفس لغة القسوة لكي ينتصر على ذاته، التغلب على مهابة الموت يُنشئ لُحمة قوية بين المقهورين، وهنا تبرز مشاعر الانتماء وعقدة التفوق والجبروت.

تتولد عند المقهور اضطرابات منهجية وفكرية، فتبدو له ظواهر الحياة أقوى من طاقة الإنسان، فيتوسل بوسائل خرافية لسدّ هذا النقص، ويطلق أحكامًا

متسرعة دون أن يكلف نفسه عناء الجهد الفكري، فيكون تفكيره عشوائيًّا ومتخبطًا وقاصرًا وسطحيًّا وقطعيًّا، فهو إما أن يكون مع وإما ضد. يتّسم فكر المقهور بانعدام المثابرة، فهو ينطلق بحماس كبير لكنه ما يلبث أن يفقد حماسه، وذلك ليأسه من الوصول إلى هدفه بالجهد الذاتي.

كذلك يتميز تفكيره بمبدأ العزل الكامل، فالشيء في ذهنه قائم بذاته منفصل عن البقية التي لا يدركها، وهناك عنده سبب يؤدي إلى نتيجة، أما عكس ذلك فغير متصور في ذهنه. تنتشر الخرافة في أوساط المقهورين، ويقوم متعلموهم بصناعة أطاريح خرافية مغطاة بقشور من الحداثة ولغة العصر، بعض الفئات المتسلطة لا تشجّع على انتشار العلم إلّا فيما يخدم مصالحها، فتدفع إلى تكوين رأي عام مقاوم وأحكام مسبقة مجحفة لأيّ فكر تنويريّ، وقد تصبح كل حركة فكرية خطيئة تستحق التشهير والسخرية والتصفية.

تتجه أنظار المقهور دائمًا إلى الماضي، إنه يريد التمسك بالتقاليد بدلًا من مواجهة الحاضر وبناء المستقبل، وكلما ازداد تمسكه بجلابيب الماضي ازداد شعوره بالعجز والقهر، يريد من ذلك استبدال الصورة البائسة من الحاضر بصورة مشرقة من الماضي، فتراه يتباهى بأبطال الماضي ويلوذ بحماهم من ضربات حاضره ومحيطه، وقد يتوسل بمجتمعه لاستخدام القمع لدعم التقاليد وتحويل الأعراف إلى قوانين كونية مطلقة.

يضع المقهور أمله في الأولياء ويُسقط ذلك -في لاوعيِه- على الصورة المثالية للأم الحنون والأب الحامي، وقد يُسقط سخطه ومخاوفه وعجزه على أعداء خرافيين ورموز لاورائية، وتجسد الكرامة أمنية الخلاص، لذلك قد يتناسب عدد الأضرحة مع كمية التخلف في المجتمع، فهي الملاذ الآمن لحل المشاكل وجلب البركة. قد تشيع حالات هلوسة ذاتية من قبيل رؤية العفاريت، والتي يقدم عليها المقهور بتفسيرات بدائية كالقول إن هذا الإنسان ممسوس بدلًا من

بذل الجهد لمعرفة سبب تصرفه بهذه الطريقة، ويصبح الشيطان هو المُلام في كل سيئة أو نزوة شهوانية يريد التنصّل منها، وقد يتّهم غيره بأنه مصدر مصيبته بسبب حسده لتفوقه، فهو محسود بسبب مكانته الوهمية التي صنعها لنفسه.

للسحر مكانة خاصة عند المقهور، فيه يتم تجاوز القوة البشرية وقوانين الطبيعة، وأمامه تتحطّم قيود القهر والعجز، يرى الباحث الروسي (إيمانويل فليكوفسكي) في كتاب (البشرية تفقد الذاكرة)، أن السحر هو ردّ فعل لشعور الإنسان بالقصور والعجز وقلة الحيلة في عالم لا يستطيع فيه التحكم بظواهره(٨٣). وقد يتّخذ المقهور وسائل للتنبّؤ بالمستقبل، مثل استخدام التطيّر لمعرفة ما سيحدث لأخذ الاحتياط منه، واستخدام الأحلام التي تعبّر عنده عن الواقع الخارجي وتفسيرها تفسيرات شعبية، كما فعلت جماعة (جهيمان العتيبي) حين ادعت ظهور المهدي واحتلت المسجد الحرام في عام ١٩٧٩، بينما ترى مدرسة علم النفس أن حدوث الأحلام علامة على الرغبات والمخاوف في داخل الإنسان، والتي عبر عنها فرويد بقوله «إنها الطريقة الملكية للوصول إلى اللاوعي».

كذلك تطغى عند المقهور -كما يقول حجازي- قدَرية تجعله يعتقد أن مصيره مرتهن بقوى خارجية، كل ذلك لتزول عنده مشاعر الذعر والذنب، فهو غير مسؤول عن تلك الأخطاء. قد يقود الغليانُ الداخلي المقهورَ إلى مأزق وجودي يدفعه إلى العنف الذي يُعدّ الوسيلة الأخيرة عنده لردّ اعتباره وتصريف عدوانيّته من الذات إلى الخارج. تنخر العدوانية في وجود الإنسان، فقد تأخذ أشكالًا متعددة مثل سلوك جانح أو توتّر وجودي وتفشي العلاقات الاضطهادية، قد يكون العنف مقنعًا فيرتد إلى الذات فيدمرها، وقد لا يرى نفسه جديرًا بالحياة، فيبذلها في سبيل المتسلط الذي يراه وحده جديرًا بالحياة. العدوانية قديمة جدًّا مع الإنسان، وقد حاولت الفلسفات والقوانين تصريفها وكبح

جماحها، إما بإسقاطها على المسببات الخارجية، أو ردها إلى الداخل واتهام الطبيعة البشرية، وهناك من نظر في عقلنة العنف ليفرغه من النزوية، وهناك من اعتبره شرًّا أبديًّا.

الانتقام والقصاص

قبل أن تسير في درب الانتقام، عليك أن «تحفر قبرين» كما يقول (كونفوشيوس). يظل الانتقام من ألح الدوافع البدائية لدى الإنسان، يمس بصورة مباشرة رفاهية الفرد وكبرياءه وشرفه وهويته التي تشكل جزءًا من شخصيته، وهو ناشئ من مشاعر جياشة كالأسى والحزن والإهانة والغيظ، إن كنت تعيش في دولة متحضرة فإن ممارسة الانتقام هي من مهام الجهاز القضائي في الدولة، أما إن كنت تعيش في محيط اعتاد أن يمارس الانتقام باسم العدالة والشرف، فأنت ما زلت تعيش في جهة سحيقة من التاريخ ما زال الناس فيها يحلّون مشاكلهم بالمبارزات وإن اختلفت أدواتها.

العالم الذي تصوّرَته الأديان السماوية هو عالم تسوده المحبة والرحمة والتسامح والصفح عن الإساءة، لكن بعض السلطات الدينية تُشوه لتناسب احتياجات فئة من الناس باسم الانتقام العادل باسم الله. ولطالما دعا المسيحيون إلى إدارة الخدّ الأيسر للمصفوع والابتعاد عن الانتقام، لكن هذا المبدأ كان حبرًا على ورق في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش وتسويغ العبودية في أمريكا الجنوبية، حيث تواطأت الكنيسة مع ذلك كله، بل واستفادت منه.

يقول المؤلف والباحث (ستيفن فاينمن) إن رجال الدين الكاثوليك والبروتستانت في ألمانيا النازية كانوا مستعدين للإعلان من منابرهم أن الله قد بارك قضية هتلر وأن من واجب المؤمنين الالتحاق بالجيش النازي من أجل

التخلص من الأعراق الدونيّة الأخرى، كذلك ألهبت الحروب التي قادتها الولايات المتحدة حماس الإنجيليين فأيدوها(٨٤). يدعو القرآن إلى الرحمة والعفو في كثير من نصوصه، لكن المتطرّفين انتهجوا مبدأ القتال والانتقام حتى يخضع لهم الناس ويدينوا لهم بالولاء المُطلق، مستخدمين من أجل ذلك نصوص القرآن التي تحدّثت عن القتال في سياق الدفاع عن النفس. هذا الأمر ينطبق كذلك على الهندوسية والبوذية الداعيتين إلى إنكار الذات، لكن ارتكب أفرادها مذابح بأصحاب الديانات الأخرى، النصوص المقدسة التي تُحرم الانتقام لا يمكن أن يلتزم بها جميع الأتقياء، ومن الممكن أن تُلوى لتناسب سياسة المؤمنين بها في وقت من الأوقات.

حزازات النفوس مشاعر مُلحّة تنشأ من استياء ناجم عن إهانة قد تجعل الإنسان برميل بارود قابلًا للانفجار في أية لحظة، تجرح بعض الأحداث كبرياء الإنسان واحترامه لذاته فيبدو الانتقام هو العدل الحقيقي الوحيد، ولخوض حرب لا بد أن يخلق المتطرّف خطابًا قويًا يعزّز في داخله مبدأ القصاص العادل. يمكن للحروب الداخلية أن تطلق شرارة العداوات التاريخية مما يتسبب في إنهاك قدرات الدولة على احتواء تصفية الحسابات المميتة، مثلًا انتعاش لحظة ثأر قبلية في رواندا تسبب في مقتل ٨٠٠ ألف فرد من قبيلة (التوتسي) في مئة يوم على يد (الهوتو) الذين حملوا في داخلهم مئات السنين من الإحساس بالاضطهاد والإقصاء. وجدت دراسة أجريت على ألبان كوسوفو بعد انتهاء الحرب أن نصف الرجال والنساء تقريبًا أفصحوا عن رغبتهم في الانتقام من الجناة في الشهور الأولى من انتهاء الحرب، وبعد سنة لم تتغير تلك النسبة سوى قليلًا.

هل توجد حقًا إرادة حرة؟

يطالب علماء الأعصاب بملاءمة بين العقاب وعلم الأعصاب تقوم على الدليل بدلًا من الحدس المراوغ. لا يمكن أن يوجد «أنت» الذي يعرفه أصدقاؤك كلهم ويحبونه إلا إذا كانت الناقلات العصبية وروابط التثبيت في دماغك سليمة، إذا لم تصدق ذلك فاذهب إلى أقرب مستشفى أعصاب وستجد أنه يمكن لتلف صغير في دماغك أن يجعلك تفقد بعضًا من قدراتك، مثل تسمية الحيوانات وسماع الموسيقى والتمييز بين الألوان والتعامل مع الأخطار من حولك.
الإصابة بمرض (باركنسون) هي شاهد على ذلك، فعلاجاته الدوائية قد تحوّل المصابين به إلى مقامرين. تناول المصارع (كريس بينويت) جرعات كبيرة من التستوستيرون سببت له هياجًا هرمونيًّا أدى به إلى قتل ابنه وزوجته. ربط بعض الباحثين بين هرمون (فاسوبريسين) والخيانة الزوجية، ولا ننسى التقلبات المزاجية التي تعاني منها النساء في فترة الحيض. يصيب فيروس مثل داء الكلَب Rabies العصبونات المحلية والغدد اللعابية عند الثدييات ويحول سلوكها إلى العدوانية والغضب والنزوع إلى العضّ.

كذلك المصابون بمشاكل في الفص الصدغي Temporal lobe، قد تظهر عليهم تغيرات في الشخصية كإفراط في التدين وانهماك في الكتابة بشكل مكثف عن موضوع خاص غالبًا ما يكون في المعتقدات، وقد يعانون من إحساس زائف يشعرون معه بحضور شيء خارجي وسماع أصوات ينسبها إلى الله، تمامًا مثلما فعلت)جان دارك) الفرنسية ذات الستة عشر عامًا، والتي نجحت في تغيير مسار حرب المئة عام، فقط لأنها كانت تعتقد بأنها تسمع أصواتًا صادرة عن جبريل وميكائيل.

في عام ١٩٩٤ وبينما كانت الفيلة (تيكي) تؤدي عرضًا بهلوانيًّا في جزيرة هاواي، فاجأت الحضور بالهجوم على وليّ نعمتها وبقرت بطنه، ثم توجهت إلى جموع المتفرجين وهاجمتهم لمدة نصف ساعة قبل أن تقتلها طلقات الشرطة. لم يوجه أحد اتهامًا إلى (تيكي) بالإرهاب، كل ما في الأمر أن الأمور خرجت

عن السيطرة في لحظة ثوران عصبي، ففي النهاية يظل المتهم هو مجرد حيوان لا يتصف -كالبشر- بالإرادة الحرة. يحاسب القانون الإنسان لكونه يمتلك تلك الإرادة التي تنطلق من خوارزميات دائرته العصبية التي تتشكّل من قِشرة دماغ وتحت المِهاد وتكوينات شبكية معقدة، لكن السؤال المهم هو: هل يمتلك جميع البشر إرادة حرة؟

تمكن العلماء من تشخيص متلازمات عصبية تخالف مبدأ الإرادة الحرة، فالمصابون بمتلازمة توريت Tourette syndrome يحركون ألسنتهم ويلوون وجوههم لا إراديًّا، بل يقذفون في وجه من أمامهم اللعنات والشتائم والأوصاف العنصرية والتي تُسمى بـ Coprolalia، وهناك متلازمة اليد الأجنبية التي تصيب المصابين بفصل الدماغ غالبًا، فقد توثق إحدى اليدين أزرار القميص وتقوم الأخرى بفكه، وهناك مرض يجعل المصاب به يحرك أعضاءه بشكل عنيف من غير سابق إنذار، وهناك متلازمة (القتل أثناء النوم) والتي مثّلت تحديًا في المحاكم الأمريكية، فيصعب تبرئة إنسان من جريمة قتل بسبب ادعائه أنه ارتكبها وهو نائم، تمّت تبرئة (كينث باركس) المتهم بقتل أم زوجه بعدما شهد أطباء نفسيون بأنه مصاب بهذا المرض. هذه الأمراض غير الشائعة تمثل حالة من حالات السلوك ذات المستويات العالية Higher cognitive behaviors التي تحدث عند غياب الإرادة الحرة.

من أجل ذلك لجأ مفكرون لإنقاذ مفهوم الإرادة الحرة باستخدام نظرية الفوضى Chaos theory، مشيرين إلى أن الدماغ معقّد بكثافة بالغة حتى أنه لا توجد طريقة للتنبؤ بتصرفاته التالية، إلا أن عالم الأعصاب الشهير (ديفيد إيجلمان) يرى أن الإرادة الحرة -إن وُجدت- فهي متكئة على قمة آلية ضخمة تعمل بصورة تلقائية، فالسلوك الإنساني بصورة عامة يعمل من غير اعتبار لتدخل يد القصد الخفية.

وجدت عالمة النفس (أنجيلا سكاربا) أن ثمة اختلافات في نشاط الدماغ بين أفراد أدينوا بجرائم قتل مقارنة بالمجموعة الطبيعية من الأفراد شاركوا في التجربة، ومع أن هذه الاختلافات عميقة ولا تظهر إلا عند قياسها وهي غير عملية حاليًّا، إلا أنها قد تكون مفيدة مستقبلًا في كشف الأفراد الذي يمتلكون ميولًا عنيفة، وسيظل علم الأعصاب والنفس من أفضل الوسائل للتنبؤ بسلوك العنف عند المتطرّف وعلاجه والوقاية منه.

لا يطلق كل من لديه ورم في دماغه النار على جموع الناس، ولا نستطيع في الوقت الحاضر سوى اكتشاف أورام الدماغ الضخمة التي قد تكون مرتبطة ببعض حالات العنف الفردي، لكن بعد مئة سنة يأمل علماء الأعصاب في أن يكتشفوا أنماطًا من المستويات الصغرى في الدماغ على صلة مع المشكلات السلوكية، وقد نجد إجابات أفضل حول فرضية كون الناس مهيئين قبل أن يولدوا للتصرف بالطريقة التي يتصرفون بها، ما نعلمه الآن أن الموروثات الجينية والبيئة يتفاعلان بأنماط معقدة لا يمكن تخيلها، ما يجعل السلوك البشري عصيًّا على التنبؤ، فهل تتخيل أن لون جواز سفر يستطيع زيادة فرص الإصابة بمرض فصام الشخصية Schizophrenia؟ كشفت بعض الدراسات أن الجماعات المهاجرة -التي تختلف اختلافًا كبيرًا في الثقافة والمظهر الخارجي عن الجماعات الأصلية- أكثر عرضة للإصابة بفصام الشخصية، فالرفض الاجتماعي المتكرر يشوش على أداء أنظمة الدوبامين Dopamine.

في الجهة المقابلة تلعب الوراثة والجينات دورًا في الإصابة بالفصام الذي ينشط في بيئات معينة دون غيرها، فالموروثات وحدها ليست كافية للتنبؤ بالسلوك. لا يمكن -عمليًّا- للقاضي أن يوجه اهتمامه إلى «تاريخ» دماغ المتهم الذي قد يكون تعرّض لقصور خطر حين كان جنينًا، أو تعرّض لمادة الكوكايين خلال فترة الحمل، أو تعرّض للأذى أثناء الطفولة، أو تعرّض لمستوى عالٍ من التستوستيرون وهو في الرحم، أو تعرّض لتغير وراثي بسيط يتسبب في نسبة

أعلى من الإعداد المسبق للعنف إن تعرّض الطفل في فترة لاحقة لمادة الزئبق، كل هذه العوامل ومئات غيرها يصعب على أحد تفكيك تشابكها عند استحقاق اللوم والعقاب والمساءلة القانونية. كذلك لا نستطيع استئصال الفصوص الجبهية للدماغ للحدّ من الجرائم والعنف كما كان يحدث في أوائل القرن العشرين في بعض المؤسسات العقابية، فظهور المخاوف الأخلاقية والأدوية الكيميائية وفر مقاربة أكثر إنسانية وعدالة من المقاربات الأخرى التي تعاملت مع المجرم كحالة تحمل مرضًا عضويًا يستحق البتر.

العُزلة والانعزال

في عام ١٩٧٨ تحولت (جونز تاون) إلى مدينة أشباح بعد إقدام ٩١٠ شخص من طائفة أتباع (معبد الشعب) الأمريكية على الانتحار بتجرّع سم السيانيد. لم يكتفِ البالغون بقتل أنفسهم، بل قرروا أن يأخذوا أطفالهم معهم، فكان من بين الضحايا أكثر من ٢٠٠ طفل. حادثة الانتحار الجماعي قادها القس جونز، الذي كان يمارس الجنس مع ذكور طائفته في حضور النساء، وكان يتصرف باعتباره تجسيدًا معاصرًا للمسيح.

طرحت هذه الحادثة تساؤلًا حول ما كان يكمن في الطبقة الأعمق من نفوس أعضاء طائفته وبعضهم كانوا أصحاب ثقافة رفيعة؟ كان جونز يعيش حالة رعب وذعر دائم استطاع أن ينقله إلى أتباعه المخلصين، يفسر عالم النفس الاجتماعي (روبرت تشيالديني) إقدام هذه الطائفة على الانتحار عن طيب خاطر بتولد شعور جماعي عندهم بالعزلة، لأن أغلبهم كانوا يعيشون في مدن لا ينتمون إليها.

الإرهابي الحديث لا يختلف كثيرًا عن هذه الجماعة المسيحية المتطرّفة التي دعت أتباعها إلى الانتحار الثوري، فهو يشعر بالعزلة التي يُطلق عليها اسم

«غربة الدين» الذي عاد عنده غريبًا كما بدأ، ولا يمكن الخروج من هذه الغربة إلا بحشر الناس إليها ليكونوا جزءًا من حركة الخلاص التي لا ترى حياة إلا بالطريقة الحجرية التي تفرضها على الجميع.

أحد دلائل الاقتراب من التطرّف هو تولد شعور بالرفض للمؤسسات المحلية والعالمية مثل الأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية واليونيسكو وغيرها، فأمثال هؤلاء لا يلتفتون إلى مبادئ المجتمع العالمي الذي يرونه خليطًا هجينًا بين من ينتسب إلى الإسلام ومن ينتسب إلى الكفر ممن يطلقون عليهم اسم ملاحدة وكفرة وصليبيين ووثنيين، والذين لا يعترفون بحق أكثرها في الوجود إلا بشروط تاريخية تدور حول متطلبات الجزية والردّة.

وأحيانًا يشيع بين هؤلاء تفسير حاد للقرآن والأحاديث والتاريخ والأمثال يصبّ في صالح خلق نفس منطوية على ذاتها تعمل على صناعة متطرّف محترف، والذي بجرعة كبيرة من التهور يصبح إرهابيًا، وبجرعة خفيفة منه يجلس في صحن بيته يمارس التطرّف بالهمز واللمز، فتجده يسكت على أفعالهم وقلبه يطرب على إنجازاتهم، أو يوافقهم عليها، إلا أنه يحصر خلافه معهم في التوقيت والمصلحة.

إن العوار النفسي Anaphylaxis Psychological يصيب الفرد بحساسية مفرطة من عامل معين كان له أثر كبير على الفرد في الماضي، وكلما تعرض لذلك العامل فإنه تحصل استجابة مفرطة تتجاوز الاستجابة الأولى بكثير، فالتغيرات التي أحدثها العامل الأصلي كانت بالغة العمق ونجحت في التسبب بما يُسمى بالحساسية الكامنة. في مواقع عديدة في كتب التاريخ، أدّت كراهية اليهود المفرطة إلى تجاوزات مفرطة بحقهم، كان اليهود متّهمين بتسميم آبار المسيحيين في كثير من مناطق أوروبا، فصدر في (بيرن) قرار بدء المذبحة

بحقهم لتعم كل ألمانيا وسويسرا، انطوت تلك الصفحة ثم عادت على شكل هولوكوست في الحرب العالمية الثانية.

خذ مسألة مثل مسألة الرقيق في عصرٍ أجمع فيه العالم المعاصر العاقل على تجريمه وإنكاره ومحاسبة من يروج له، ترى الكثيرين يشمئزون من أخبار سبي «داعش» للإيزيديات، لكنهم في نفس الوقت يستمتعون بكلام المُروّجين له، ويشاركون في مسابقات تتعلق أسئلتها بعورة الجارية وهيئة صلاتها وقيمة دِيّتها. بعض الوعاظ يواصلون إرسال تلك الرسائل المبطنة الممهدة لرجوع الاستعباد مستقبلًا، ويصرح بعضهم بأنه سيظل يدرس فقه الرقيق في دروسه إلى حين عودته عودًا حميدًا كما فعل أحد العلماء حين جعل من الاسترقاق حلًّا لمشكلة الفقر في العالم. وآخر سُئل هل يجوز شراء الإماء من بعض الدول التي لا يزال بيع العبيد قائمًا فيها وجلبها إلى بلاده؟ فلم يمانع ذلك خصوصًا إذا ثبت أن ذلك العبد ينحدر من بيت رِق، ثم وصف من يحرم السبي بأنه جاهل وملحد مع كون النبي عليه السلام يقول في حديث صحيح رواه البخاري «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة [...] رجل باع حرًّا فأكل ثمنه»، فمن المفترض أن ينطبق هذا الحديث اليوم على كل شخص يروج للعبودية بعد عودة الجميع إلى وضعهم الأصلي، وهو أنهم يولدون ويعيشون ويموتون أحرارًا.

مثال آخر؛ الآثار العربية والإسلامية التي تشكل جزءًا من التراث العالمي، والمسجلة في منظمة اليونيسكو التابعة للأمم المتحدة، لا يُكنّ لها البعض الاحترام بسبب موقفهم السلبي المسبق من الآثار التي يعدّونها امتدادًا طبيعيًا للأوثان، فالقبة الخضراء فوق القبر النبوي والسياج النحاسي الذي يحيط به -والذي كان هدفًا للمتطرّفين- اعتبره أحد العلماء من الوثنية، صحيح أنه جعل أمر هدمها واجبًا على الدولة، إلا أن تسويغ ذلك -ومن حيث المبدأ- قد أعطى الإرهابيين دفعة شرعية للقيام بهذه المهمة، لا سيما وهم يعدّون أنفسهم

أصحاب الخلافة الشرعية، وما فعلوه في آثار تدمر والعراق وما ينوون فعله في آثار مصر -مثل الأهرامات وأبي الهول- ليس بخافٍ عن أعين العالم.

لكي نجفف منابع الإرهابيين -وفِرق التطرّف بمختلف أنواعها- علينا أن نتخلص من الأشياء التي تفرض علينا حواجز العزلة مع الآخر، فهي متنفسهم الذي يتسللون به إلى حياتنا، علينا أن نمتلك الشجاعة الكافية لإغلاق فتحات التهوية المهترئة حتى يختنقوا أو يعودوا إلى رشدهم، فهم يطلبون الانتحار لحضارتنا.

انتحار المتطرّف

البشر يخشون الموت ويثير عندهم ذعرًا حاسمًا، كما يقول (ألبرت كامو) في (المقصلة)، لكن الأمر البديهي الآخر هو أن هذا الخوف -مهما كان كبيرًا- فإنه ليس كافيًا لردع الأهواء البشرية، فهناك أشياء مثل الانتقام والحب والشرف والألم تستطيع التغلب على هذا الخوف. الغرائز التي تتصارع في الإنسان ليست في حالة توازن -كما يريدها القانون- بل هي قوى متبدلة تموت طورًا وتنتصر طورًا آخر، والقاتل -كما يعبر كامو- يشعر بنفسه بريئًا عند تنفيذ حكم الإعدام فيه(٨٥)، هذا إن لم يرَ نفسه على صواب في عمله أو كان يرى أن الظروف تعذره فيما اقترفت يداه. أخذت قرارات إنهاء الحياة وضعها المحدد والمرسوم عبر التاريخ، كان كبار السن من العسكريين في الدنمارك والأرامل في الهند والإسكيمو في البلاد المتجمدة ينتحرون بسبب إملاءات اجتماعية، وقد أخذت هذه القرارات أشكالًا أخرى وأسماء متعددة في المنظومات الدينية المختلفة، فسُمّيت بالشهادة في الإسلام والنيرفانا في البوذية، الكاميكاز في الشنتوية اليابانية، والمانو في البراهمانية.

مدارس علم النفس

هناك مدارس نفسية عدة حاولت تقديم مقاربات لتفسير ظاهرة الهجمات الانتحارية، نذكر هنا أبرزها(٨٦):

1. المدرسة السلوكية: اعتبرت العنف سلوكًا إنسانيًّا مكتسبًا من المحيط والبيئة العدوانية، فالطفل يستعمل العنف من أجل الحصول على ما يريد، وسيظل يستعمله للحصول على أهدافه حين يكبر ما دام يوفر له الاحترام والانتماء، وقد انتقد المختصون هذه المقاربة بسبب كونها سطحية لم تمس جوهر المشكلة وعمق النفس الإنسانية، طرح أنصار السلوكية التطورية فكرة كون سلوك التدمير الذاتي -تحت

ظروف معينة- يضمن للفرد الاستفادة من انتحار الأفراد الآخرين ما يضمن بقاء إرثه الجيني، والتضحية التي يقوم بها الآخرون قد تكون الطريقة المتطورة لضمان أن المجموعة الأكبر لديها دفاعات معززة تدافع بها عن بقائها.

2. المدرسة التحليلية: اعتبرت العنف سلوكًا غرائزيًا ينطلق من غريزتي الموت والحياة، فهناك صراع دائم بين دوافع الحياة ودوافع الموت، والفرد الذي تعرض للقمع سيتولد عنده شعور انتقامي يدفعه إلى ردّ اعتبار ذاته من خلال الانتقام.
3. المدرسة المعرفية: ركزت على مفهوم المعرفة الذي يتعلق بالعمليات الذهنية والإدراكية والتخيلية ومعالجة المعلومات، ومن خلال المعرفة يتحدد سلوك الإنسان من تسامح وتشدد وغيره، فالتطرّف الانتحاري ليس سلوكًا ولا نزعة لا شعورية، بل هو موضوع معرفي، والسبب الرئيسي للتعصب هو اختلاف وجهات النظر الذي يُولّد كراهية بين الأفراد.

يذكر عالم الاجتماع اللبناني (عبد الله إبراهيم) في كتاب (مفهوم الانتحار ومفهوم الشهادة والاستشهاد) أشكالًا ثلاثة للانتحار يعاني منها الإنسان المُحبط الفاقد للأمل المستسلم لليأس(٨٧)، إذا أسقطنا هذه الأنواع على المنتحر فإننا نستطيع فهم حالته النفسية بشكل أكبر، فهو قد يمارس الموت الاستسلامي الذي يرافقه شعور بالخيبة والهزيمة وانهيار الحالة الذهنية مع اعتراف بعدم جدوى المقاومة، هنا يبدو المنتحر شخصًا معزولًا عن مجتمعه إلّا أنه متصل بجماعة تمده بإيحاءات تشجعه على الموت للخروج من هذه الحالة المتردية، وقد مثل هذا النوع اليهود الذين حاصرهم الرومان في جبل (الماسادا) فقرروا اتخاذ قرار الموت الجماعي، وكذلك عملية صدم سفينة فرسان المعبد لأحد سفن العرب في الحروب الصليبية ليموت ١٤٥ فارسًا من هذه الجماعة بعدما أخذوا معهم -إلى الموت- أضعاف هذا العدد من المسلمين.

أما النوع الثاني، فهو الموت العقابي والذي يعاقب الشخص به نفسه بعد ارتكاب جريمة ما، هذا النوع كان في يوم من الأيام جزءًا من مؤسسة مجتمعية في اليابان والتي تسمى بـ(الساموراي) حيث يُسمى الانتحار المؤسسي فيها باسم (هاراكيري)،

ولعلها الحالة الوحيدة في العالم التي تحول فيها الانتحار إلى جزء من مؤسسة انتحارية. انتهت هذه المؤسسة بإصلاحات (ميجي) في عام ١٨٧٧، لكن لا تزال عقيدة الانتحار حاضرة بقوة في الثقافة اليابانية، ففي عام ١٩٧٠ تحصن الروائي الياباني (يوكيو ميشيما) بكلية الأركان العسكرية للمطالبة برفض الخنوع لأمريكا والعودة إلى السلفية اليابانية الصافية المعادية للتغريب، ثم قام بغرز سيف في بطنه وأخرجه من جانب بطنه الآخر على طريقة (الهاراكيري).

ثم يأتي النوع الثالث، الذي يسمى بالموت الانتقامي، والذي يرافقه شعور بالغيظ والسخط والحنق والغضب، فالمنتحر يريد أن يُحدث فضيحة وأن يعذّب غيره ويخيف من بقي على قيد الحياة، يريد ممن حوله أن يشعروا بالندم بعدما ألقى عليهم مسؤولية موته.

هذه الأنواع السلبية من الانتحار في مواجهة الصراع الداخلي تختلف عن أنواع الانتحار في مواجهة الصراع الخارجي كالموت الصوفي الذي يضحي فيه الشخص بنفسه من أجل نيل لذة التضحية ليفنى في الشيء الذي ينظر إليه على أنه أصله الحقيقي، أو الموت الصراعي حيث يضحي المرء فيه بنفسه من أجل الصراع بين الجماعات.

الانتحار الغيري هو ذلك الانتحار الذي يقع في لحظة تاريخية فارقة، وهو شائع في المجتمعات البدائية، قد يحدث مثلًا عند بلوغ عتبة الشيخوخة أو عند الإصابة بمرض أو بعد فقدان زوج أو موت زعيم، وهو شائع الحدوث في التجمعات الدينية المغلقة والثكنات العسكرية في لحظة الحروب الحاسمة، تكون القيم الاجتماعية هي الدافعة إلى ممارسة الانتحار، وخير مثال على ذلك العمليات الانتحارية التي كان يقوم بها الطيارون اليابانيون ضدّ أعدائهم في الحرب العالمية الثانية، أو الانتحار الذي قام به جنود هتلر عند سقوط برلين بيد الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.

الانتحار الفوضوي هو ذلك النوع الذي يأتي نتيجة الفوضى والاضطراب في النظام الطبيعي، كالذي يحصل في الفقر الشديد والغنى الشديد، حيث لا حديث عن مرجعية أو خصوصية ثقافية للشعب، الكل انسحق في الكل، وهو ناتج من انكسار معايير كانت ضابطة للمجتمع مثل القيم والمعتقدات، وتحولها إلى ضوابط غير ملائمة للظروف الحالية، ويحصل تضارب بين آمال الفرد وأهدافه ضدّ القيم والمعايير المختلفة، فتفقد القيم قيمتها ويختل اتزان المجتمع وترتفع معدلات الانتحار.

نظرية (دوركايم) في الانتحار

عاش (دوركايم) إلى سنة ١٩١٧ ليشهد مأساة الحرب العالمية الأولى التي شهدت انتحارًا جماعيًّا بسبب الثورات العلمية والتكنولوجية والاجتماعية التي فشلت في كبح جماح العنف الجماعي في أيام الحرب(٨٨). يقول (دوركايم): «إن معدل الانتحار يزداد بزيادة التفكك المجتمعي ويقل بتماسكه»(٨٩)، فيكون المجتمع هو العقبة ضد الانتحار وينتقل من موقع المتسبب للمشكلة إلى موقع الطبيب الذي يمنع حصولها، وفي حالة تفكك المجتمع فإنه تظهر الحاجة إلى التفكير الحرّ ما قد يزيد معدل الانتحار، وعندما تكون الهيئة المجتمعية مفكّكة فإن الأفراد يرفضون قبول شرعية الخضوع لها، أما الفيلسوف وعالم الاجتماع (موريس هالبواكس) فيرى أن معدل الانتحار يزداد مع زيادة تطور المجتمع، حيث يكون الانتحار مجرّد ارتداد وضريبة لهذا التطور، فمن يمثلون عبئًا على المجتمع وإزعاجًا له ولحيويته يتخذون قرارًا بالانسحاب الفوري منه.

عند الحديث عن الانتحار، يجب التساؤل عن أسبابه العميقة وليس السطحية، هل هو بسبب عوامل بيولوجية أو عرقية أو وراثية أو كونية، أم لمجرد محاكاة للآخر؟ جعل (دوركايم) من الانتحار ظاهرة اجتماعية لا تُفسّر إلّا من خلال العوامل

الاجتماعية التي أثرت فيها أكثر من كونها بسبب التكوين النفسي للفرد أو بسبب الظروف الكونية.

لا تستطيع القول إن الألمان أكثر «انتحارًا» من غيرهم، فهم لا ينتحرون بسبب نوع الدم أو العرق الذي ينتمون إليه، بل يجب النظر إلى الأسباب الاجتماعية المحيطة. لا نستطيع القول إن الانتحار هو بسبب العوامل الطبيعية مثل تغير حالة الطقس وتغير الفصول الأربعة، فملاحظة ارتفاع معدل انتحار في شهر ما لا تدفعنا إلى التدقيق في درجة حرارة الجوّ بقدر ما تدفعنا إلى دراسة طبيعة الحياة الاجتماعية التي يتمتع بها السكان والمحفزات التي قد تغذي طريقة تفكيرهم. تقول تقارير منظمة الصحة العالمية إن المنتحر قد يؤثر في عشرين فردًا آخرين، فعامل المحاكاة مهمّ جدًّا، لا سيما وأننا أمام بشر يتأثرون بمحيطهم بصورة سلبية وساذجة أحيانًا، وكأنهم آلات وليسوا حيوانات عاقلة.

الانتحار ليس مفهومًا واحدًا، بل يتعدد بحسب السياقات والشروط الاجتماعية، أطلق (دوركايم) اسم «الانتحار الأناني» على الانتحار الذي يأتي نتيجة انحلال الروابط الاجتماعية، فمعدل الانتحار يتناسب عكسيا مع درجة الاندماج الديني والعائلي والسياسي. البؤس السيكولوجي في الانتحار الأناني يجعل الفرد يستسلم لأقل صدمة من صدمات الحياة، فهو انفصال سوداوي ينجم عن حالة مفرطة من الفردانية تعدل روابط الفرد بالآخرين، وسجل (دوركايم) ملاحظة لافتة، وهي أن الكاثوليكية تؤدّي إلى تكامل اجتماعي أكثر من البروتستانتية التي يغلب عليها الطابع الفردي.

الانتحار الإيثاري

أحدث عالم البيولوجيا التطورية (وليام دونالد هاملتون) ثورة في فهمنا للسلوك الاجتماعي عندما طرح مفاهيم جديدة حول انتخاب القرابة، والذي قضى سنين وهو

يفكر كيف يمكن للتطور تفسير سلوك نحلات العسل العقيمات اللاتي يمُتن في سبيل حماية الخلية، هنا تبلور مصطلح «انتخاب القرابة» والفوائد المشتركة والمعاملة بالمثل لتفسر صور التعاون الاجتماعي المحتملة بين أفراد المجموعات المختلفة. إن التقارب الجغرافي هو الآلية الأبسط لتفسير سلوكيات الإيثار كما يقول (راندولف نيس)(٩٠)، البكتيريا تنقسم بسرعة وهي محاطة بأقرباء وثيقين يسهمون في الصالح العام عن طريق توفير هضم خلايا العدو وتعود بالفائدة على جيناتها ومجموعتها، أبناء الأشخاص الذين يتّسِمون بالإيثار من المرجح أنهم يعيشون على مقربة من آخرين يتّسمون بالإيثار ويبتعدون عن الأشخاص غير الإيثاريين.

تقوم المجموعات ذات المعايير الثقافية -الداعية إلى الإيثار المستمر في سبيل الجماعة- بمنح مزايا للأفراد المطيعين لتلك المعايير، وتجعل من إستراتيجيات الالتزام أكثر أمنًا وقبولًا من تلك الإستراتيجيات المبنية على المعاملة بالمثل أو انتظار شيء في المقابل، إنهم يريدون أن يُنظر إلى أفعالهم باعتبارها أفعالًا يحفزها الاهتمام والالتزام ولا شيء آخر، وأحيانًا يقعون في فخّ الإيثار التنافسي الذي ينفقون فيه كميات كبيرة من مالهم وجهدهم -وربما يضحون بحياتهم- كي يُظهروا إيثارهم واكتراثهم بالآخرين.

يرى العلماء أن الانتحار الإيثاري الحادّ -الذي وصفه دوركايم- منطبق بشكل كبير على الإرهابي الانتحاري المعاصر، فالمنتحر ينفّذ العملية بطيب خاطر من أجل تحقيق هدف أكبر من الذات. بحسب (ليدل) و(شاكلفورد)(٩١). تقول نظرية ذوي القربى -التي اقترحها (هاملتون)- إن الصفات المختارة قد لا تكون مفيدة للفرد لكنها قد تكون مفيدة لأقاربه الذين يحملون الجينات نفسها، بمعنى أن الأفراد المتشابهين والقريبين من بعضهم جينيًا يميلون إلى مساعدة بعضهم أكثر من غيرهم من أجل المحافظة على وجودهم وبقاء جيناتهم في العالم، ويحرصون على المحافظة على سلوكيات التعاون المتبادل كما يصنع النحل في الخلية حين يحجم عن التكاثر من

أجل منح الملكة الفرصة للقيام بتلك العملية، يستطيع هذا المبدأ أن يفسر جزئيًا سلوك الإيثار عند أفراد الجماعات المتشددة.

ساعدت العمليات الانتحارية في تعزيز مطالب (نمور التاميل) من أجل تأسيس دولة مستقلة لهم في سيرلانكا، وساهمت في جلاء القوات الإسرائيلية من لبنان في عام ١٩٨٥، وأرغمت القوات الأمريكية والفرنسية على مغادرة لبنان في عام ١٩٨٣، ودفعت إسرائيل إلى مغادرة قطاع غزة والضفة الغربية في عام ١٩٩٤، فمن ينتحرون يفعلون ذلك لسبب محدد يسميه العالم السياسي (روبرت بيب) بالمنطق الإستراتيجي، فهو يرى أن قادة مثل هذه التنظيمات أبعد ما يكونون عن اللاعقلانية، فهم يبحثون عن تحقيق أهداف سياسية من وراء تلك الأفعال، إلّا أن لديهم إحساسًا متضخمًا ببشائر النصر ويُبدون تحيّزًا للمنافع المتوقعة.

الرغبة الجامحة في القضاء على العدو هي التي تدفع المهاجم الانتحاري إلى العنف المُغلّف بالدين، وهنا توجد نقاط تشابه بين مفهوم الشهادة عند السيخ وعند المتطرّف، فموت الحكيم (أرجان) خامس الحكماء، أدّى إلى نفخ الروح العسكرية في ديانة السيخ في عام ١٦٠٦م. كان قبول الموت المقدس في المسيحية شاهدًا على جدية الإيمان أمام الله وعلى صحة القضية أمام الإنسان. لكن الشهيد المسلم تميّز بأنه يتمنى الشهادة وهو يناضل ضد أعدائه بدلًا من الاكتفاء برفض الخضوع لإرادة من يمسك بالسلطة، أما الشكل الصوفي للجهاد فهو متوجه نحو الأنا الذي يجب أن يسيطر على ميوله الانتهاكية حيال الخالق، فالمعركة مع الذات وليست مع العدو الخارجي.

في القرن الحادي عشر، تولى زمام العمليات الانتحارية الشيعة الإسماعيلية الذين أطلق عليهم لاحقًا لقب «الحشاشين»، سواء كان اللقب مشتقًّا من كلمة الاغتيال في اللغة الإنجليزية Assassin أو العكس، فإن أعمالهم كانت تثير غرابة أعدائهم من السلاجقة والصليبيين، كان الحشاشون يحملون ولاءً مطلقا لقضية الإسلام المجسدة

في شخصية (الحسن بن الصباح)، كان الموت فداء له يشكّل متعة تؤدي إلى تحقيق مدينة مثالية في عالم متجدد، وهكذا هو القتال الأممي الذي ينتمي إلى التنظيمات العابرة للقارات والذي يتصرف بغيظ ضد عالم يرى نفسه فيه محرومًا من الوصول إلى حياة لائقة.

مع ظهور منظري الحاكمية الجدد -من أمثال أبي الأعلى المودودي وسيد قطب والخميني- صار لمفهوم الجهاد طبيعة باطنية كونية ووظيفة تتجاوز بكثير الوظيفة التي يمنحها إياه الفقه التقليدي، فكل تشريع بشري يُعدّ انتحالًا لصفات الله عند الحاكميين الجدد الذي تخضع له جميع المخلوقات، الاعتراف بحاكمية الله عندهم يعني رفض فصل الدين -كممارسة طقسية- عن السلطة السياسية على مستوى الدولة. القتال هو الوسيلة لتحقيق سلطة الله على الأرض ولإدارة الشؤون البشرية مع رفض الخضوع لهذا العالم المتغير في مقابل أحكام القرآن التي لا تتغير. إن فكرة انحطاط الغرب والعودة إلى التراث القديم هما أساسا أيديولوجية الإرهابيين التي تتقاطع مع تصور المؤرخ الألماني (أوزالد شبنجلر) التشاؤمي حول انحطاط الغرب.

قبل الثورة الإسلامية في إيران، تمكن (علي شريعتي) من تمرير مبدأ التشيع الأحمر بين حركيي الشيعة، استُلهم حدث مقتل الحسين الذي اعتُبر تجسيدًا لقضية مظلومين يعانون من ظلم وقمع وألم لا حدود له، فذابت قضيتهم في قضية الخير في العالم، والذي لن يعود إلّا في آخر الزمان وخارج هذا العالم. بعد الثورة، تمكن الخميني من سحق معارضيه من اليسار عن طريق نعتهم بالمتورطين في الإمبريالية والخاضعين للاستكبار العالمي، فكانت أبرز خصائص خطابه تسليط الضوء على المؤثرات الداخلية التي تشمل الخوف وقوة الروح والشعور بالشرف والرغبة في النصر والهوية العقائدية -التي تتملص من الشك- وإضفاء صفات الشيطان على كل معارض داخلي أو خارجي.

ظهرت في تلك الفترة جماعة «مجانين الله» الذين اشتهروا باسم «الباسيج»(٩٢)، وكانت أعمارهم تتراوح بين الرابعة عشرة والثلاثين، وهم مستعدون للتضحية بأنفسهم ويُقبِلون على الشهادة برحابة صدر لحماية الثورة من الثورات المضادة من قبل الملكيين واليسار المتطرّف. تمت تغذية الباسيج بالمشاعر القومية والدينية حيث واجهت الثورة في بدايتها غزوًا عراقيًا للقسم الجنوبي الغربي من إيران. من خصائص أفرادهم أنهم يعيشون في حصار وهوس بوجود عدو دائم في الداخل والخارج ما يُسقط كل الاهتمامات والروابط العائلية، وهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم آثمون ومُذنبون بسبب حياتهم في مجتمع فاسد، ما يدفعهم في اتجاه لعبة تطهير المجتمع بالعنف والانتحار الإيثاري، كذلك تم استبدال بالانقسامات الطبقية التراتبية القلبية التي تحولت إلى شعور بالانتماء الموحد والتساوي.

أظهرت الدراسات حول هوية جماعة «مجانين الله» وجود ثلاثة أنواع من المنخرطين فيها:

1. فئة انتابها يأس شديد من الوضع الذي آلت إليه الثورة، فقد كانوا متفائلين في أول الثورة ثم متشددين إبانها، انتابهم شعور بالغضب، تحول إلى رغبة عارمة من أجل الشهادة والموت من أجل مبادئ الثورة.
2. مراهقين انخرطوا في الباسيج من أجل إثبات استقلاليتهم أمام أهاليهم وشكلت الحرب بالنسبة إليهم جسرًا بين مرحلتي المراهقة والرشد يُمكّنهم من تشكيل «أنا» مستقلة.
3. مجموعة جعلت من الباسيج وسيلة للاستفادة من ترقية اجتماعية واقتصادية سريعة في مجتمع فقير نسبيًا، أو من أجل شقّ الطريق من الريف المُعدم إلى عالم المدينة المُرفّه.

ثمة حدثان مهّدا لانهيار نموذج الباسيج، أحدهما نهاية الحرب مع العراق، ما سلب منهم القدرة على الموت كشهداء ومواصلة المزج بين الرغبة في الانتحار والتطويب

الديني. الحدث الثاني كان رحيل الخميني، فبوفاته فقدوا الدعم الذي كانوا يتلقونه من قائد يتمتع بكاريزما تسمح لهم باستخدام الموت لتغطية إفلاس الثورة التراجيدي، لم يعُد بريق الشهادة جذابًا كما كان في البدايات، صار موضوعًا هامشيًّا لا سيما بعد وصول الإصلاحيين إلى الحكم بقيادة (محمد خاتمي)، صار هناك حديث حول المجتمع المدني والتسامح الاجتماعي وحرية المرأة والرجل ورفض التشدد والفصل بين الدين والسياسة، بل وطُرحت مسألة «ولاية الفقيه» على بساط البحث، بعدما كانت خطًّا أحمر لا يمكن نقاشه.

1. الانتحاري في حاجة إلى مؤسسة

أظهر (إدوين شنيدمان) -عالم النفس الأمريكي ومؤسس علم الانتحار- أن السلوك الانتحاري يمكن التنبؤ به على أساس مفهوم أسماه الألم النفسي(٩٣)، والذي عرفه بكونه ألمًا نفسيًّا لا يطاق يكون الانتحار فيه وسيلة لوقف وعي المرء وإغلاق ألمه الذي لا يطاق. يرى (بروس بونغر) أن الشخص الانتحاري هو شخص مفصوم عاطفيًّا ومخدر ويعيش حالة من الهدوء الغريب قبل قيامه بالعملية، بعض من أُخذت شهاداتهم بعد فشل عملياتهم الانتحارية يقولون إنهم خاضوا تجربة نفسية تحمل نشوة غريبة وكأنهم في ثمالة رغم عدم استخدامهم أية مواد مخدرة. تستطيع الإيديولوجية المتطرّفة انتشال الفرد من حالة الميت الحيّ -التي يكتنفها الألم العاطفي الشديد والذكريات المؤلمة والكوابيس وعدم القدرة على التركيز- إلى حالة مطمئنة وساكنة، فالحياة عند بعضهم صارت عبئًا لا يُطاق، وبما أنهم يحرم عليهم الانتحار دينيًّا بشكل بات، فإنهم يلجؤون إلى فكرة الإسعاف النفسي السريع الذي قد يتضمن إعلانًا انتحاريًّا.

تُعدّ الشهادة حدثًا استثنائيًّا وأليمًا يهدف إلى إثارة عواطف المؤمنين وتقوية الروابط بين الجماعات، الشهيد مثل الميت عطشًا، لا يرتوي ولكنه يروي شجرة المعتقدات بموته. هؤلاء الانتحاريون بحاجة إلى مؤسسة لإنجاز مهمتهم والانتقال من الحياة إلى الموت، يريدون التحول إلى قديسين تُمجّد فضائلهم القتالية وقدرتهم على تحمل المِحن والآلام من أجل خلاص الأمة، وجود شيخ أو مؤسسة دينية سيساعدهم على تبديد مخاوف الموت. يقضي المرشح للعملية الانتحارية وقته بين الصلاة والصيام وقراءة القرآن وطلب الغفران من الذين أساؤوا إليه أو أساء إليهم، تحاول المؤسسة تقوية إيمانه المتأرجح إنْ راوده الشك أو الخوف.

تعمل الجماعات المماثلة على استبعاد الأفراد المضطربين عقليًا أو عاطفيًا بسبب خوفها من الأخطار الأمنية المحيطة بإنتاج القنابل البشرية، وعادة ما يلجؤون إلى فئة الشباب الذين تسهل برمجتهم عقائديًا بسبب عدم اكتمال نموهم الذهني، في مقابل كبار السن الذين عادة ما يكونون راسخي العقيدة ومستقري الفكر.

تستطيع مؤسسة الانتحاري إنشاء لائحة أدلة لمنطق العمل الديني، فمثلًا عند سؤال سجناء إرهابيين عن سبب تورطهم في أحداث ١١ سبتمبر والتي راح ضحيتها قريبًا من ٣ آلاف مدني، أجاب كثير منهم بذكر أرقام مئات الآلاف من الأطفال والشيوخ الذين قتلوا في حصار العراق إبان حكم صدام حسين، فتحول منطق التفاني إلى أرقام وأعداد تعزز مبدأ شرعية العمل.

تجارب في السجون

قد لا يعلم الكثيرون أن (أيمن الظواهري)، الذي هو أحد أعمدة التطرّف الإرهابي في العالم، لا ينحدر في الأصل من طبقة عادية أو مُعدمة في مصر، بل من طبقة علمية مرموقة، وكان يقطن حي المعادي الراقي في القاهرة، فجده (محمد الظواهري) هو شيخ الأزهر في فترة الثلاثينيات، وجده لأمه (عبدالوهاب عزام) هو سفير ودبلوماسي ومن كبار المتصوفين في مصر وكان رئيسًا لجامعة القاهرة، وعم والدته (عبدالرحمن عزام) هو أول أمين عام لجامعة الدول العربية، أما هو فاتبع طريق والده -الذي يُعدّ من أشهر أطباء مصر- ودخل كلية الطب وتخصص في الجراحة العامة وتزوج بامرأة متخصصة في الفلسفة. فكيف بشخص بهذا التعليم الأكاديمي والإرث العائلي الكبير أن يتحول إلى متطرّف شرس يحمل مستوى عاليًا من العدوانية والقسوة وينطبق عليه وصف المتطرّف المستبد؟

هل من الممكن قياس الاستبداد؟

يميل العلماء عادة إلى قياس الظواهر التي يريدون دراستها لمعرفة درجة حدتها وحقيقة حجمها في كل مجتمع على حدة. أول محاولة لقياس الاستبداد نُشرت في كتاب (الشخصية الاستبدادية) كما ينقل (أدريان فيرنهام)(٩٤)، وسُمّيت بمقياس (F) كاليفورنيا، ويتكون من العناصر التالية:

1. التقليدية: الالتزام الصارم بقيم الطبقة الوسطى.
2. القبول الأعمى للسلطة.
3. العدوانية تجاه أي شخص لا يلتزم بالأعراف.
4. اهتمام مفرط في السلوك الجنسي الملائم.
5. رفض الضعف أو العاطفة المفرطة.
6. الإيمان بالخرافة والتفكير النمطي الصارم.
7. الانشغال بالهيمنة على الآخرين.
8. الإسقاط، وهي نزعة لإسقاط المشاعر الداخلية على الآخرين.
9. التدميرية والشعور العام بالعدائية والغضب والذي يساهم في تأجيج الصراعات.

ربما يساعدنا إلقاء نظرة على أشهر تجارب العصر الحديث في فهم سلوك المُستبد المتطرّف.

1. تجربة سجن (ستانفورد)

في عام ١٩٧١، أعلنت إحدى الصحف الأمريكية أنها تبحث عن متطوعين يشاركون في دراسة عن حياة السجون مقابل أجر يعادل ٧٥ دولار في أيامنا هذه، استجاب سبعون متطوعاً من الطلبة الجامعيين، وتمّ تقسيمهم عشوائياً إلى مجموعتين إحداها مجموعة (حُرّاس السجن) والأخرى (نزلاء السجن)، فضّل أغلب المشاركين أن يكونوا سجناء على أن يكونوا سجّانين برغم إخبارهم أن السجناء سيُحرمون من العديد من حقوقهم المدنية، وسيحصلون على الحدّ الأدنى من الطعام والرعاية الصحية، كان من قواعد السجن أنه سيُسمح للسجناء بخمس دقائق في الحمام فقط، لا يخاطبون بعضهم إلا بالأرقام، لا يشيرون إلى كونهم في تجربة، ويُعاقب كل من لا ينصاع إلى هذه الأوامر.

انخرطت مجموعة الحراس في أعمال قاسية ضدّ السجناء مثل إجبارهم على تمارين قاسية وضرب من لا ينصاع لهم بالهراوات، أدت هذه المعاملة إلى حصول عصيان من السجناء وقاموا بتمزيق أرقامهم، طلب مسؤول التجربة من الحراس أن يتخذوا خطوات أكثر حزماً، فجردوهم من ثيابهم وحرموهم من وجبات الطعام والوسائد والبطانيات والأسرّة، ووضعوا بعضهم في سجون انفرادية، انهار أحد السجناء وطلب إيقاف التجربة لكنهم أقنعوا بالاستمرار عن طريق زيادة الامتيازات المخصصة له، أُصيب سجين آخر بالهستيريا فأطلقوا سراحه، كذلك أُطلق سراح كل سجين أصيب بالإجهاد. خضع بقية السجناء وتحولوا إلى ما يشبه كائنات الزومبي، أما الحراس فقد استمروا في تماديهم حتى أنهم جعلوا بعض السجناء يضاجعون بعضهم بعضاً أو يضاجعون فتحة في جدار.

لا يمكنني هنا إغفال المآخذ المنهجية على تجربة سجن ستانفورد والتي ذكر بعضها «روتجر بريجمان»(٩٥)، فتلقين الحراس التعليمات تعني أن المشاركين يستطيعون

تخمين الهدف من الدراسة مما يؤثر على نزاهة التجربة العلمية، فالطلبات كانت واضحة في كل مكان بحسب شهادة الحضور، كان تركيز «زيمباردو» منصباً على السجناء أكثر من الحراس، فهو يريد أن يعرف كيف سيتصرفون تحت الضغط الشديد وإلى أي مدى سيشعرون بالملل والخوف والإحباط؟ أحد المشاركين في التجربة اعترف أنه كان يتظاهر بإصابته بانهيار عصبي مما فتح باب الشك في مدى جدية وصدق المنظمين والمشاركين، أصر «زيمباردو» في عام ٢٠١٨ أن للناس أن يقولوا ما يشاؤون حيال التجربة، وأن دراسته ستظل الأكثر شهرة في تاريخ علم النفس وأنه لا يوجد دراسة ظل الناس يتحدثون عنها حتى بعد مرور ٥٠ سنة على إجرائها، فاستمرارها وبقاؤها هو أكبر حديث عنها!

على كل حال أُنهيت التجربة قبل أوانها، واستنتج (فيليب زيمباردو) -مسؤول التجربة- وغيره من الباحثين أن الضغوط التي يفرضها الموقف قد تُفضي بأفراد مُهذّبين إلى ارتكاب أفعال رهيبة عن طريق إخماد الشكوك الأخلاقية التي قد يحملونها، وأنه يكفي لتجريد المرء من فرديته ليتحول الجاني إلى فرد بلا شخصية مستقلة، من يلبس ثياب الحرب من المرجح أن يعامل أعداءه بوحشية، ذلك يفسر المعاملة الوحشية لسجناء سجن (أبي غريب) العراقي من قبل سجانيهم الأمريكان، والذين أرغموا على ممارسة الاستمناء والممارسات الجنسية المهينة.

هذه النظرية تفسر أيضاً سلوك المُنتظمين في عقْد التطرّف، فإنّ من يجد نفسه في موقف القاضي أو صاحب المكانة العليا، سيرى أنه يتحتم عليه أن يطمس وجود كل من لا يخضع له، ولا ننسى أن موقع ممارسة الحكم في ساحات الحرب يلعب دوراً كبيراً في خلق البيئة المناسبة لممارسة العدوانية بعيداً عن سلطة القوانين الحديثة التي استبدلت بقوانين السطوة والهيمنة دون الالتفات إلى حالة الاندهاش العالمي.

من أين أتى هذا التعسف المنفلت من عقاله؟ الإجابة المريحة والسهلة هي نظرية التفاحة الفاسدة التي تفسد التفاحة الصالحة. تجربة ستانفورد توحي بشيء أكبر من

ذلك، الشر موجود في جميع البشر مثل الظل، وهو مصطلح استخدمه لأول مرة (كارل يونغ)، هذا الظل الذي تحدده المواقف التي تشكل وعينا، التعرض لعملية تعذيب في مرحلة الطفولة قد يتم استحضاره عند التواجد مع مجموعة من الأطفال، هناك قائمة من الحالات التي تدفع الناس لفعل الشر بحسب (ديباك شوبرا) في كتاب (الأسرار)، منها: زوال الشعور بالمسؤولية، الغفلة، التواجد في بيئة متجردة من الإنسانية، رفاق السوء، المتفرجون السلبيون، الافتقار إلى المعنى، وجود الإذن الضمني لفعل الأذى، عقلية «نحن في مواجهتهم»، العزلة وغياب المساءلة(٩٦). هذه الحالات لا يقتصر تواجدها في السجون، بل قد تتواجد في أماكن وُجدت لفعل الخير، مثل مراكز العناية بكبار السن، التي قد يوجد فيها مرضى ضعفاء تعرضوا لإساءات من قبل طاقم العمل.

إن تواجد الظروف الملائمة سوف يدفع الظلّ إلى الظهور، الجميع يضمرون نمطاً فريداً من الإحساس بالعار والذنب، العُري والجماع والغضب قد يبرز مشاعر معقدة تختلف من مجتمع لآخر. كل ما يُخزن في الظلام يكون عرضة للتشويه، فعندما لا يتمكن الوعي من التدفق فإنه يتحول إلى مياه راكدة، تموت في داخله الدوافع الجيدة مثل الحب العفيف الذي قد يتحول إلى كراهية وقلق في الظروف السيئة. لدى الكثير من الناس عقبة ضخمة تتخذ شكل «الآخر» في خارج أنفسهم، في الحرب العالمية الثانية كان «الآخر» هو ألمانيا واليابان، وبعد الحرب صار «الآخر» هو الاتحاد السوفييتي، واليوم يقطن «الآخر» في صراعات الشرق الأوسط. عدم وجود عدو سيضطر هؤلاء إلى مواجهة وجود الشر داخل أنفسهم، فكم هو مريح أن تعتقد أن الملائكة تقاتل إلى جانبك لأنك في جانب الطائفة المنصورة.

إن وجود الأعداء المشتركين هو أمر غاية في الأهمية، ففكرة عالم مسالم ومنسجم لن يستمر أكثر من بضع دقائق، لا بد من خلق كبش فداء -بحقّ أو بدون وجه حق- حتى يتمكن الفرد من توجيه الآلام للخارج وحماية الآمال. ليس كافياً أن تقول لأتباعك إن غير المؤمنين أشخاص سيئون فحسب، بل عليك أن تشيطنهم وتصورهم

كأعداء للفضيلة، وكلما ازداد الخوف كلما كان ذلك أفضل، ولو كان فيه قليل من الكذب الذي يدفع الناس إلى الاعتقاد أنهم محاربون مقدسون.

يرى (شوبرا) أنه يمكن ترويض العنف من خلال تقسيمه إلي أجزاء يمكن التحكم بها، فالمشاعر السلبية تغذي بعض جوانب الظل التي يمكن التحكم بها للغاية. لطالما تخيل الناس الجانب المظلم من النفس البشرية كقوة ارتقاها الشيطان، هذا الظل معتم وسرّي يخزن الدوافع والمشاعر التي نريد لها أن تبقى سرية، الظل خطير لأن المشاعر المكبوتة تستطيع إقناعنا بأنها تستطيع قتلنا أو إصابتنا بالجنون. يستطيع الظل أن يحتجب في الأسطورة، دوافعه محاربة العقل، فهو بدائي تفوح منه رائحة المقبرة، واستكشافه يحطّ من قدر الشخص المتحضر.

يقول الباحثون إن الحرب جريمة عاطفية تنسف كل إنسانية في الإنسان عبر نسف كل مجهود لتحقيق العدل، هي عدل مسحوق وإنسانية مذمومة وكذب ممدوح وسرقة مشروعة ومملكة طغيان في داخلنا، كان (نيتشه) يقول إن الحرب هي الحالة العادية، ولا يمكننا إنجاز السلام إلا في عصور محددة، كان ينظر للسلام كهدنة ويرى في الحرب علاجاً للشعوب البائسة التي تريد تجديد ومواصلة حياتها ولا يحصل لها ذلك إلا بإشعال الحرب، جاء من بعده جنرال ألماني يُدعى (أدولف هتلر) رأى الحرب كضرورة بيولوجية لتنظيم حياة الإنسان. وقبلهم قال (ابن خلدون) في (المقدمة) إن الحرب أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمم ولا جيل، فهي أصل للوجود الاجتماعي والسياسي عند البشر، وتساعد على بناء المجتمع والملك وهي ملتصقة بالعصبية.

تُبيّن لنا تجربة قرطاج نتائج عسكرة السياسة، كانت قرطاج وروما مجتمعات عسكرية مآلها الانهيار، فقد حلّت فيها الحرب محل الحوار، وما جنت الشعوب من الجيوش العظيمة -التي كان هدفها خوض معارك لمجرد خوضها- سوى اكتساح أراضيهم ومدنهم وانهيار إمبراطورياتهم، فالمجتمع العسكري لا يمارس سوى الحرب والغزو. الحرب بالنسبة للبعض هي مرآة تعكس تطلعات الناس وربما نرجسيتهم.

الحرب العادلة هي الحرب الدفاعية التي تهدف إلى وضع حد للظلم، السياسة عند (هوبس) هي فن تحويل الحرب إلى سلام، وعند (لوك) هي فن الحفاظ على السلام ضد الحرب.

إن الميول والنزعات الشخصية هي محصلة للاعتقادات التي تتحكم بها المواقف الاجتماعية، فمعظم الناس لديهم عزوف عن إيذاء الآخرين لكن إن تم إقناعهم بأن الضرر سيكون غير موجود أو ضئيلاً، أو أنه ضروري لإحداث خيرٍ أعظم فمن الراجح أنهم سيُنحّون شكوكهم جانباً خصوصاً إذا تم تأكيد ذلك بحقيقة أن هذا الضرر هو جزء من عقوبة مشروعة، هذا بالضبط ما يتلاعب به منظّرو العنف والتطرّف حين يُحدّثون الناس عن قواعد المصالح والمفاسد والضرر المتحلل في بحر المنفعة وعمل الصالح والأصلح، ثم يُدلّلون على ذلك بأقوال «السلف الصالح» حتى يتمكنوا من إقناع مُريديهم بأنهم على منهج أصولي ثابت في الأرض ومنتشر في السماء.

1. تجربة ميلغرام

يتساءل الناس كيف يستطيع المتطرّفون المبتدئون تنفيذ أوامر قادتهم التي لا يمكن أن يقوم بها الإنسان العادي وهو في كامل قواه العقلية، ينحرون، يحرقون، يشنقون، يُغرِقون، بل وينتزعون الفتيات من بيوت أهاليهن للبغاء باسم مِلك اليمين في حرملك الخليفة وحاشيته.

إن ذلك الوضع اللاعقلاني يذكّرنا بصنيع جنود النازية حين أطاعوا أوامر قادتهم فحشروا النساء والأطفال والعجائز في غرف الغاز وهم يعلمون تماماً أن المنتج النهائي سيكون جثثاً هامدة. كتب الفيلسوف الفرنسي البلغاري (تزيفيتان تودوررف) أن ما تعلمه من جرائم النازية هو أن من يقومون بتنفيذ القانون أشد خطراً من الذين ينتهكونه. هذه السياسات عديمة الإنسانية نشأت في عقل شخص واحد، لكن لم يكن لها أن تنجح لولا إطاعة عدد كبير من الناس لها وعلى نطاق واسع، وعندما يُلقن الناس أن القتل حقّ شرعي وضروري، فإن ذلك يخلق عندهم ميلاً لقتل غيرهم رويداً رويداً، تماماً كما حصل في رواندا حين حصلت إبادة جماعية بين قبيلتي الهوتو والتوتسي في عام ١٩٩٤ وراح ضحيتها أكثر من ٨٠٠ ألف إنسان لم يملكوا الوقت الكافي ليتساءلوا لماذا قتلوا؟

لا يستطيع عالم النفس تجنب المواجهة والصدام مع التاريخ المعاصر -كما يقول (كارل يونغ)- حتى لو كانت نفسه تحجم عن صخب السياسة وكذب الدعاية ودجل الخطابة. ما يثير الغرابة هو نشاط بركان خامد ظل نائماً في بلد متحضر -مثل ألمانيا- يفترض به أنه قد تجاوز مرحلة القرون الوسطى منذ زمن بعيد، أعيد بعث تلك الروح في «حركة الشبيبة الألمانية» التي كان أفرادها شباناً متسكعين يعزفون على آلة العود وهم عاطلون عن العمل، توقفوا عن التسكع ونظموا صفوفهم في مئات

الألوف ليشكلوا حزباً أركع ألمانيا بكاملها عند قدميها بدءاً بالطفل الذي عمره خمس سنوات وانتهاء بكبار شخصيات المجتمع.

الأحداث الجسيمة في الحرب العالمية الثانية، كما يقول (يونغ)، صنعها ألمان، ومقترفو الجرائم فيها كانوا ألمان، ما من ألماني يستطيع إنكار هذه الحقيقة، وعلى الكنيسة أن تضع رماداً على رأسها وأن تمزق أرديتها بسبب ما اقترفه أبناؤها من الذنب، وعلى ألمانيا أن تقدم حساباً عن نفسها أمام ألمانيا نفسها، كما يتعين على أوروبا أن تقدم حساباً للعالم أجمع، فلا يستطيع الألماني أن يقول إنه لم يكن يعلم ما كان يحصل، فإنه بذلك يضاعف ذنبه بخطيئة انعدام الوعي(٩٧).

في محاولة لفهم السبب الذي جعل كل هؤلاء يطيعون الأوامر ويشاركون في جرائم النازية الوحشية، أجرى عالم النفس الشهير (ستانلي ميلجرام) تجربة في غاية الأهمية سجل نتائجها في كتابه (كيف تصنع الطاعة)(٩٨)، فقد دفعوا مبالغ مالية لمتطوعين من مختلف شرائح المجتمع ومن مِهن مختلفة للمشاركة في تجربة قيل لهم إنها دراسة عن الذاكرة والتعلم، وكان دور المتطوع يتلخص في لعبه دور المدرس الذي يطلب من الطالب تذكر مجموعة من الكلمات، وفي حال فشله في تذكرها يطلب المشرف على التجربة -والذي يرتدي معطفاً أبيض- من المتطوع إعطاء الطالب صدمة كهربائية خفيفة، وكلما زاد خطأ الطالب زادت شدة التيار الكهربائي الذي يجعله يصرخ من شدة الألم. لم يكن المتطوعون يعلمون أن الطلبة هم مجرد ممثلين وأن لا وجود للتيار الكهربائي في الأسلاك.

رغم أن التجربة كانت وحشية في ظاهرها إلا أن أغلب المتطوعين لم يستطيعوا الانسحاب منها بل طوروا آليات لتبرير أفعالهم، منها تحميل المسؤولية الأخلاقية عمّا يحصل للمشرف عليه، فالمتطوع ما هو إلا منفّذ للأوامر، هذا بالضبط ما اعتادت سماعه محاكم جرائم الحرب من قبل المتّهمين بارتكاب المجازر. المُلفت أن النساء لم يتصرفن بطريقة مختلفة عن الرجال، وقد أبدين ردود الأفعال نفسها. قرر كثيرٌ من

المتطوعين مواصلة التجربة لأنهم رأوا في تلك المواصلة خدمة جليلة يقدمونها للعلم، منهم من قلل من إنسانية متلقي الصدمة حيث رأى أنه لو لم يكن غبياً وتمكن من تذكر الكلمات الواجب تذكرها لما استحق العقاب، وهذا بالضبط ما يلعب المتطرّفون على أوتاره لتشجيع أتباعهم على القضاء على تجمعات بشرية كبرى.

كان من الواضح في تجربة (ميلجرام) أن الرغبة في إرضاء السلطة أقوى من الإحساس بالذنب، كان المتطوعون يرون أنه من غير اللائق ترك التجربة في المنتصف حتى لا يظهروا بمظهر من يخلف وعْده وذلك لأنهم وافقوا على المشاركة منذ البداية. الإنسان حيوان اجتماعي لا يريد أن يَهز الاستقرار، ويبدو أن خوفه من العزلة أسوء بكثير من تأنيب ضميره به أو إلحاقه أذى بغيره.

تمّت إعادة تجربة ميلغرام، وظهرت لنا عناصر جديدة في معادلة الطاعة العمياء، تقل طاعة الناس كلما بعدت عنهم السلطة التي توجه الأوامر، الرفاق المطيعون يزيدون من مقدار طاعة الناس، أما الثوريون فيقللون من هذه الطاعة إلى حدّ كبير، الامتثال للسلطة يكون عالياً بغض النظر عن الثقافة برغم وجود بعض التنوع عبر الثقافات، فلا ننسى أنه كلما اعتقدنا أننا نملك معلومات محدودة وأن الآخرين يمتلكون معلومات أكثر من التي لدينا، زاد قدر اتباعنا للقطيع حتى ننال القبول الاجتماعي بينهم. ما توصل إليه ميلغرام في موضوع إطاعة السلطة العمياء يشعرك أن الطبيعة البشرية يشوبها عيب فطري قاتل يدفعها إلى ارتكاب أشنع الأعمال.

كان توقيت عمل التجربة يوافق أيام محاكمة مجرم الحرب النازي «أدولف أيخمان» الذي لم يُلاحظ عليه أي اضطراب سلوكي وبدا شخصاً طبيعياً أكثر من المعتاد كما روت الفيلسوفة اليهودية «حنا آرندت». وصف عالم النفس التركي «مظفر شريف» تجربة ميلغرام بأنها أعظم إسهام فردي في المعرفة البشرية في مجال علم النفس الاجتماعي. كان ل «روتجر بريجمان» مآخذ على تجربة ميلغرام ذكرها في كتابه (الجنس البشري)، فرغم أنه اعترف أن تفسير ميلغرام هو الأكثر دقة وذكاء وإثارة

للقلق إلا أن تجربته تحمل عيوباً منهجية، فسجلات التجربة اكتظت بشكوك المشاركين فيها، فلا يعقل أن يتعرض شخص للتعذيب أو القتل في مؤسسة مرموقة مثل جامعة «ييل»! وقدر «بريجمان» أن نصف المشاركين انسحبوا من التجربة لاعتقادهم أن زائفة.

في تجربة أخرى، قامت عشرون ممرضة -وبأوامر مباشرة من الطبيب- بإعطاء جرعة كبيرة من دواء (الأندروجين) تساوي ٢٠ ملّ بالرغم من أن الورقة الملصقة على الدواء تحذر من تناول أكثر من ١٠ ملّ، وهذا دليل على ميل الناس للإذعان للسلطة العليا، حتى لو كان ما تأمر به واضح الخطأ. إن حاجة البشر لطاعة السلطة كثيراً ما تتغلب على تعليمهم وتربيتهم وأخلاقهم وإرادتهم، فسلطة الإيديولوجية سواء أكانت نابعة من العلم أم الدين أم كاريزما القائد، قادرة على إثارة الرعب في نفوس أتباعها الذين صاروا يتصرفون باسمها، فإذا كانت هناك قضية كبيرة بما يكفي فسيصبح تعذيب الآخرين له ما يبرره دون صعوبة كبيرة.

يُنقل عن (سارتر) تنبيهه إلى اللغة التي يتحدث بها المستعمِر عن المستعمَر، وهي لغة مستخدمة في وصف الحيوانات «زحف العرق الأصفر»، «أرواث المدينة الأصلية»، «قطعان الأهالي»، وهي تشبه ما يستخدمه المتشددون مثل «أبناء القردة والخنازير». هكذا يتمكن الخطاب التحريضي من تجريدهم من إنسانيتهم ومن ثم يتخلص منهم بدم بارد تحت شعار الاصطفاء الإلهي أو التميز العرقي. التربية على العنف بذريعة توجيه العنف ضدّ الأعداء تتسبب في ارتداد العنف على المجتمع نفسه كما يقول الكاتب ممدوح عدوان في (حيونة الإنسان).

كيف يستطيع الديكتاتور توفير عناصر ارتكاب المجزرة؟ يجيب دكتور (ميلغرام) بأن ذلك يتحقق بتوزيع المهام والمسؤوليات حتى لا يشعر كل منهم بأنه هو من نفّذ المجزرة، بل ينفّذ أمراً محدداً صدر إليه فيخفف ذلك العبء الناجم عن مسؤولية القتل، ويمثّل عدوان لذلك بمجزرة (صبرا وشاتيلا) في إبان الحرب الأهلية اللبنانية،

فبعد أن أُجبر المقاتلون الفلسطينيون على الخروج من لبنان. طُوقت مخيمات اللاجئين من قبل أعداء طغت عليهم نيران الانتقام، دخل الجناة المخيم ليواصلوا ارتكاب مجزرة استمرت ٣٦ ساعة قتلوا واغتصبوا وعذبوا وأحرقوا وشنقوا وتراهنوا على من يقتل أكثر(٩٩).

خلال الحرب كان تشرشل يرسل الجنود الأستراليين -الذين يعدّونهم أبناء غير شرعيين ومجرمين- إلى سنغافورة لمواجهة الأخطار، وهذا يشبه ما تفعله قيادات القاعدة و«داعش»، حيث يوكِل علية القوم مهام العمليات الانتحارية إلى الرتب الدُنيا ويحجمون هم عنها رغم الوعد المؤكد بدخول الجنة فوراً.

توصل الكاتب (بيرنهاردت هروود) إلى نتيجة مفادها أن الشعبية التي يتمتّع بها أي كتاب إنما تعكس ذوق المجتمع الذي يُروج فيه، لذلك صارت لدينا رغبات خفية لممارسة العنف أو مشاهدته، وهذا العنف غير المُشبع يبحث دوماً عن ضحية بديلة يحل عليها غضبه. يرى (إيريك فروم) أن رغبة الإنسان في الثأر هي تصعيد لوضعه الشخصي، بحيث يعدّ نفسه فارضاً للقانون ويضع نفسه في مكانة شبيهة بالخالق، وقد يختلق له رموزاً دينية مثل صلب المسيح ومقتل الحسين ليلبسه صبغة دينية تسوّغ له إيذاء نفسه أو غيره.

إن الإنسان يبحث عن الدراما والإثارة في الحياة، وحين لا يحقّق الاكتفاء بهما من مستويات سامية فإنه يخلقهما لنفسه من خلال دراما التدمير التي تحقق إثارة لنفس المُدمّر وتخلق إثارة للآخرين الذين يستمتعون بمشاهدتها أو المشاركة فيها كما يقول فروم. نكون في منتهى السذاجة إذا خطر لنا أن من يقومون بالأعمال الوحشية يكترثون ببراءة ضحاياهم، فهم إما يعدّون أنفسهم أدوات الانتقام الإلهي أو منفذو العدالة العمياء.

في لبنان مارس القتل على الهوية الدينية طلبةٌ يافعين يلبسون ويتراقصون على أنغام الأغاني الأجنبية، كذلك وُجد أساتذةٌ قتلوا طلابهم في راوندا وجيران يقتلون

جيرانهم في البوسنة، كل هذه المجازر حصلت بسبب الطاعة العمياء للسلطة المُطلقة، وحصلت بسبب تلذذ الشخص بإحساسه أنه مثير للخوف وأن أوامره مطاعة وأن من حوله هم رهن إشارته. يرى (ميشيل فوكو) أن السياسي الماهر هو الذي يستطيع تقييد من هم حوله بسلاسل أقوى من سلاسل الحديد عن طريق أفكارهم أنفسهم، وهو يستمد قوته من كونهم لا يعرفون المادة التي صُنعت منها تلك السلاسل.

مجنّدو الإرهاب يتربّون في بيئة معزولة معنوياً عن المجتمع الطبيعي ومفصولة تماماً عن المقبول أخلاقياً به، فيتعلمون تَشرّب مفردات الولاء والبراء حتى يُصدِّقوا أنهم يحاربون من أجل قضية عظيمة، في نفس الوقت يرضعون الخوف الهائل من عصيان الأوامر الذي يُعد عصياناً مباشراً لأوامر الله وقد تكون عاقبته فصل الرقبة عن بقية الجسد ثم الانغماس في نار جهنم، هدف قادتهم هو تحطيم أيّة بقايا للتفرد والذاتية حتى تزداد قدرتهم على القيام بأفعال بشعة، مضافاً إلى ذلك النهج ما تعلموه من مناهج متناثرة في الأدبيات المتشددة التي تُبرر قتل الآخر بشروط فضفاضة يستطيع تطبيقها صاحب السلطة حقيقية والمصطنعة على حد السواء.

سيكولوجية الجماهير

(غوستاف لوبون) هو عرّاب علم نفس الجماهير في العصر الحديث، وكثير ممن كتبوا في هذا المضمار إما استنسخوا كلامه وإما جعلوه توطئة لنظرياتهم.

هناك عوامل عدّة قد تدفع الجماهير إلى التحمس لممارسة التطرّف والإرهاب، يحفل التاريخ بوصفات كثيرة لإثارة الجماهير وإذعانها والتلاعب بها، تحدث (لوبون) عن بعض تلك العوامل مثل(١٠٠):

عامل العِرق: الذي يقدم مقترحات تحريضية للناس ضدّ الأعراق المختلفة عنهم.

عامل العادات والتقاليد: الذي هو تجسيد لمتطلبات العرق، الجماهير هي أكبر قوة قادرة على الحفاظ على الأفكار التقليدية والدفع بها إلى السطح مهما كانت بالية.

عامل الزمن: الذي هو كفيل بتهيئة عقول الجماهير لترسيخ العقائد، وهو الكفيل بتدميرها أيضًا، وبفضله تخرج الأنظمة من إعصار الفوضى والثورات.

عامل المؤسسات السياسية والاجتماعية: الذي ينظّم العوامل الخارجية والداخلية.

كفاحي

إذا كان (لوبون) منظرًا أكاديميًا لا يستطيع إقناع بضعة أفراد بأفكاره في خطبة عامة، فإن (هتلر) كان منظرا عمليًا استطاع أن يأخذ الملايين من الجماهير الألمانية إلى الموت وهم واثقون بخطاهم. يقول هتلر إن السواد الأعظم من الناس لا يتألّف من أساتذة ودبلوماسيين، فمن العبث محاولة ضمّهم إلى الحظيرة باستخدام النظريات العلمية، هذا السواد يُقاد بالعواطف، والإيمان فيه أقوى من العلم، ولا يتحفز للعمل إلا لمصلحة قوّة ذات

وجهة صريحة غير مترددة، ويرى السوادُ مهاجمةَ الخصوم بعنف واجبًا مقدسًا، ويرفض التسامح إزاء الذين يريدون فعلًا السير عكس إرادته.

تكمن قوة المنظمة الكبرى في التعصّب ضدّ كل ما هو خارج منها، ولا يجوز إيجاد التسويات بين التعاليم المختلفة. التسامح ليس من شيم أصحاب العقائد، فالعقائد تأبى أن تكون حزبًا من جملة الأحزاب، بل تطمح إلى فرض مبادئها ونظرتها إلى الكون دون السماح ببقاء أثر واحد من النظام القديم. يقول هتلر إن سحر مكة وروما يمدّ الإسلام والكاثوليك بقوّة مبعثها الوحدة الداخلية وخضوع المؤمنين لرمز هذه الوحدة، لذلك يجب إحاطة المكان الذي انطلقت منه الفكرة بهالة من القدسية تجعله محجّة للأنصار ورمزًا لوحدتهم.

يتابع هتلر، من أجل الحصول على نتائج مشجعة، ينبغي إيجاد خطاب واحد لمعسكر السواد والمتعلمين، التفاوت الملموس في المستوى الفكري يجعل الدعوات البسيطة غير ذات بال عند المتعلمين لاشتمالها على حقائق بديهية، في حين أن أفهام غير المتعلمين تقصّر عن إدراك مغزى الدعوات الكبيرة، إذا لم تعتمد الدعوات بساطة التعبير فإنها ستفشل في إثارة عواطف السواد، لا يمكن نشر أكثر الأفكار قوة وجمالًا إلا بتبسيطها، ويجب اتباع مبدأ وحدة الأسلوب مع الجماهير التي تنتمي إلى طبقة معينة، لا ننسى أن هذه الجماهير تستطيع هضم التعاليم السطحية فقط بينما ستلفظ التعاليم العميقة والمُعقدة.

آخر من تحتاجه في جماعتك الخاصة هو مفكّر ينتقد خطيبًا لم يشرح فكرته بصورة علمية، ما تحتاجه هو مفكرٌ يفهم رسالة الحزب ويقدّر ظروفه، على الجماعة أن تنتقي من فلسفتها مبادئ معينة وتشرحها شرحًا يجعلها قريبة من أفهام السواد، وليس مفروضًا أن يكون مشبعًا بكل مبادئ الحركة ومدركًا لما يجول في عقل الزعيم، المهم أن يكون الجمهور مؤمنًا بانتصار الحزب وعقيدته وقدسية قضيته التي يحاربون من أجلها، ولا يجوز التسرع بإنشاد فروع للحزب قبل رسوخ سلطة الحزب في المركز الرئيسي.

كذلك يضيف هتلر أنه من الخطأ الظن بأن التشبع بالعلوم النظرية كافٍ لأن يؤهل المرء لاحتلال المركز الأول، فكبار المفكرين قلما ينجحون في حقل التنظيم، لأن عظمة المفكر

تقوم على المعرفة وسن الشرائع العادلة، أما المنظِّم فيجب أن يكون رجلًا عمليًّا عارفًا بنفسية البشر، يندر أن يتحلى المفكر بصفات الزعامة، فالزعيم تجده في صفوف المُحرّضين الذين يكونون أعرف بنفسية الجماهير بفضل احتكاكهم بهم، أما المفكر فهو في معزل عن الناس(١٠١).

«الكوكي»

تدل كلمة «كوكي» اليابانية على الظاهرة الذهنية للمزاج العام عند اليابانيين، وهي تشكّل سمة تتحكم في سلوكهم(١٠٢). اعترف القادة العسكريون اليابانيون وزعماء الحكومة السابقون بأنهم لا يستطيعون إيقاف التحرك تجاه الحرب أو الحيلولة دون وقوع العمليات الانتحارية بسبب هذا الـ«كوكي». يزعم البعض أن هذا المزاج هو من جرّ اليابان إلى حرب مدمرة، إنه ظاهرة خادعة تتجاوز التعليم والعقلانية والمعطيات والتفسير العلمي. يتكون «كوكي» من ثلاثة عناصر أساسية: السياسات الحكومية، وسائل الإعلام الجماهيرية، والمواقف العامة. اجتمعت هذه العناصر في حالة النظام الإمبراطوري الياباني الذي استعاد الأقاليم الشمالية من روسيا، ما منح حصانة ضدّ النقد للنظام الإمبراطوري.

إن «كوكي» يشبه مناخ الرأي الذي تتلقى فيه الأقلية الضغط -من خلال التصويت والمظاهرات والاحتجاجات والتهجمات اللفظية- إلى درجة لا تستطيع معه إلا أن تُسلم نفسها للأغلبية في سبيل تشكيل «الإجماع الوطني». عندما تغيب شخصية الفرد أمام الجماهير الغاضبة، لا تستغرب انخراط نخب ثقافية خلف آراء الجمهور حتى لو كانت لا عقلانية، فهم قد يرتعدون من مخالفة الجمهور الذي سيدفعهم بعيدًا عن أداء دور توجيهي للرأي العام.

ذوبان الفرد في الجماعة

سيكولوجية الجمهور تختلف كثيرًا عن سيكولوجية الفرد الواحد. الجماهير عند (لوبون) لا يمكن اعتبارها مجرمة ولا فاضلة مُسبقًا، فهي قد تكون مدمّرة أو بطلة بدون مصلحة، وليست دائمًا محبة للشغب والنهب كما يقول آخرون.

يُعدّ الماضي حاضرًا بقوة في مخيلة الجماهير أكثر من حضور الحاضر والمستقبل، الجماهير -مهما كان دينها أو ثقافتها- بحاجة إلى قائد يفرض كلامه بالهيبة والسحر الشخصي أكثر من الحجج العقلية والمنطقية، فبإمكان القائد الناجح ممارسة عملية تنويم مغناطيسي جماعي للجماهير. الجماهير لا تعقل الأفكار كما يعقلها الفرد الواحد، فقد ترفض الأفكار جملة واحدة أو تقبلها جملة واحدة من دون تحمّل مناقشتها، وقد يدفعها ذلك إلى ترجمة الكلام إلى أفعال وأعمال في الواقع، هي لا تعرف سوى العنف الحاد، وتميل إلى تشكيل الفكرة بواسطة الصور المدعمة بالسحر والخرافة والمعجزات والمبالغات.

الجماهير عندها قابلية للتمرد على السلطة الضعيفة، وإذا كانت هيبة السلطة متقطعة فإن الجماهير تستطيع الانتقال من العبودية إلى الفوضى بسرعة كبيرة، وخير مثال على ذلك مجزرة (سان بارتيليمي) في فرنسا في القرن السادس عشر، إذ بمجرد صدور الأوامر الملكية ودقّ أجراس الكنائس الكاثوليكية المتعصبة انقضت الجماهير المشحونة على البروتستانت وقتلت منهم آلاف الناس بسبب غياب السلطة المانعة لذلك.

لاحظ علماء النفس أن الفرد بمجرد انخراطه في جمهور معين يبدأ باكتساب سمات خاصة لم تكن ظاهرة عليه، فعلم النفس الفردي يختلف عن علم نفس الجمهور والجماعي Collective Psychology. قدم فرويد أعمالًا لم يُلتفت إليها كثيرًا -مثل (علم النفس الجماعي وتحليل الأنا)- تحدثت عن ظاهرة الجماهير بعدما رأى الحشود وهي تستمع وتهتاج بمجرد سماع خطب هتلر وموسيليني قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، وبيّن في كتبه أوجه التشابه بين الطقوس الشعائرية والممارسات الهوسية، يرى فرويد أن لبّ الأزمة يقع في أعماق الفرد والجماعة معًا. وكان في دراسته يحاول ردم الفجوة التي تفصل علم

النفس الفردي عن الجماعي. يرى المؤرخ الفرنسي (روبير ماندرو) أن النفسية الجماعية لمجموعة ما ليست هي مجموع النفسيات الفردية لكل عضو في الجماعة.

في الماضي، كانت الإيديولوجيات الدينية تدفع الجماهير في اتّجاه الحرب كما حدث مع الحروب الصليبية والدعاية العباسية الثائرة على الدولة الأموية. مع انتشار العلمانية في أوروبا حلت الأفكار السياسية محل الأفكار الدينية وصارت الأحزاب السياسية هي التي تهيج الجماهير وتنزله إلى الشارع، هذه الجماهير تحمل نفس الخصائص النفسية للجماهير التي كانت تتلقى الخطب الدينية.

الجماهير في حالة الترقّب ستبحث بدون أن تشعر عن شائعات تسدّ بها فراغ الترقّب، ومن ثم ستنتقل العدوى بسبب غياب الحسّ النقدي عند الجماعة ككل، وقد تكون شهادات الجماهير بعضهم لبعض ضربًا من الأوهام التي تسربت إليهم من الشائعات، ومن ثم تتحول -بسبب العقلية التبسيطية للجماهير- إلى حقيقة ومسلمة لا تقبل النقاش. الوقت الذي تترسخ فيه الأفكار في أذهان الجماهير قد لا يقل عن الوقت الذي يجب أن تخرج فيه من مخيلتهم.

السؤال الذي يجب التعرض إليه: هل الثورة الرقمية ستحل محل الثورة الجماهيرية؟ ففي وسائل التواصل الاجتماعي تفتقد جموع المتابعين قائدًا قادرًا على احتواء حالات الغضب والهيجان، فتكفي فكرة بليغة صادرة عن قائد هامشي لاشتعال عواطف الجماهير، والتي تحتاج إلى ركائز ثلاث -ذكرها لوبون قبل ظهور (تويتر) بعقود- وهي التأكيد، التكرار، والعدوى، بالإضافة إلى الهيبة الشخصية أو الكاريزما.

ذكر لوبون أمثلة على شخصيات كاريزمية مثل بوذا ونابليون، وأنبياء مثل عيسى ومحمد عليهم السلام، هؤلاء كانوا أبطالًا بفضل هيبتهم وقدرتهم على الإقناع. يتخيل كثير من المتطرّفين أنفسهم مصلحين عالميين يستلهمون مبادئ القيادة من الأنبياء والحكماء، ويعدّون أي نقاش أو نقد لأفكارهم سرًّا أو علانية قد يساهم في تلاشي أفكارهم السياسية والدينية ويؤدي إلى اضمحلالها، لذلك هم يرفضون أن ينكشفوا أمام الجماهير أو يُحرجوا

بمناظرة مباشرة أو حوار، لذلك كانت رسائل ابن لادن ذات اتجاه واحد موجّه إلى الجماهير المتعطشة للانتقام.

الضوضاء الاجتماعية

صاغ الباحث الأمريكي (بيتر سمونسون) مصطلح «الضوضاء الاجتماعية»(١٠٣) للإشارة إلى قدرة الإرهاب على خطف الانتباه وإثارة الجدل وخلق ضوضاء اجتماعية يصير فيها الجمهور الإرهابي في تواصل مستمر مع المنفذين عن طريق وسائل الإعلام والترميز والتشفير والتغذية الراجعة، ويصبح الموت أداة لنقل الأفكار والإيديولوجيات. يمكن تحقيق الضوضاء الاجتماعية من خلال شريط فيديو حماسي على شبكات التواصل الاجتماعي، أو سرد سيرة ذاتية لشهيد بطريقة ملحمية، أو تسجيل صوتي لقائد مُلهم في التنظيم، قديمًا قال الفيلسوف الصيني (لوو تشي): «اقتل رجلًا واحدًا لتروّع ألفًا»، وهي نفس العبارة التي كان يرددها (ماو) قائد الحزب الشيوعي الصيني.

في القرن التاسع عشر كان الديناميت هو وسيلة خلق الضوضاء من أجل دحر العدو وإحداث تغيير اجتماعي، يماثله في العصر الحديث الهجوم الانتحاري الذي قام به حزب الله ضد جنود المارينز في عام ١٩٨٣، والذي خلق ثمانية أنواع من الجماهير كما يقول الباحث (جوناثان ماتوسيتز):

1. المتلقّي الأول للصدمة وهم الجنود المقتولون.
2. الجمهور اللبناني الذي شهد الحادثة وتحليلاتها وتداعياتها.
3. ممثلو الحكومة الأمريكية الذين شعروا أنهم مضطرون إلى الرد على الهجوم الانتحاري وتطمين شعبهم.
4. المؤسسات الإعلامية التي تناولت الروايات المختلفة حول التفجير.
5. حلفاء الولايات المتحدة كفرنسا التي شنّت غارة في لبنان بعد الهجوم بسبب مقتل بعض جنودها في الحادثة.

6. أعضاء حزب الله أنفسهم.
7. المنظمات القتالية المنافسة التي تتنافس من أجل الدعم والشعبية والأموال.
8. المجتمع المسلم في العالم المعني بهذه الضوضاء والذي ينشد طيفٌ كبير منه كبح الهيمنة الأمريكية في العالم.

كل حدث انتحاري يخلق مجموعة من هذه العناصر التي تتفاعل فيما بينها، وقد يطغى على تفاصيلها قائد يحمل كاريزما مقلقة مثل أسامة بن لادن الذي يمكن اعتباره مثالًا حيًا على مصطلح «المؤمن الصادق». كان (غازي القصيبي) مشغولًا بسؤال: «لماذا يصبح الإرهابي إرهابيًا؟» إلى أن وقع كتاب (المؤمن الصادق) لـ(إريك هوفر) في يده، فبادر إلى ترجمته إلى العربية في عام ٢٠٠٩، ورغم أن الكتاب صدر أصلًا في عام ١٩٥١ حين شهد العالم اكتساح الحركات النازية والفاشية والشيوعية للقارة الأوروبية وقبل تفشي ظاهرة الإرهاب بالشكل الذي نراه عليه اليوم، إلا أنه من أكثر كتب علم النفس ارتباطًا بالحركات الدينية المعاصرة ذات التأثير الفُجائي.

ظاهرة استقطاب الجماعة

ظهر أسامة بن لادن في شريط -تم تصويره قبيل أحداث ١١ سبتمبر- ينصح فيه صفوة مجاهدي القاعدة بأن يُحدّثوا أنفسهم بالعمليات «الاستشهادية» باستمرار حتى يستقرّ فعلها في قلوبهم ويزول الخوف الطبيعي الناتج من إقدام شخص على إنهاء حياته بنفسه. كل ما كان يفصل القاعدي عن الجنة وحور عينها هو ارتطام طائرة ببرج، بالنسبة إلى التسعة عشر خاطفًا كان ذلك البرج هو بوابة الدخول إلى الجنة، الأخطر من ذلك أن ما قاله ابن لادن متداول في أدبيات مجاهدي المُكيّفات، فترى كثيرًا من الوعاظ يقول لمن حوله: «حدثوا أنفسكم بالغزو، تمنوا الغزو، علموا أولادكم هذا، تمنوا الموت في سبيل الله». بعد هذا الشحن والاستنفار اللغوي والعاطفي، لنا أن نتساءل كيف وصل الانتحاريون إلى تلك القناعة المطلقة؟

بحسب إيديولوجية ابن لادن فإن الأمر يبدأ بتكرار حديث النفس، ثم يتحول هذا الحديث إلى قناعة راسخة، والتي بدورها تتحوّل إلى منظومة إقناع ممنهجة تستقطب المريدين من حولها. يقول الباحثون إن المتعصبين البيض يميلون إلى إظهار التعصب العِرقي بعد أن يتحدثوا بعضهم مع بعض، والمتسامحين البيض يظهرون قدرًا أقل من التعصب بعد أن يتحدثوا بعضهم مع بعض، واللصوص -الذين يَسْطون على بيوت الآخرين- يكونون أكثر حذرًا عندما يتحدثون بعضهم مع بعض، والقضاة المتشابهين في نمط التفكير قد يتشددون في الأحكام إذا ما تحدثوا مع من يشبهونهم من القضاة، كما أظهرت إحدى القراءات الاستقرائية لأحكامهم، والأطباء في الفريق الطبي أكثر ميلًا إلى الإقدام على جهود بطولية من أجل المريض مِن أنهم لو كانوا بمفردهم بسبب عدم رغبتهم بالظهور بمظهر المتخلي عن مريضه.

هذه الظاهرة سمّاها أستاذ القانون في جامعة هارفارد (كاس سينشتاين) بظاهرة «استقطاب الجماعة»(١٠٤)، إن الشواهد تخبرنا بأن الجماعة ككل أكثر عدوانية من الأفراد الذين يشكلونها، والاستقطاب إلى الاتجاه المُشابه لتكوين الإنسان الفكري يستطيع الكشف عن معتقدات ورغبات خفيّة، لم يكن الشخص ليستكشفها أو يُظهرها ما لم يجد جماعة تُشاطره نفس نمط التفكير. في نفس الوقت يستطيع هذا الاستقطاب إضافة معتقدات ورغبات جديدة قد تصل بالشخص إلى أقصى حدود التطرّف، ثم عندما تنجح تلك الجماعة في فرض سلطة على الفرد فإنها ترسم له أدواره الاجتماعية.

ما إن يشارك المتطرّف الحديث مع من يشاركونه رؤيته، حتى يتشجع لاتخاذ مواقف متطرّفة داخل الاتجاه العام للجماعة. ترى المتطرّف ميالًا إلى المجازفة والمخاطرة بمجرد كلامه مع أفراد آخرين ميالين إلى نفس التوجه الثائر، يميل إلى أن يضحي بحياته من أجل جماعته حتى لا يظهر بصورة الأناني، ويرتفع مُعدّل الوحشية عنده كلما ارتفع عند الآخرين، وتصبح آراء الفرد أكثر تطرّفا إذا ما كانت تؤكد وجهات نظر سابقة، كتلك المبثوثة في كتابات منظري التنظيمات المتطرّفة المعاصرين كأبي

محمد المقدسي وأيمن الظواهري، وعادة ما يحرص الأفراد على الحفاظ على سمعتهم الشخصية والتي تستمد وقودها من مسايرة الحشود المؤيدة حتى يحافظوا على حسن ظنّ الآخرين بهم.

يسعى الناجحون إلى البحث عن الاتجاهات المختلفة والأفكار الجديدة، مكّن الإنترنت الناس من الحصول على هذه الميزة، ففي كل يوم يقوم الناس باختبار أحكامهم الشخصية بمواجهة أحكام الآخرين الذين لا يشبهونهم، لكن هناك فئة تبحث عن الناس الذين يشبهونهم في القيم حتى يتعايشوا معهم داخل نفس الشبكات الاجتماعية. خلق الإنترنت بيئة ملائمة للأنماط المتشابهة في التفكير. في عصر العولمة الإلكترونية صارت المدونات والمنتديات والرسائل الإلكترونية هي ساحة البطولة التي يردّد فيها المتطرّفون أقوالهم بينهم، فيُهيئون المؤيد الخامل للترقي في درجات العنف حتى يكون مستعدًّا للانضمام إلى أول تنظيم متطرّف يُصادفه في صفحات الإنترنت كما نوّه (مارك سيجمان) في كتابه (جهاد بلا قيادة)(١٠٥)، ما يَعتقد به المُتلقي يتأثر بتبادل المعلومات والتواصل في المواقع الإلكترونية التي تتولى عملية الاستقطاب، لذلك لا تستغرب وجود ١١٪ من الكويتيين فقط يعتقدون أن القاعدة ضالعة في تفجير أبراج نيويورك، في حين أن هذه النسبة تصل إلى ٩٣٪ عند الأمريكيين.

حاول هتلر خلق عضوية الجماعة بالتأكيد على ما كابده الشعب الألماني من معاناة واتفاقيات مجحفة في الحرب العالمية الأولى، فالإذلال يشكل السخط، هذا السخط تم تشكيله وإدارته بنجاح في مواقع الإنترنت المتعاطفة أو المؤيدة للفكر المتطرّف، كثير ممن دربتهم القاعدة كانوا يشاهدون أفلام فيديو يوميًّا تتضمن مئات الساعات التي تظهر المسلمين وهم يعيشون في مكابدات رهيبة من شظف العيش في فلسطين والبوسنة والشيشان والعراق، ومن خلال الإنترنت قاموا بجهد ضخم لربط أتباعهم في جميع أنحاء العالم بعضهم ببعض من أجل إظهار الأمة بمظهر الاستعباد والذلّ والعجز، هذا الهدف جعل لتنظيم القاعدة رسالة تهدف إلى إذكاء روح الجهاد

عند غير المنتسبين إليهم تنظيميًا بفضل شبكات صغيرة من الأفراد. وجد (مارك سيجمان) أن كثيرًا من هؤلاء الأفراد من المغتربين -من أبناء وأحفاد المهاجرين- انضموا إلى منظمات إرهابية أثناء إقامتهم في دول لم ينشؤوا فيها، ومن الدوافع التي دفعتهم إلى عداء البلد المضيف هو ما يشاهدونه من انتهاكات أخلاقية ضد المسلمين في مكان آخر.

إن الوفرة المفرطة التي تقدمها الوسائل الجديدة تتيح فرصة التفاعل ومتابعة من يشبهوننا مع عدم القدرة على الوصول إلى المعلومات المغايرة والمخالفة. في عالم الإنترنت يرغب الفرد في أن يراه الآخرون بعين الرضا لا سيما في المجموعة التي ينتمي إليها، ومن أجل تحقيق ذلك عليه العمل على تبني الآراء المنسجمة مع الأغلبية ولو مع مبالغة في طريقة الطرح كما ينقل «ألبيرتو أتشيربي» في كتابه (التطور الثقافي في العصر الرقمي)، فمثلًا عندما تريد التحذير من الإنتاج الصناعي للحيوانات -الذي له أضراره المعروفة- فازعم أنه أحد أكبر التهديدات البيئية في القرن الواحد والعشرين وهكذا يبتلع الشعار الحقيقة كلها ويخفيها عن أعين الناس. في عام ١٩٧٦ صدر كتاب (لم نذهب بتاتًا إلى القمر: خدعة الثلاثين مليار دولار أمريكي)، وكما هو واضح أراد مؤلفه نسف فكرة الوصول إلى القمر عن طريق طرح أسئلة تشكيكية من قبيل أين ذهبت النجوم -حول العلم الأمريكي- في سماء صافية خارج الغلاف الجوي؟ وألم يكن من الواجب أن تكون أكثر وضوحًا من رؤيتها من سطح الأرض؟ نجحت نظرية المؤامرة في التغلغل في عالمنا قبل ظهور مواقع التواصل الاجتماعي، والتي ما كانت سوى أداة استقطاب لها، فبالأمس كان الحديث حول خديعة غزو القمر واليوم الحديث حول خديعة اختلاق مرض السرطان والجوائح المعدية(١٠٦).

إن دور الإنترنت لا يمكن ضبطه، فغرف المحادثات والمنتديات المتطرّفة هي بؤر تفريخ للإرهاب بعيدًا عن رقابة المؤسسات والمجتمع، ومن خلال الإدلاء بالأصوات والتحكم في فأرة الكمبيوتر ينتقون الآراء التي تعجبهم. عندما يتم تكرار وجهات

نظر المتشددين وتداولها باستمرار فإن هذه الآراء تتحول إلى وجهة نظر سائدة حتى لو كانت في منتهى الوهن والسطحية واللاعلمية، فالعقل الجَمْعي للجماعة الواحدة ومن يستمع إليها ومن يستلطف بعض كلامها -حتى لو لم يكن منتميًا إليها- يخترق جميع حدود الحقيقة ليقلبها إلى صيغة هُلامية باطلة، فيُضلّ نفسه ثم يستقطب مَنْ حوله إلى تلك المتاهة التي قد تنتهي به كلغم مُتفجر في حياة الآمنين من حوله.

المتطرّف الصادق

الخطة التكتيكية التي يتبعها أصحاب المذاهب السرية، كما ذكرها الغزالي في كتاب (فضائح الباطنية)(١٠٧)، هي: التفرس والمؤانسة والتشكيك والتعليق والربط والتدليس والتلبيس والخلع والسلخ.

تعمل الحركات الجماهيرية في مرحلتها الدعوية على إيجاد عقل جماعي محبط تنطلق من خلاله إلى تحقيق أهدافها، المشحون بالأمل يستمد قوته من أغرب المصادر والشعارات والكلمات، فالأمل فاعل محرك إلى الهدف، تغيير الأمة لا يكون بتوليد التذمر واستثماره بل بإيقاد الآمال الجامحة. لا تجذب الحركات الجماهيرية الذين يحبون أنفسهم ويسعون لتطويرها بل تجذب الذين يودّون التخلص من أنفسهم. ينزع الإنسان إلى الاهتمام بشؤونه الخاصة عندما تكون جديرة بالاهتمام، أما عندما لا يملك شؤونًا حقيقية فإنه ينزع إلى نسيان شؤونه التي فقدت معناها ويبدأ بالاهتمام بشؤون الآخرين.

بعد هزيمة ألمانيا القيصرية في الحرب العالمية الأولى، تشكلت جمهورية (فايمار) الديمقراطية. استاء منها الألمان بسبب تعودهم على سماع الأوامر من أعلى وتنفيذها دون التفكير في المساهمة الفاعلة في نظام الحكم مثلما يحدث في حكومات أوروبا الديمقراطية، كان الألمان يتطلعون إلى نظام شمولي ذي رأس واحد، فجاء الرايخ

الثالث وجاء هتلر ليتخذ كافة القرارات بالنيابة عن الجميع ويقوم بجميع المهام أيضًا بالنيابة عن الجميع.

قد يربط البعض بين الفقر والتطرّف، لكن ذلك ليس مطّردًا، فمن يعيش في فقر مدقع لا يمتلك وقتًا سوى للكدح والنوم بمعدة ممتلئة. توصلت دراسة للمجتمع الفرنسي قبل الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر إلى أن أكثر السنوات رفاهية كانت السنوات العشرين التي سبقت الثورة، فالفرنسيون لم يزدَد تذمرهم إلا مع ازدياد رخائهم كما قال المؤرخ الفرنسي (دي توكيفيل). يرى (هوفر)(١٠٨) أن الفقراء فقرًا مدقعًا ليسوا مرشحين للانضمام إلى الحركات الجماهيرية، فبحثهم عن أسباب الحياة كالطعام والمأوى والملبس لهم ولعائلاتهم يشغلهم عادةً عن الالتحاق بالتنظيمات الجهادية، وكما ذكرنا سابقًا، وخلافًا للاعتقاد الشائع من كون هؤلاء الأفراد انحدروا من بيئات فقيرة ومتخلفة، فإن الباحثين قد لاحظوا أن كثيرًا من أفراد هذه التنظيمات ينحدرون من الطبقة المتوسطة التي تعيش حياة ميسورة، وكثيرٌ منهم تلقوا تعليمًا جامعيًا محترمًا وتأهلوا ليكونوا معلمين وأطباء ومهندسين وفنيين.

من اللافت أن الحركات الجماهيرية تمتلك موقفًا معاديًا لمفهوم الأسرة، ذكر القصيبي أن أحد المثقفين تحدث عن تجربته التي قادته للتطرّف وجعلته يكره أسرته لأنه رآها غارقة في الموبقات، فهجرها إلى الجماعات المتطرّفة التي حولت نفسها إلى ملجأ للمحبطين والمتذمرين عن طريق تحرير نفوسهم المحبطة وضمّها إلى مجموعة سعيدة شديدة الترابط.

من المفارقة أن قادة التطرّف يدعون أتباعهم إلى الحبّ والتواضع وهم أبعد ما يكونون عن ذلك كله، وكثيرًا ما يكونون أنانيين أنانية مفرطة دفعتهم إلى فقدان الثقة بأنفسهم، فسخّروا سلاح أنانيّتهم الفردية لخدمة قضية «مقدسة»، وبما أنهم

عاجزون عن التأقلم مع محيطهم، فإنهم يجدون في تلك القضية المقدسة ملاذًا من الجهد الفردي البعثي.

مصدر الملل هو شعور الإنسان بالخواء من الداخل، ومن لا يشعر بالعزلة عادة لا يشعر بالملل، لا يملّ الإنسان إذا كان منهمكًا في عمل إبداعي أو في مهنة تستهلك طاقته، لكن عندما ينعزل الإنسان فإنه قد لا يتمتع بأية مواهب أو فرص للإبداع فيلجأ إلى تصرفات غريبة وتقلبات مدهشة من أجل خلق معنى لحياته. المجرم الذي ينخرط في قضية مقدسة يصبح أكثر استعدادًا للتضحية بحياته والقيام بأعمال عنيفة، والحركة الجماهيرية -أحيانًا- تكون مصمّمة لتلائم احتياجات مرتكبي المعاصي ليطهروا أنفسهم.

لا بد من خلق مفهوم المجد عند الجماعات المتطرّفة، فلا تتأثر نفس الفرد ما لم يؤمن أن أعماله ستصل إلى أسماع الأجيال اللاحقة التي لم تُولد بعد، ومن أجل ذلك سيضحّي بنفسه من أجل الخلود المعنوي الذي سيرسمه عمله البطولي، هذا ما صنعه هتلر مع الثمانين مليون ألماني، وهذا ما فعله تشرتشل حين تعرضت لندن للغزو الألماني، نجح الزعيمان في إلباس شعوبهما دور الأبطال والدفع بهم للتضحية والقتال بكل ما أوتوا من قوة، فللخيال دور كبير في تلطيف قسوة القتل والموت. إن فاعلية عقيدة ما -عميقة كانت أو سطحية- لا تنبع من مضمونها، لكن من عصمتها من الخطأ وإيمان أصحابها بأنها تحمل الحقيقة الكاملة، وليس من الضروري أن يفهمها المرء لكن الأهم أن يؤمن بها.

يتساءل البعض كيف يستطيع مقاتلو التنظيمات المتطرّفة تحمل تبعات الاعتقال من السجن والتعذيب والتنكيل ويظلون متمسكين بأفكارهم؟ في الحقيقة إن هذا الفعل ليس شيئًا محدثًا يحدث لأول مرة، فقد وُجد أيضًا عند الجماعات المترابطة مثل الشيوعيين والرهبان والقساوسة والقوميين، فمن يشعر بالانتماء إلى شيء يصمد من أجل جماعته، أما من لم يشعر بهذا الانتماء فسرعان ما ينهار في معسكرات الاعتقال.

لا يستطيع الفرد الاعتماد على قوته الشخصية فقط، فالانتماء إلى كيان قوي ومتماسك هو مفتاح الصمود، عندما وقع قادة البلاشفة في يد ستالين فإنهم سرعان ما انهاروا بسبب قطعهم صلتهم بروسيا القديمة واحتقارهم للماضي وتخليهم عن الإيمان بالله، فلم يكن أمامهم لا ماضٍ ولا مستقبل يشعرون بالانتماء إليه.

خلق الكراهية الجماعية هي أكثر العوامل الموحدة أهمية، فهي تجتذب الفرد من نفسه وتنسيه ما حوله وتحوله إلى شيء لا هوية له، جاءت بعثة يابانية إلى ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية لتدرس الحركة النازية، تمنى الوفد وجود حركة نازية في اليابان لكن ذلك غير ممكن بسبب عدم وجود يهود فيها، فهتلر استخدم اليهود من أجل توحيد ألمانيا وإخضاع دول أوروبية أخرى، بل كان يرى دليل تفوقه في قوة كراهية غيره له.

المتطرّف وحده هو الذي يستطيع أن يفرّخ حركة جماهيرية حقيقية، والفوضى هي البيئة التي يبدع فيها، وما إن يرى تصدعًا في النظام فإنه يتقدم بكل جرأة ليؤجج نيران الغضب في صدور الناس، فمتعته تزداد عند رؤية انقراض النظام القديم، يقوده جوعه إلى إثارة العواطف العنيفة.

وحدة خطاب المتطرّفين مفاجئة، إنه خطاب مُقطّب وإطلاقي، «نحن» ضد «هم» دون وجود فروق دقيقة ودون درجات من اللون الرمادي، فإن «هم» مصدر كل شر ويجب أن يُدمروا، و«نحن» مصدر كل خير ويجب أن نتسيّدهم، بالنسبة إلى الكثيرين فإن الانتماء إلى مجموعة متطرّفة هو المرة الأولى التي شعروا فيها حقًّا بالانتماء وأنهم مهمون ومؤثرون، وعندما يكون في المجموعة عدد غير متناسق من الأفراد -من ذوي الهويات السيكولوجية المتجزئة- مع حاجة قوية إلى الهجوم على سبب إخفاقهم، فإنه تنتج قوى شديدة البأس.

إن قرار الإيديولوجيين الفوضويين بعبور الحدود للدخول في منظمات سرية غير قانونية هو قرار لا رجعة فيه، يميل المتطرّفون إلى إغراق هوياتهم الخاصة في

المجموعة بحيث يظهر نوع من عقل المجموعة، وأية شكوك في قرار المجموعة فيه مخاطرة بإغضابها والطرد منها، لذلك قال المتطرّف الألماني (ميشيل بومان) إن الطريق الوحيد إلى خارج المجموعة هو عبر المقبرة.

يحذر السياسي الألماني (يوشكا فيشر)، في كتاب (عودة التاريخ)، من الانخداع بالإيديولوجية أو بالمظهر الخارجي، لأن الإرهاب هو تعبير عن أزمة التحديث وليس العودة إلى الأصالة المفقودة، وهذا ما ينطبق أيضًا على الحركة الشمولية للفاشية والاشتراكية القومية(١٠٩)، لذلك لا تستغرب أن يتشاطر بن لادن وصمويل هنتنغتون نفس وجهة النظر التي ترى في صراع الحضارات مصالح إستراتيجية تعود بالنفع على مؤججي تلك الصراعات.

ينقل (فيشر) قول أحد الباحثين إنه ليست القوات المسلحة التي ستشنّ الحرب مستقبلًا، بل مجموعة نطلق عليها الآن أسماء مثل إرهابيين، عصابات أو لصوص، تعتمد غالبًا على قوة شخصية وجاذبية قائدها أكثر من اعتمادها على مؤسساتها. هذه القيادة لا تميّز نفسها عن التنظيم ككل ومن ثم ستشبّه نفسها بـ«شيخ الجبل» -حسب تعبير (ماركو بولو)- أكثر من كونها حكومة دستورية بمفهوم العالم الحديث. استلهام الماضي قد يقدم إلينا «بلقنة» تهدد الدول القومية، حيث تضع ثقافة ضد ثقافة وشعبًا ضد شعب وقبيلة ضد قبيلة ودينًا ضد دين، كما حصل في حرب البلقان في عقد التسعينيات، إن الحرب على الإرهاب لن تُحسم من خلال التفوق العسكري فقط، بل ستهزم -وقبل كل شيء- من خلال الأخلاق والقيم والبدائل الاجتماعية الأفضل.

يقول (هوفر) إن الحركات الجديدة لا تجذب الأتباع وتبقيهم تحت جناحها بسبب مبادئها أو مثالياتها أو أخلاقها، بل بسبب ما تقدمه من ملجأ يحمي أتباعها من القلق والفراغ الذي يأكلها من داخلها، فعندما يُفطم الناس على وجود مؤامرة ضدهم، فإن ذلك سيضعهم في مربع الدفاع، وبالتالي سيبحثون عن مُخلّص يحميهم ويؤويهم

ويصدّ عنهم موجات الارتياب والتشرذم، ثم ما يلبث أن يرى المؤمنُ الصادق غيرَه على أنه ضعيف وفاسد وجبان ومنحط.

تهتم الحركات المتطرّفة بغمس أتباعها في ظلمة المستقبل لتسلب منهم بهجة الحاضر، فيصير كل ما يمكنهم رؤيته هو حاضر سيّئ ومظلم برغم ما يقدمه من رفاهية غير مسبوقة في تاريخ العالم، فالحديث دائمًا مشحون بالطاقة السلبية التي تجعل الدين في قلوب أتباعه عبارة عن ترقب أشراط ساعة وعذاب مُهين بأعداء المؤمنين وتمكن من رقاب العالمين، والراحة عندهم تظهر في عقول أتباعها من خلال الأمل بعلو دولتهم على جميع الأمم بقوة السيف والرشّاش، حينها ينشغل الناس عن بناء الحضارة وعمرانها ببناء الصومعة المقدسة والدفاع عنها وإرغام الناس على عبادة الله من خلالها، وشيئًا فشيئًا يبدأ الناس بهجر القضايا الحضارية في حياتهم للتهرّب من بؤس الحاضر في ظل وجود جماعة تساعد أتباعها على التحرر من عبء اتخاذ القرارات المصيرية.

ترى هؤلاء المتشددين يعزفون عن الانتباه إلى صحّتهم ومظهرهم وأبنائهم وذويهم ووظائفهم وكل شيء جميل في حياتهم، لأنهم يرون بناء حضارتهم لا يكون إلا عن طريق تقمّص شكل إنسان من الماضي السحيق من أجل إخافة أعداء الله المُتحضّرين.

من يمثل قيادات المراحل الأولى لأية حركة ثورية يبحث عن تغيير كبير وشامل، فيفعلون كل ما في وسعهم لتحفيز أمل جماهيرهم، ولا يعِدُ قادتُهم أتباعَهم بتغييرات تدريجية متمهلة، بل بتغيير شمولي يتجاوز حدود المكان والزمان. من الممكن استشعار هذا الأمر في خطبهم ومحاضراتهم التي تنصبّ حول إحداث تغييرات عنيفة وسريعة لهذا العالم تبدأ من خلال دعاء «تجميد الدماء في عروق الأعداء» الذي يمتلئ غيظًا وتشفيًا، وتمرّ من خلال الحديث عن وعد الله الخاص لهم بجعل هذا العالم ملكًا خاصًا لهم يُعزّون فيه من يشاؤون ويُذلون فيه من يشاؤون، ثم تنتهي

بزرع فكرة ثبوت الوعد الأخروي لهم ولأتباعهم سواء اجتهدوا فأصابوا أو اجتهدوا ففجروا، فهم يمتلكون حصانة إيمانية تغمر بحر سيئاتهم التي لم يعترفوا بها في يوم من الأيام، يرتكبون أفعالًا شنيعة ضدّ غيرهم من البشر من أجل النعيم، ويبررون ذلك بالغاية المقدسة، فالإيمان العظيم بالحركة يجعل حياة الشخص أمرًا تافهًا.

الهوية الفردية غير مهمة في التنظيمات المتطرّفة مقارنة بالقضية المقدسة الكبرى، فترى أن أسماء وكنى قادتهم في تبدل مستمر، فعلى المدى القريب توقع المراقبون انهيار تنظيم الجهاد العالمي بشقّه العربي بعد مقتل (عبد الله عزام)، إلا أنه تمّ إحياؤه بقوة على يد مقاول المجاهدين أسامة بن لادن وطبيبهم أيمن الظواهري. وبسبب هالة الوقار والتبجيل التي جناها ابن لادن من ظهوره الإعلامي المدروس، والذي كان يحرص على مشاهدته أعداؤه قبل أتباعه، ظن البعض أن هذا التيار مرتبط باسم هذا الرجل، إلا أن عملية قتله الغامضة من قبل الأمريكان دفعت التنظيم إلى مزيد من الإمبريالية والتوسع بقيادة جديدة وتنظيم جديد تمثل في شخصية خليفة «داعش» أبي بكر البغدادي، وكم أمير قُتل في العراق كالمهاجر والبغدادي وغيرهم ولم يستطع ذلك كبح جماح حركتهم، بل زادهم ضراوة وشراسة، مما يبيّن أن هوية الفرد غير مهمة كثيرًا في هرم تلك التنظيمات، وأنهم مستعدون لإيجاد خليفة جديد كلما صار مكانه شاغرًا.

من أسباب انجذاب الناس إلى «داعش» -ومن يدور في فلكها أو سيأتي بعدها- هو بحثهم عن الانتماء، إلى ذلك لا تستغرب أن ترى أسماء نساء من ذوات الثراء الفاحش على قائمة الممولين الرئيسيين لحركات التطرّف، فلا ننسى أن هتلر كانت تموّله زوجات كبار أصحاب المصانع ممن لم يعدُن يستمتعن بمسليات الحياة، وصرن يبحثن عن ذواتهن من خلال الحركات الإيديولوجية سواء أدركن أهدافها أم لم يُدركن.

بين الكاريزما والنرجسية

بحسب (جيرولد بوست)، من الصفات الأساسية للمصاب باضطراب الشخصية النرجسية وجود نمط متفشٍّ من الفخامة وقلة التعاطف والحاجة إلى الإعجاب، تبدأ هذه الصفات بالبروز في بداية البلوغ، قد تتأخر النقلة النفسية من الشباب إلى النضج حتى أواخر العشرينيات أو بداية الثلاثينيات(١١٠). إن أبرز صفات القائد ذي الصفة النرجسية:

1. المبالغة في الإنجازات.
2. الانشغال بخيالات النجاح غير المحدود مثل الحب المثالي والسلطة المطلقة والعبقرية الفذة.
3. الاعتقاد بأنه خاص وفريد ولا يمكن أن يفهمه إلا أشخاص خاصّون من ذوي المكانة العالية.
4. الإحساس بالاستحقاقية، أي وجود توقعات غير منطقية للمعاملة المفضلة.
5. الاستغلالية في العلاقات.
6. عدم الاستعداد للاعتراف أو الإحساس بمشاعر الآخرين وحاجاتهم.
7. الحقد على الآخرين أو الاعتقاد أن الآخرين يحسدونه.
8. إبداء سلوكًا متعجرفًا.
9. حسّاسية من النقد أو الهزيمة، حتى لو أبدى عكس ذلك.

تخيل أن متطرّفا يجمع أغلب هذه الصفات يصبح بين ليلة وضحاها قائدًا لجماعة عسكرية تريد إطفاء نور العالم، ماذا ستكون النتيجة؟

عندما قدم (ماكس فيبر) مفهوم «السلطة النرجسية» فإنه كان يخاطب سيكولوجية التابعين، حيث اعتبر أن ما يحدّد العلاقة بين القائد الكاريزمي وتابعيه هو قوة شخصية القائد في وجه أتباعه الذين كانوا بلا خيار وشعروا أنهم ملزمون بالاتّباع، بينما رأى آخرون أن القادة هم على صورة أتباعهم الذين يقومون بتشكيلهم بصورة غير مباشرة، وهنا ستُعد ظاهرة الانتحار الجماعي في (جونز تاون) -والتي تطرّقنا

إليها سابقًا- استثناء، حيث خضع التابعون لقوة قائدهم الكاريزمي وتناولوا السمّ لينهوا حياتهم.

وضعت (ويلنار) خصائص للتابعين، فهم ينظرون إلى قائدهم وكأنه إنسان خارق بشكل ما، ويؤمنون بعماء بتصريحاته ويمتثلون لتعليماته دون قيود، ويمنحونه دعمًا عاطفيًا مطلقًا. يحتاج كثير من القادة إلى تدفّق مستمر من الإعجاب من جماهيرهم ليغذّوا ذواتهم الجائعة التي تشعر بكثير من العظمة والقدرة والقوة واليقين، فالشكّ الداخلي العميق بحاجة إلى جدار عقائدي ليصدّه. يركز القادة على كون «نحن» لسنا ضعفاء بل المشكلة في الخارج الذي يجب تدميره وطرده من عالمنا، وفي كل مرة يصرخ فيها الجمهور بالإعجاب بخطاب القائد فإنه تتقوى واجهة يقينه وتهدأ شكوكه الداخلية، فهناك علاقة إسكار تطمينية متبادلة بين القائد والتابع.

أما التابعون فهم متعطشون إلى المثالية، وربما بسبب جروحهم السيكولوجية النرجسية هم بحاجة مستمرة لربط أنفسهم بالقائد القوي الذي يحميهم من مواجهة أنفسهم ومن عدم أهليتهم. أما الأفراد المعافون سيكولوجيًا فإنهم في حالات الارتباك قد يلجؤون إلى قائد واثق بنفسه، ولكن عندما تمرّ اللحظة التاريخية تمرّ الحاجة أيضًا، كما حصل مع لجوء البريطانيين إلى (ونستون تشرشل) في الحرب العالمية الثانية، والتي بمجرد انتهائها نزعوا سحره المقدس وركزوا على أخطاء قيادته وطردوه من منصبه في الانتخابات التي تلت انتصاره في الحرب.

يُعد (فيدل كاسترو) مثالًا صارخًا على القيادة الكاريزمية التدميرية التي تصاحبها نرجسية حقودة، فهو يجمع بين فخامة شديدة وترقّب مرتاب وغياب للضمير والاستعداد لاستخدام أي اعتداء يلزم لخدمة حاجاته الخاصة، فاندفاعه نحو المجد غير قابل للإشباع. كذلك (صدام حسين) فقد كان يرى نفسه واحدًا من القادة العظام في التاريخ وهو مستهلك بشدة بمهمته المسيحانية إلى حدّ أنه يفرط في تقدير درجة شعبيته في باقي العالم العربي، وكان يرى كل عدوان يقوم به مبررًا بالحاجات

الثورية، وعندما واجهه أغلب العرب بإدانة غزوه للكويت فإنهم حطموا تلك الصورة المقدسة التي رسمها لنفسه عندهم.

عندما انكسرت جرّة العسل العراقية بالمطرقة الأمريكية ظن الأمريكان أن الشركات العالمية ستتسابق لأخذ حصتها من هذه الثروة السائلة في شوارع بغداد، لكن ما حصل هو انفجار الوضع الطائفي وتطاير الدم وخرجت منظمات أكثر تطرّفًا من الطوائف المتحاربة، يؤكد الباحث العراقي (فاضل الربيعي) أن العنف الممارس من جانب الدولة الوطنية هو بمنزلة الصمغ الذي يضمن تماسك سائر المجموعات الثقافية التي افتقدت عقدًا اجتماعيًا يضمن حقوقها ونظراتها بعضها تجاه بعض، ويمثل على ذلك بالدولة القوية التي مسحها الأمريكان في عام ٢٠٠٣، والتي رغم نتائج عنفها المأساوية فإنها حافظت على وحدة المجتمع وصهرت المجموعات الثقافية المحلية ووضعتها تحت سلطانها(١١١).

الشائعات المتطرّفة

مصدقو الشائعات غالبًا ما يكونون أشخاصًا عقلانيين، إلّا أنهم يفتقرون إلى المعرفة المباشرة أو الشخصية للوقائع، فكيف نعرف أن الأرض كروية وأن نيوتن وُجد فعلًا وأن المادة مؤلفة من ذرات؟ إن معظم ما نعرفه هو معرفة غير مباشرة بالناس الآخرين والثقافات والأديان الأخرى، تنتعش أو تموت الشائعات إن وجدت استعدادًا مسبقًا لدى مجموعات معينة لتصديقها أو تكذيبها، فالخوف من تنظيم القاعدة في أمريكا يجعل الناس هناك يميلون إلى الاعتقاد بأن هجومًا وشيكًا سيقع في أحيائهم، وقد يصدق العراقيون شائعة لا تجد لها قوة جذب عند الكنديين، ويقبل الجمهوريون بشائعات يُسخفها الديمقراطيون.

تروّج كثير من الشائعات لنظرية المؤامرة، فهناك من يؤمن بأن الاستخبارات الأمريكية هي المسؤولة عن اغتيال الرئيس الأمريكي الأسبق (جون كينيدي)، وأن

شركات الأدوية هي من اخترعت فيروس كورونا، وأن نظرية الاحتباس الحراري عبارة عن كذبة، وأن الهبوط على القمر كان مسرحية، وأن عائلة (روتشيلد) مسؤولة عن مقتل رؤساء وعن الكارثة الاقتصادية في الدول الآسيوية، وغدا كتاب مثل (١١/٩ الأكذوبة الكبرى) للفرنسي (تيري مايسان) من أكثر الكتب مبيعًا، والذي قال فيه إن البنتاغون ضُرب بصاروخ أطلقه المجمع العسكري الصناعي وليس بطائرة خطفها مقاتلو القاعدة.

تنتشر الشائعات من خلال سياقين، أولهما «التدفق الاجتماعي»، فنحن نصدق ما يصدقه معظم الناس لأننا نعتمد في تفكيرنا على ما يعتمدون هم عليه في تفكيرهم، وإذا تعلقت الشائعة بموضوع لا نعرف عنه شيئًا فمن المرجح أن نصدقها أيضًا. إن أكثر الإشاعات انتشارًا هي التي تثير انفعالات قوية من الذعر والخوف والاشمئزاز، كما حصل في أزمة ٢٠٠٨ الاقتصادية التي غذّت فيها الشائعات فورات المضاربة وتضخم الأسعار. السياق الثاني هو «الاستقطاب الجماعي» الذي يقول إنه عندما يجتمع أناس متماثلون في الأفكار فإنهم يميلون إلى تصديق النسخة الأكثر تطرّفًا، فهم يميلون إلى تصديق الشائعات التي تتحدث عن خبث نوايا الدولة وقد ينتقلون من كونهم مصدقين حذرين إلى كونهم متأكدين من صحة الشائعة.

من أجل تجاوز هذه السياقات يجب تزويد الناس بمعلومات متوازنة من قبل الذين يعرفون الحقيقة حتى لو كان من الصعب على من صدق الشائعة التخلي بسهولة عن اعتقاده بها. يشير بعض الخبراء إلى خطر التأثير الرادع على حرية التعبير، فيقترحون السماح بقدر كبير من مساحة التنفس للأكاذيب حتى لتلك التي تتسبب بالضرر، لكن الحقّ أن التأثير الرادع قد يشكل أحيانًا حماية ممتازة ضد الأكاذيب المضرّة كما فعلت نيويورك حين أقرت قانونًا يُجرّم نشر الشائعات الكاذبة عن البنوك، وهناك قانون يُجرّم التشهير هدفه حماية الناس، لكن يجب أن لا يحمل هذا الرادع تأثيرًا على النقاش العام، فإن حرية التعبير تتطلب أحيانًا حماية بعض الأكاذيب بحسب تعبير المحكمة الأمريكية.

يعرف ناشرو الإشاعات تمام المعرفة ما يقومون به، ومن يريدون حماية أنفسهم من الشائعات عليهم أن يدركوا أنهم هم آلياتها التي تستند إليها، لذلك يجب خلق ثقافة إبطال مفعول التحامل -كما يسميه علماء الاجتماع- عن طريق تفادي الإساءة إلى الحياة الشخصية أو العبث بالمؤسسات الكبرى والصغرى. يلتقط البعض الشائعة وهم لا يملكون سببًا مستقلًّا للاعتقاد بها، لكن قد يدفعهم الغضب أو الخوف إلى تصديقها. كذلك يتوقف قبول الناس بالشائعة على ما يعتقدون به قبل سماعهم بها، فأنت لن تصدق خبر خيانة صديق مقرّب زوجته لأنها شائعة مضرة، لكنك ستصدقها مباشرة إذا كانت تخص أحد أعدائك، قد ينكر الناس شائعة ما لأنها تتناقض مع أعمق اعتقاداتهم، وهذا ما يسمى بظاهرة التنافر الإدراكي، عندما يستفظع الناس حدوث أمرٍ ما فإنهم يصبحون أكثر قابلية لتصديقه حتى يبرروا حالاتهم الانفعالية.

وجد عالم النفس (جيب هيث) أن الإشاعات المشمئزة أكثر قابلية للرواج من غيرها، مثل الإساءة إلى طفل ضمن شعائر شيطانية أو سلوك جنسي منحرف أو البكتيريا التي تلتهم جسد الإنسان، فكلما استثارت الإشاعة مشاعر الاشمئزاز والغضب والاستفظاع، كانت أكثر عرضة للنشر بين الناس، وهذا ما يسمونه بالانتقاء الانفعالي.

تكشف دراسة لعالم الاجتماع (ماثيو سالغانيك) أن الناس يتأثرون بصورة غريبة بخيارات من سبقوهم، وهذا يُستشف من تنزيل الناس للأغاني التي تم تنزيلها من قبل بأعداد كبيرة، فهم أقل احتمالًا لتنزيل الأغاني التي لم تحظَ بكثير من الشعبية، فالفيديوهات تحظى بمزيد من الانتباه ليس بسبب جودتها بل بسبب شعبيتها.

اكتشف عالم النفس (سولومون آش) أن الناس مستعدون للتغاضي عن أدلة عقلية ناصعة تحت ضغط الجماعة، فقد أظهرت تجربته أنه عندما طُلب من الناس أن يقرروا بأنفسهم ومن دون رؤية أحكام الآخرين، كانت نسبة الخطأ أقل من ١٪، لكن ارتفعت هذه النسبة إلى ٣٦٪ عند رؤية أحكام الآخرين، وهذا بالضبط ما يحصل في مواقع التواصل الاجتماعي أو عند الجماعات المتطرّفة حين يذعن الفرد لحكم

المجموعة ويتصرف كما تتصرف حتى لا يبدو شاذًّا بينها وهذا ما يسمونه بظاهرة «التدفق التماثلي».

أظهر تنوع كبير من السياقات الاختبارية أن وجهات نظر الناس تصبح أكثر تطرّفًا لمجرد تأكيد وجهات نظرهم الأولية ولأنهم تمتعوا بالثقة بعد علمهم أن آخرين يشاركونهم نفس وجهات نظرهم. يوفر الإرهاب مثالًا خطرًا على ذلك عندما ينشر المتطرّفون المتماثلون في الفكر الشائعات ويناقشون المظالم التي قد تؤدي إلى نتائج عنيفة.

يلعب التحيز دورًا كبيرًا في مسألة قبولنا للشائعات، فقد وجدت دراسة اجتماعية أن المؤيدين والمعارضين لعقوبة الإعدام أصبحوا أكثر اقتناعًا بالدراسات التي تدعم معتقداتهم الخاصة أكثر من الدراسات التي تعارضها، بل تحولت قناعة كل طرف صوب التزام أقوى بوجهة النظر التي كانوا يعتقدون بها، وقد تفشل حملات تصحيح الأوهام معها. في عام ٢٠٠٤ أجري اختبار لتفحص وجهة الليبراليين -المعارضين لغزو العراق- والمحافظين -المؤيدين لغزو العراق- في شأن وجود أسلحة دمار شامل في العراق، وبعد جمع آرائهم على مقياس من خمس درجات، تم إطلاعهم على تقرير (دولفر) الذي أظهر خطأ إدارة (جورج بوش) في الاعتقاد بوجود هذه الأسلحة، ثم طُلب من المشاركين إعادة الاختبار، فكانت النتيجة متوقفة على إيديولوجية المشارك، فقد زاد الليبراليون من قوة اعتقادهم بعدم وجود الأسلحة، أما المحافظون فقد حصل تحول ملموس في اتجاه الموافقة على البيان، لكن حسب الدراسة أدى التصحيح إلى نتائج عكسية، فقد أظهر أن المحافظين الذين قرؤوا التقرير صاروا أكثر ترجيحًا لتصديق أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل، فلم يفشل التصحيح فحسب، بل كان له أثر استقطابي زاد من حدة انقسام الناس.

عندما تشتري سيارة جديدة فإنك تبحث عن المعلومات التي تقدم ضمانة إضافية أنك قمت بالخيار الصحيح، فنحن نسعى إلى معلومات نتمنى تصديقها ونتفادى

المعلومات التي لا نريد تصديقها. وهذا ما يسمى بظاهرة «التثبيت الانحيازي».

إذا أردت للناس الابتعاد عن قناعتهم المسبقة فمن الأفضل ألّا تفندها بلسان خصومهم لكن بلسان من يماثلونهم، وقد لوحظ أن الشائعات أكثر عرضة للتصديق في أوضاع تتميز بالاضطراب الاجتماعي -كمن يكون ضحية قصف أو أن يكون ناجيًا من وباء أو شعب احتُلّت أرضه أو سجناء في معسكرات اعتقال- بسبب توفر قدر قليل من المعرفة المسبقة. عندما سرت شائعة وجود انتحاري في جسر الأئمة في بغداد في عام ٢٠٠٥ تسبب ذلك في حصول ذعر بين المشاركين في هذه الطقوس الدينية، وسقط المئات في نهر دجلة بسبب التدافع، فأدت شائعة منبثقة من منظومة تفكيرية واحدة إلى مقتل ألف شخص، فالشائعات في سياق متطرّف مشحون قد يكون لها أثر أكبر من الفعل الإرهابي نفسه(١١٢).

التطرّف والدين

تاريخ ما أهمله التاريخ

اتجه البراهمة في الهند إلى تحرير أنفسهم من الشعائر الخارجية، وركزوا على اكتشاف العالم المستقل للنفس الخالدة، وتعلم بنو إسرائيل التعالي على مصالحهم الذاتية وأن يحكموا بالعدل والمساواة، وكان النبي فيهم مثالًا حيًّا على إفراغ النفس من الأنانية، وكان أفلاطون يدافع عن عبادة (الأولِمب) -رغم كونها تأتي في درجة ثانية بعد الفلسفة- لأنه رآها مهمة وأساسية لمجتمع المدينة. نقلت (كارين أرمسترونغ) في كتاب (التحول الكبير: بداية تقاليدنا الدينية)، عن (كارل غاسبار) أن العصر المحوري هو ذلك العصر الممتدّ من ٩٠٠ إلى ٢٠٠ ق.م. في أربع مناطق مميزة، والتي ظهرت فيها الحركات الدينية الكبرى: الكونفشيوسية والداوية في الصين، الهندوسية والبوذية في الهند، الوحدانية الإبراهيمية في الشرق الأوسط، والعقلانية الفلسفية في اليونان. أنبياء ومتصوفو وفلاسفة وشعراء العصر المحوري كانوا متطورين جدًّا وغير مغالين كما صار كثير من أتباعهم فيما بعد. إن إجماع عصر المحور هو شهادة بليغة على السعي الروحي نحو الرحمة والمحبة والتسامح، وما يميز تقاليد العصر المحوري في كل المناطق الأربع هو تجذر الخوف والألم في هذا التراث، والمطالبة بالإقرار بهذه الآلام كمقدمة من أجل التنوير(١١٣).

حدث الازدهار الأخير للعصر المحوري في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع، عندما ظهر النبي محمد عليه السلام في الحجاز، وكان هدفه تصحيح رسالة عصر المحور. عاش النبي -مثل جميع الحكماء المحوريين العظام- في مجتمع عنيف تتهاوى فيه القيم، وبعد وفاته وحتى منتصف القرن الثامن الميلادي، لم يكن اعتناق الإسلام يلقى تشجيعًا، فقد كان يُظنّ أن الإسلام دين للعرب فقط مثلما كانت اليهودية دينًا لأبناء إسرائيل، أثار الدين الجديد حفيظة المؤسسة المكّية التي لم توافق على روح المساواة فيه، سمح القرآن

الكريم بالحرب الدفاعية ومنع أتباعه من العدوان على الناس، لم تعنِ كلمة الجهاد في ذلك الوقت الحرب المقدسة، بل عنَت الكفاح على جميع الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية.

يفضّل الناس عادة أن يكونوا على صواب على أن يكونوا رحماء، قسم الزرداشتيون الأوائل البشر إلى معسكرين متعاديين، وقد رأت جميع الأديان انفجارًا للتقوى القتالية كما حصل في الهند والصين والمناطق التي قطنها بنو إسرائيل، فيجب أن يكون هناك نقد ذاتي بدلًا من لوم الآخرين، وكما قال المسيح لأتباعه: لا تدينوا القشة في عين جيرانكم وأنتم تتجاهلون العصا في عيونكم. وقد أكد معتقد الكارما على أن جميع الأعمال لها عواقب تدوم طويلًا، لم يكن حكماء الفترة المحورية يتأملون من بروج عاجية، بل كانوا يعيشون في مجتمعات مرعبة تمزقها الحروب، فكانوا عمليين وعباقرة روحانيين.

كل دين من أديان العصر المحوري، فشل كثير من أفراده في الارتقاء إلى مستوى مثله العليا، ووقع الناس ضحية للاستعباد والبطش والخرافة والمجازر رغم كون رسالة الأديان كلها تعظيم التعاطف والاحترام والرحمة. إذا كانت المعتقدات تجعل معتنقيها ميّالين إلى الحرب وعدم التسامح فإنها تكون سامة وضارة، أما إذا كانت تدعوهم إلى الرحمة واحترام الغريب فهي خيّرة ومفيدة، هذا هو الاختبار الحقيقي لجوهر التديّن الصحيح.

جذور العنف

قرأت مقالًا في أحد الصحف الإلكترونية يتساءل كاتبه عن سبب عدم اعترافنا بأن النصوص الدينية هي سبب العنف التي يبرّر بها أصحابها سفكهم دماء غيرهم، وذلك في أعقاب مذبحة الجريدة الفرنسية (شارل إبدو) في عام ٢٠١٥، والتي راح ضحيتها ١٢ قتيلًا أحدهم شرطي فرنسي مسلم. قد يكون دافع هذا الكلام تحمس البعض للتشكيك في مصداقية النصوص الدينية عن طريق ربطها بالإرهاب المعاصر، وإذا ثبت ذلك فسوف تتساقط تلك النصوص وستتهاوى من ورائها فكرة الأديان، فهل فعلًا تتحمل النصوص

الدينية المسؤولية المباشرة عن كل الشرور التي تحصل في العالم؟ أم أنها تُستخدم كشماعة إلى جانب الشماعات الأخرى؟

يذكر (ليدل) و(شاكلفورد) في كتاب (الانتحاريون) أن هناك تداخلًا كبيرًا بين الإرهاب والمعتقد الديني(١١٤)، فالمتطرّف عادة يتبنّى معتقدات دينية قوية. اقترح داروين أن القدرات العقلية العالية جعلت الإنسان يعتقد في قوى غيبية روحية تلتها عقائد شركية ثم عقائد توحيدية، صاغ دوكنز مصطلح «الميمات» والذي يشير إلى الأفكار التي تتطور كتطور الجينات وتتنافس فيما بينها للاستحواذ على عقول الناس والبقاء على قيد الحياة. يفترض الباحثون وجود ارتباط مطّرد بين الارهاب والتدين بسبب انعدام التورط في العمليات الانتحارية عند من يعانون من نقص في التدين، لكن ينقص هذا الرابط الأدلة الاستقرائية، فمنظمة علمانية مثل (نمور التاميل) لم تعدم أن تجد في أعضائها من يقوم بالعمليات الانتحارية.

من غير المقبول طرح سؤال «هل الإسلام دين سلام أم دين حرب؟» لأن صياغته غير صحيحة، فالإسلام كغيره من الأديان فيه طوائف عديدة تمتلك كل منها معتقداتها الخاصة الناتجة من إرث تاريخي واجتماعي وسياسي يختلف بعضه عن بعض، فمن يختار التطرّف يؤسس لطائفة إرهابية بعيدة عن الإسلام المعتدل الذي تعتنقه الأغلبية الساحقة من المسلمين.

يتساءل الباحث السوري (هاشم صالح) لماذا يوجد كل هذا الكره للحضارة الغربية الحديثة في نطاق مجتمعاتنا العربية، بالرغم من وجود أصوليات أخرى -مثل الكونفوشيوسية والهندوسية والسلافية- لا تحبّذ الانفتاح على الحداثة، إلّا أن التيار العام عند تلك الشعوب هو مع الانفتاح على التفاعل الحضاري ولا يعاني من أية عقدة تجاهه؟ أحد أسباب ذلك النفور من الغرب هو توهّم البعض أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة والنهائية التي تغنيهم عن الآخرين، فيتوهمون أنهم مركز العالم بالرغم أنهم يعيشون في هامشه، في ظل وجود

معتقدات تحجّرت وتكلّست فوق واقعنا وتاريخنا، والذي يتطلب التخلي عن النرجسية والقيام بعملية تصفية مؤلمة وقاسية لذواتنا.

أصيب (صالح) بأكبر خيبات حياته حين اكتشف أن الحداثة غير معصومة وغير خالية من العيوب وأنها لا تستطيع إنقاذنا من جحيم التخلف والتعصب والأصولية والحروب الأهلية(١١٥). تنبأ (جان جاك روسو) بأن التقدم العلمي والتكنولوجي لن يرافقه تقدم روحي وأخلاقي، وهو نفس الناقوس الذي دقّه فيلسوف القرن العشرين (مارتن هيدغر). لولا تمالك (كينيدي) و(خورشوف) لأعصابهما في اللحظة الأخيرة لكانت الإنسانية قد مسحت بالقنابل النووية، وكما أننا مرعوبون من الأصولية الدينية فإن المتشددين أيضًا مرعوبون من الأصولية المادية الإلحادية عندما يقرؤون خبر تأجير رحم امرأة غريبة أو عندما يسمعون عن تلاعب بجينات وراثية أو عملية استنساخ آدمي، في المحصلة فإن الحداثة أيضًا تحولت إلى تراث متراكم يحتاج إلى نقد وتفكيك.

العنف موجود عند جميع الأديان على مرّ تاريخها، وباعتراف اللاهوتي (هانز كونغ) فإن أغلبية المسلمين يرفضون العنف، إلا أنهم -في رأيه- لم يسلكوا بعد طريق النقد الصحيح ضد الأصولية، وضع (كونغ) مصطلح «البراديغام Paradeigma» الذي يعني المقياس المعرفي الذي يسود حقبة بأسرها ثم ينهار بعد مئة أو مئتي عام ليحل محله مقياس جديد، فبالنسبة إلى المسيحية فهناك باراديغام القرون الوسطى وباراديغام الإصلاح الديني البروتستانتي وبارديغام التنوير في القرن ١٨وباراديغام الحداثة في القرن ١٩.

أما عند بعض المجتمعات المسلمة فلا يزال باراديغام القرون الوسطى هو السائد بعد انقراض باراديغام المعتزلة والفلاسفة ومفكري عصر النهضة الذين تم القضاء عليهم باستخدام باراديغام أفكار ابن تيمية والحركات الأصولية المعاصرة، لذلك قد ترى الكاثوليكي الروماني الحالي المسجون في عقلية القرون الوسطى يجد نفسه قريبًا إلى الأصولي المسلم واليهودي منه إلى الكاثوليكي الليبرالي، وبعض المسلمين ما زالوا في صراع عنيف مع الحداثة وما بعد الحداثة.

يرى البروفيسور (ميشيل دوس) أنه بالرغم من رسالة السلام التي تحملها الأديان الإبراهيمية فإن العنف فيها هو نتيجة حتمية للالتقاء بين لانهائية الخالق الأعظم ومحدودية المخلوق البشري، لذلك فهو يراها سلاحًا ذا حدين، فباسم التعالي قد يخلع طابع المطلق على ما هو نسبي أو يخلع طابع النسبي على ما هو مطلق، وعند سؤاله عن تضمن القرآن لكلمة «الجهاد» فإنه أجاب بأن هذه الكلمة تعني ممارسة الجهد الروحاني ولا تعني الحرب أو العنف، إلا أن المسلمين بدؤوا في استخدامها بمعنى الحرب من أجل مجابهة الحروب المقدسة التي شنها عليهم الصليبيون، والقرآن نفسه يطلب من أتباعه ألّا يحقدوا على من أساؤوا إليهم، فالصفح والغفران من القيم التي ركز عليها القرآن، والعنف الموجود في القرآن له استخداماته المشروطة إلا أنه استُغل بإفراط من قبل المتشدّدين.

يستنتج (دوس) أن القرآن تميّز بالتحفظ والاعتدال، ويدعو أتباعه إلى عدم تجاوز الحدّ في الردّ على العدوان، أما الإنجيل -ورغم نصوص العنف الواردة في العهد القديم- فإنه كان أكثر تسامحًا في عهده الجديد، ويوافقه في ذلك المفكر التونسي (عياض بن عاشور)، إلّا أنه يقول إنه من الخطأ استنتاج أن النص الديني هو الذي يقود التاريخ، فالمبادئ المثالية شيء، وماجريات الأمور على أرض الواقع شيء آخر، والدليل أن ما ارتُكب من العنف باسم المسيحية لا يقلّ عما تم استخدامه باسم الإسلام، بل هو أكثر وأكبر.

يغفل (دوس) حقيقة كون الإنجيل عند المسيحيين يتكون من عهد قديم وعهد جديد، ولقد مارس الصليبيون العنف وارتكبوا المجازر وهم يتلون آيات من العهد القديم من الإنجيل، إلا أننا مضطرون إلى الاعتراف بأن كثيرين من أتباع الأديان المختلفة قد تسببوا -تاريخيًا- في أعمال عنف كبير ة وحروب هائلة. لكن في هذا العصر، صار المتحدثون الرسميون باسم الأديان ينبذون التطرّف والإرهاب، ولم تعُد هناك حاجة إلى تكرار مقولات التسامح والتعايش السلمي، لأنها صارت فرضًا على كل دولة عضو في الأمم المتحدة، بل وصار تكرار ضرورة التفريق بين النص الديني وفهم النص الديني مثيرًا للملل والضجر.

أخيرًا، ينبغي عدم إغفال عناصر الفقر والتهميش الاجتماعي والحقد على الغرب المهيمن في ظل إغفال خصائص تتميز بها الحضارة الإسلامية مثل التعلق المطلق بالله تعالى والخلود والطهرانية الأخلاقية، فهذه العقلية تحتقر العالم الفاني في ظل وجود ثقافة تمجد العنف والأبطال، والظروف التاريخية والمنعطفات الحرجة هي التي تفسر انفجار العنف والإرهاب في هذه الفترة دون سواها، فهناك شعور بالتأخر عن ركاب الغرب وشعور بالعجز عن تحمل مسؤولية هذا التأخر والجمود، مع وجود خوف دائم من وجود مؤامرة غربية ضد الإسلام، رغم ذلك فقد أثبت المؤرخون أن تاريخ الإسلام شهد فترات طويلة من السلام والوئام مع الآخرين وتحلّى المسلمون فيها بروح الانفتاح والتسامح بمعايير عصرهم.

شواهد من التاريخ

يرى (ألفريد مورابيا) أن البحث التاريخي يُثبت أن نظرية الجهاد التوسعي خارج الجزيرة العربية غير موجودة في القرآن، وإنما هي من صنع بعض الفقهاء الذين بلوروها إبان عصر الفتوحات الذي لم يكن فيه الجهاد متطابقًا حرفيًا مع قواعد القرآن، وإنما استخدم الفقهاء آيات القرآن العامة وجعلوا منها غطاءً إيديولوجيا وقوة دعم نفسية للمحاربين. تبلورت نظرية الجهاد بالشكل الذي نعرفه اليوم على يد فقهاء العصر العباسي، وهذا الأمر يخفى على كثير من المسلمين والغربيين الذين جعلوا من القرآن كتاب حرب وجهاد وعنف، وهو نفس القرآن الذي يردد «ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق»، فصار هناك جهاد هجومي ودائم على الكفار حتى لو لم يشكلوا تهديدًا ضدّ المسلمين.

ثم جاء (ابن حزم) ليقول إن المسلم لا يحارب الكافر كشخص بل يحارب الكفر من خلاله، وبذلك اختفت أطروحة الجهاد الدفاعي من أدبيات التراث الإسلامي رغم كون الجهاد الهجومي قد استنفد جميع أدواته منذ زمن بعيد ولم يعُد له وجود على أرض الواقع، هذا النوع من الجهاد هو الذي يثير أصداء قوية في العالم الإسلامي ويُجيّش المؤمنين حوله.

يرى (مورابيا) أن النبي عليه السلام قد ترك إرثًا مزدوجًا من التسامح والنزعة النضالية الحربية، ولا شك أن هذا الإرث دعم حركة الإسلام وأوصله إلى المجد ولم يشكل حضارة استثنائية إلا عندما كان منفتحًا على الحضارات الأخرى ومستفيدًا من كنوزها المعرفية.

يطلب (جان بيير فيليو) منّا أن نقارن بين موقف أبي بكر الصديق من النسّاك والرهبان المسيحيين في الصوامع والكنائس السورية، وبين موقف الإرهابيين المعاصرين من المسيحيين في باكستان أو الجزائر أو العراق، بل انظر إلى موقفهم من المسلمين الآخرين، حينما دخلوا بلاد البوسنة ورأوا إسلامًا مختلفًا عمّا تربوا عليه، قالوا للبوسنيين: «لحسن حظكم أنكم ابتليتم بهذه الحرب الأهلية، فإنها بركة وليست محنة، فبدونها لما تمكنتم من معرفة الإسلام الصحيح، ولما تميزتم عن المسيحيين الذين لم تكونوا تختلفون عنهم».

لا ينبغي الحديث عن سيكولوجية الإرهاب بصيغة المفرد، فلكل فعل إرهابي دوافعه التي تختلف عن الأفعال الإرهابية الأخرى. لا تُظهر دراسات سيكولوجية الإرهابيين مرضًا نفسيًا حادًا، بل لا تسمح تلك الجماعات للأفراد المضطربين عاطفيًا بالانضمام إليها لأنهم سيشكلون خطرًا أمنيًا عليها كما ذكرنا سابقًا. على سبيل المثال لم تجِد إحدى الدراسات أي اضطراب عاطفي عند مقاتلي الجيش الجمهوري الأيرلندي. كذلك لم تظهر الدراسات نمطًا سيكولوجيًا معينًا أو تركيبة شخصية معينة، لكن الدراسات تتحدث عن أنهم ذوو توجّه عملي، عدائيون يبحثون عن المحفزات والإثارة، يحتاجون إلى وجود عدو خارجي ليهاجموه ويوجهوا إليه الملامة. تظل كل مجموعة إرهابية فريدة من نوعها ويجب أن تُدرس في سياق ثقافتها القومية وتاريخها الخاص، فدوافع الجيش الأحمر الإيطالي والجيش الجمهوري الأيرلندي ونمور التاميل السريلانكيين مختلفة عن بعضها.

يوفر الإيمان الصلب وعاءً مبررًا للمشاعر القوية التي تهدد بابتلاع الفرد، هذه المشاعر هي التي دفعت الدكتور (بروش غولدستين) إلى قتل ٢٩ مسلمًا في الحرم الإبراهيمي في عام ١٩٩٤ وهو يستلهم كلام شيخه الحاخام (مير كاهاني) حين اقتبس الجملة التلمودية «إذا أتى أحدهم ليذبحك، اذبحه أولًا»، ليتحول غولدستين بعدها إلى قدّيس في نظر

المتطرّفين من اليهود. هذه المشاعر المسمومة هي نفسها المشاعر التي دفعت إلى تفجير برج التجارة العالمي في عام ١٩٩٣ ومن ثم تدميره بالكامل في عام ٢٠٠١.

هناك نوعان من الأصوليين، نوع مطمئن ينتظر وصول المخلّص، ونوع نشط يبحث عن «إجبار النهاية» بتسريع وصول المخلّص عن طريق الإرهاب الديني. الخميني في أحاديثه الإذاعية كان يقول لأتباعه بأن صدمتَهم الشخصية سوف تُحل عبر الفعل العنيف والذي سيكافؤون عليه، كذلك محمد عبدالسلام فرج -قائد الخلية المسؤولة عن اغتيال رئيس مصر الأسبق أنور السادات- برر الاغتيال على أنه إنجاز للواجب المقدس عن طريق قتل غير المسلمين. وهو نفس التبرير الذي ساقه الشبان المسيحيون حين أخذوا يرمون قنابل حارقة على عيادات الإجهاض في أمريكا بعد أن زعموا أن الله أمرهم بذلك وسموا القنابل باسم «هدية عيد ميلاد المسيح». وهناك مسيحيون يرون اليهود سلالة مُتحدرة من الثعبان أو الشيطان الذي أغوى حواء في الجنة، مما يبرر لهم القيام بأفعال عنف ضدهم كما ينقل «جيرولد بوست»(١١٦).

الدين والعنف، علاقة طردية؟

التقاليد الدينية توحّد بعض معتنقيها من خلال تمييزهم عن الآخرين، ويمكن للاختلافات الصغيرة أن تذهب بعيدًا في اتجاه لم يُرسم لها في وقت تشكلها، ضرب (يوفال هراري) مثالًا على أهمية الأديان التقليدية في العالم باليابان(١١٧)، في منتصف القرن التاسع عشر أجبر أسطول أمريكي اليابان على الانفتاح على العالم الحديث، وشرعت الدولة الحديثة الصاعدة في تحديث أذرعتها التقنية وهزمت الصين وروسيا واحتلت تايوان وكوريا ثم أغرقت الأسطول الأمريكي في (بيرل هاربر) في الحرب العالمية الثانية ودمرت إمبراطوريات أوروبا في المشرق. في ذلك الوقت، جعلت اليابان من ديانة الشنتو حجر زاوية للهوية اليابانية بعد أن أعادت اختراعها، حيث كانت «الشنتوية» عبارة عن مزيج من المعتقدات الوثنية لجميع أنواع الآلهة والأرواح والأشباح مع وجود أرواح محلية مفضلة

لكل قرية ومعبد، اندمجت دولة الشنتو مع أفكار الأمة والعرق التي استعارها قادة اليابان من أفكار إمبرياليي أوروبا، بعدما أضافوا إليها نكهة بوذية وكونفوشيوسية وبعض عادات الساموراي، كل ذلك من أجل ترسيخ الولاء للدولة وللإمبراطور المنحدر مباشرة من ربة الشمس (أماتيراسو).

استطاعت خلطة الأرواح والتحديث أن تدفع اليابان إلى المقدمة، لتصبح خصمًا عنيدًا لدول الحلفاء، في حرب لم يتورع فيها (الكاميكاز) عن استخدام الذخائر البشرية من أجل تدمير العدو. بعض الحكومات الحديثة تتبع المثال الياباني، فهي تبني الأدوات والهياكل العالمية للحداثة، وفي نفس الوقت تستخدم الأديان التقليدية للحفاظ على هويتها الوطنية الخالصة، تستطيع لمسة الخيال إعادة تفسير النصوص الدينية لدمجها مع أحدث أدوات التكنولوجيا.

قبل أن نندفع ونجعل علاقة العنف بالدين علاقة طردية، علينا أن نتوقف عند بعض المحطات في العنف الذي حصل في العالم:

أولا: أكثر المذابح والمجازر والحروب في القرن العشرين والتي راح ضحيتها أكثر من ٥٠ مليون إنسان لم تكن أسبابها دينية، فالاتحاد السوفييتي قبل الحرب العالمية الثانية مارس سفك الدماء بنصوص ماركسية ولينينية وستالينية، وهي نصوص غير دينية بالمعنى الكلاسيكي، قامت تلك المذابح باسم طبقة «البروليتاريا» التي كان قادتها أكثر بشاعة من البرجوازيين «الأرثوذوكس» الذين ثاروا عليهم. ثم تبرأ الشيوعيون أنفسهم من أعمال ستالين الإجرامية في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في عام ١٩٥٦. فهل يُعقل أن نُحمّل كل شيوعي أو اشتراكي جريرة ما قام به ستالين بمجرد قوله إنه كان يطبّق تعاليم كارل ماركس؟ بل هل يصح أن نُحمّل ماركس -مؤسس الفكر الشيوعي- المسؤولية المباشرة عن كل ما ارتُكب من جرائم وحروب دموية باسمه؟ ولو كان حيًا ورأى ما اقترفه (لينين) و(ستالين)، ألم يكن سيتبرأ منهما لأنه ما أساء إلى أفكاره أحدٌ مثل ما فعل هذان الرجلان؟ فلماذا نحمّل النصّ الديني مسؤولية حماقة بعض من تمسح به وقتل باسمه؟

ثانيًا: أثناء الحرب العالمية الثانية ذبح الناس بعضهم بعضًا بسبب تصارع النفوذ والقوة والسيطرة، ولم يحتَج طرفٌ ما إلى نصّ ديني يبرر غزو جاره وإسالة دمه وهتك شرفه وتدمير بلده ونهب ثرواته، مع العلم أن أغلب أطراف الصراع كانت تحمل الدين نفسه وأحيانًا تحمل نفس المذهب العقائدي، فأين النص الديني الذي برّر أشنع حرب عرفتها البشرية؟

ثالثًا: فلنفترض، بعد استقراء النصوص الدينية، أن بعض الديانات -كالبوذية- لا تحتوي نصًا مقدسًا يحضّ على العنف لا من قريب ولا من بعيد، إذن ما الذي برّر إقدام بعض الرهبان البوذيين على ارتكاب مجازر مروعة ضدّ المسلمين؟ ألم يكن الدافع في ذلك دينيًا مع عدم وجود ذلك النص الديني؟

بإمكاننا الاستنتاج أن العنف ليس بحاجة إلى نصّ ديني ليكون حجة لأتباعه لكي يمارسوا العنف، فالنص الديني أو الدافع السياسي أو الاقتصادي قد يُستخدم بكل بلاغة وإقدام لتبرير الأعمال الإرهابية.

رابعًا: لو افترضنا أن دينًا مثل دين الإسلام -يعتنقه قرابة المليارين من البشر- يحضّ على العنف، فكم عدد الذين يمارسون العنف من أتباعه؟ ٠٫٠٠٠١٪؟ ٠٫٠١٪؟ فلنكن أكثر كرمًا ونجعلهم ١٪، ماذا عن ٩٩٪ منهم الذين لا يمارسون العنف رغم أنهم يتلون نفس النصوص الدينية؟ لماذا لم يفهموا النص الديني مثلما فهمه المتطرّفون؟ ولماذا يُعمّم البعض الشذوذ ويترك القاعدة؟ ولماذا يطالب البعض ٩٩٪ الاعتذار في كل مرة يرتكب أحدٌ ينتسب إليهم عملًا أحمق تبرأ الجميع منه بكل ما أوتوا من قوة؟ إذن فلنطالب بابا الفاتيكان بالاعتذار عن جرائم (هتلر) و(موسيليني) وكل مسيحي ارتكب جريمة بحقّ الإنسانية، لأنهم أبناء دينه وهو يتحمل مسؤولية جرائمهم! لا ننسى أن هناك شرطيًا فرنسيًا مسلمًا سال دمه في مجزرة الجريدة الفرنسية، ولا ننسى أن هناك مسلمين في العراق وسوريا ولبنان يُقتلون باسم دينهم من قِبل أفراد يدّعون أنهم أصحاب الحقّ المطلق في تفسير النصوص الدينية.

خامسًا: فلنفترض أن الدول الإسلامية القديمة قد توسّعت بسبب نصوص دينية، هذا إذا أهملنا الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمقارنات المغلوطة بين عصرنا وعصرهم، أوَ ليس هناك دول توسعت وتمددت أفقيًا وطوليًا على حساب دول أخرى وهي تحمل عقائد بوذية وهندوسية وكونفوشيوسية -إذا افترضنا جدلًا أنهم لا يملكون نصوصًا تدعو إلى العنف- ومع ذلك فقد كان لأتباعها دوافع دينية لبسط نفوذهم على غيرهم، فحصل هنا قتل مع عدم وجود نصّ ديني ولكن بمبرر ديني، وهذا يثبت مرارًا وتكرارًا أنك لست بحاجة إلى نصّ ديني لتكون إرهابيًا أو استعماريًا، فقط اعقد النية وابحث عن النص الذي ستستغله لصالحك.

سادسًا: لماذا لا نلتفت إلى أسباب العنف الحقيقية عندنا ونضعها بكل جدية على طاولة النقاش؟ أليست التنشئة والتربية والخلفية الاجتماعية والأوضاع السياسية الموقدة والمستعرة في المنطقة تلعب -غالبًا- الدور الأكبر في تفريخ الإرهابيين؟ لماذا لم نرَ الإرهاب كظاهرة في دول إسلامية مثل ماليزيا بينما رأيناها في بيئات أخرى تشترك جميعها في نفس مقومات الإرهاب؟ مع العلم أن المسلم الماليزي والمتطرّف يقرأان نفس النص الديني، وهنا سيحدثنا علماء الاجتماع عن الدوافع النفسية التي تحرك من يقومون بالعمليات الإرهابية بعيدًا عن تركيز المشكلة على النص الديني الذي يُقرأ بنظارة فصّلها الإرهابي تفصيلًا يناسب تكوينه النفسي المتطرّف، فهل النصّ الديني مسؤول عن ذلك؟ وهذا ينطبق على كل من قتل إنسانًا باسم الدين، والأمثلة على ذلك لا تنحصر؛ الحروب الصليبية، الحرب الأهلية اللبنانية، والأيرلندية.

سابعًا: هناك نصوص دينية تحضّ على القتل والقتال والمدافعة، لم ينكر ذلك أحد، لكن لماذا نسلخ هذه النصوص من سياقها التاريخي حيث كانت موجهة إلى أناس ظُلموا وقُتلوا وهُجروا فقط لأنهم غيروا دينهم؟ فهل نريد من النصّ الديني أن يطلب منهم حين يحمى الوطيس وتنهال على الناس سهام الموت أن يسلموا خدودهم الحمر لظالميهم وقت المعركة ولا يدافعوا عن أنفسهم ولا عن أعراضهم وأموالهم؟

فلنكن منصفين ولنتساءل ماذا سيفعل اللاديني حين يهجم عليه أحد اللادينيين ليقتلع عينيه؟ هل هو بحاجة إلى نصّ ديني يبرّر له قطع يد من يريد اقتلاع عينه أو حتى قتله؟ أوَ ليس من حقه أن يدافع عن نفسه بكل ما أوتي من قوة؟ فسواء وُجد النصّ الديني أو لم يوجد فإن الفعل الدفاعي سيكون واحدًا، لكن الإشكال حصل عندما تخيل صاحب النص الديني أن له حق ممارسة هذا الفعل الدموي في كل لحظة راق له ذلك، وليست هذه خطيئة النص الديني، بل خطيئة من تطرّف في فهم النص، تمامًا كمن بالغ في أخذ مُسكنات (البنادول) فسبب له ذلك فشلًا في الكبد استدعى نقل كبد جديدة له، فهل الخلل في (البنادول) أم الخطأ فيمن أساء فهم حقيقة (البنادول)؟

ثقافة الآخر

يعتقد البعض أن اليابان نجحت اقتصاديًّا بسبب الثقافة الكونفشيوسية التي تحضّ على الولاء والجدّ في العمل والتعليم والتدبير والتعاون وطاعة السلطة، لكن وقبل المعجزة الاقتصادية في شرق آسيا، كان الناس يرون الكونفشيوسية على العكس من ذلك تمامًا، فقد كانوا يرونها تعيق مبدأ سيادة القانون بسبب تعاليم كونفوشيوس التي تحبّذ سياق الناس إلى النظام بالفضيلة والأخلاق الذاتية لا بالقانون الخارجي الصارم. هناك من يلوم الكونفشيوسية على تخلف المنطقة الأسيوية بسبب تثبيطها الناس عن امتهان التجارة ودراسة الهندسة، ويعيبون عليها تأييدها لوجود نظام طبقي يضمّ الحكام والعسكريين المحترفين في أعلاه ويضم في الطبقة الثانية المزارعين -الذين قد يرتقون إلى الطبقة العليا إن اجتازوا اختبار الخدمة المدنية- ثم الحرفيين والتجار الذين لم يكن مسموحًا لهم التقدم إلى الاختبار من الأساس. أما الكونفشيوسيّون في كوريا فكانوا يقضون على الفصائل المناوئة لهم بسؤالهم عن الفترة الزمنية التي ينبغي أن يقضيها الملك مرتديًا ثياب الحداد على وفاة أمه، هل هي سنة أم ثلاث سنين؟

يُخيل إلى البعض أن ثقافة المسلمين اليوم تعوق التنمية الاقتصادية لكونها ثقافة مستغرقة في الحياة الآخرة مما يجعلهم أقل اهتمامًا بالإنتاجية مع وجود نزعة عسكرية متمثلة في الجهاد. يُغفل هذا الاتهام السطحي أن التراث العربي والإسلامي قدّم خدمات كبيرة إلى علوم الطب والعلوم والرياضيات والفلسفة بشكل خاص والحضارة الإنسانية بشكل عام، وأن أغلب مجتمعات المسلمين كانت أكثر تسامحًا من المجتمعات المسيحية التي دفعت اليهود إلى الهرب من إسبانيا في عام ١٤٩٢ إلى دول يحكمها مسلمون لمعرفتهم أنهم أكثر المجتمعات تقبلًا للآخر في تلك الحقبة التاريخية.

أية صورة هي الكونفشيوسية الحقيقية؟ وأية صورة هي الإسلام الحقيقي؟ جواب هذا السؤال يعتمد على تأويلك لعناصر الثقافة في المجتمع الذي تريد تقييمه، العنصر الثقافي الواحد ممكن تأويله بوصفه إيجابيًا أو سلبيًا وفقًا للنتيجة التي تريد الحصول عليها، وإذا كنت متحيزًا فستقوم ببلورة المواد الخام للثقافة بطريقة تؤدي حتمًا إلى ما تراه فيها مُسبقًا.

ولو سردنا الأمثلة الناقضة للأفكار السلبية حول الثقافات المختلفة فإنه لن يكفي هذا الكتاب للحديث عنها، فهناك دول متمسكة بالثقافة الإسلامية، ومع ذلك فإنها في مصاف الدول المتقدمة اقتصاديًا وعلميًا وطبيًا، وكل ما هو تعميم وتنميط سلبي يتلاشى أمامها، لكن إن أصررنا على وضعها في قالب العنف والتدمير بسبب ممارسات شاذة، فإن الطاولة ستنقلب على جميع الثقافات العالمية التي لا تخلو من وجهٍ حسن شائع ووجهٍ بشع منزوٍ في إحدى زوايا التاريخ المظلمة، ويكون الخيار لأتباع تلك الثقافة إذا ما أرادوا إبراز الوجه الذي يريدون منه أن يكون النموذج الذي يمثلهم أمام العالم.

انحياز أم تجرد؟

كتب (تولستوي) في عام ١٨٩٧: «أعرف أن معظم الرجال الذين يحلّون أكثر المشاكل تعقيدًا، من الصعب أن يتقبلوا الحقيقة الواضحة كوضوح الشمس إذا كانت ستضطرهم إلى

تخطئة استنتاجاتهم التي علموها للآخرين، والتي خاطوها حول نسيج حياتهم»، صارت هذه المقولة تُترجم في علم النفس إلى ما يسمى بـ«التأييد الانحيازي» (Confirmatory Bias) الذي يدفع الناس إلى تفضيل تصديق المعلومة التي تؤيد اعتقاداتهم السابقة بدلًا من تصديق مسلَّمة تعارض هذه الاعتقادات.

بعد أحداث ١١ سبتمبر صار العالم يرى أن منبع الإرهاب والقتل والدماء هو الإسلام والمسلمون، وأخذ البعض يستحضر أقوال مستشرقين سابقين بثوا في كتبهم المؤلفة في القرنين الثامن والتاسع عشر أن محمدًا عليه السلام لم ينشر دينه إلا بحدّ السيف، وأنه وأصحابه غزوا العرب والفرس والروم والفرنجة والهند والصين والعالم وسفكوا من دمائهم ما الله به عليم.

ثم تسرّبت هذه الفكرة إلى قرارة نفس بعض المسلمين، فتارة ترى أحدهم يروج أن آية السيف نسخت ١٥٠ آية أخرى تدعو إلى الصفح والعفو والعدل والبرّ مع المخالفين، مع أنه لا وجود لكلمة «سيف» في القرآن الكريم، وصار بعض المنتسبين إلى الإسلام -كالقاعدة ومفرزاتها- يمارسون الدعوة إلى الإسلام باستخدام السيف والرشاش والقنابل. تحول الإسلام والمسلمون إلى موقع الدفاع الدائم، وصار المستشرقون دائمًا يذكّرونهم بغزو الرسول مكة وينسون معركة الخندق التي حوصر فيها المسلمون ذلك الحصار الخانق، يذكّرونهم بمعركة اليرموك التي هاجم فيها المسلمون الروم وينسون معركة مؤتة التي كان سببها قتل مبعوث الرسول عليه السلام ومحاولة غزو المدينة، يذكّرونهم بالقادسية التي غزا فيها المسلمون الفرس وينسون محاولة الفرس خطف الرسول من المدينة لتقديمه إلى كسرى في المدائن.

بعيدًا عن العواطف المليئة بالانحياز التأييدي، دعونا نستنطق الأرقام فهي أصدق إنباءً من الكتب، فلنعمل إحصائية للناس الذين قُتلوا في عهد الرسول ونقارنها بمثيلاتها في التوراة، لأن المستشرقين يجعلون حروب المسلمين حروب غزو وسبي ومتعة، بينما حروب الأوروبيين كانت حروبًا مقدسة وتعليمية وتنويرية. من بين ٢٩ غزوة قادها رسول الله

بنفسه و٣٨ سرية بعثها، فإن مجموع قتلى المسلمين وأعدائهم لم يتعدّ الـ ٣٨٦ قتيلًا طوال ٢٣ سنة من النبوة.

أما ضحايا حروب اليهود ضدّ غيرهم في التوراة فقد بلغت أكثر من مليون و٦٠٠ ألف من غير اليهود، بالإضافة إلى أكثر من ٣٥٠ ألف من اليهود قضوا إما في حروب داخلية أو في حروب مع غيرهم. في الحرب العالمية الثانية بلغ ضحايا الحرب ٦٢ مليون نسمة، أي ما يقارب ٢٪ من سكان العالم في ذلك الوقت، كانت هذه الحرب بين دول الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وأمريكا وروسيا) التي كانت كلها مسيحية، في مواجهة دول المحور (إيطاليا وألمانيا واليابان) التي هي الأخرى كلها مسيحية، ما عدا اليابان فهي شنتوية-بوذية.

إنها أكبر مذبحة حصلت في التاريخ الإنساني، والأطراف التي شاركت فيها كلها مسيحية تقريبًا، فهل للمسلمين في هذه الحروب المدمرة ناقة أو جمل؟ وهل هم من أمر بقتل اليهود باستخدام الأفران؟ وهل هم من أمر بخنق الأسرى في غرف الغاز؟ وهل هم من أمر بقتل المعاقين والعجائز لأنهم يعيقون عجلة تقدم المجتمع؟ وهل هم من أمر بقذف قنابل نووية على اليابان أودت بحياة أكثر مئتي ألف إنسان؟

الهجرة والتطرّف

في عصر ما قبل الحداثة لم يكن يُسمح للغرباء بالمكوث لفترة طويلة من الزمن، وكانوا يُطاردون أو يُمنعون من عبور أبواب المدينة إلا إذا تمكنوا من نسج شبكة من العلاقات مع أهل تلك المدينة. اليوم أصبح الغريب مكوِّنًا دائمًا من مكونات حياة المدينة كما يقول (زيجمونت باومان) في كتاب (الحب السائل)(١١٨)، وصار وجوده سببًا في زيادة اللايقين الدائم عند سكّان المدينة لكونه مصدر قلق لا ينتهي، الغرباء يمثلون عدم الألفة والتباس المخاطرة والتهديد. إن التعايش معهم في مكان واحد هو أمر يصعب التملّص منه لأنه مصير محتوم في هذا الزمن.

ظلت الهجرة الجماعية جزءًا من الحداثة والتحديث، تألّف التاريخ من ثلاث موجات ألّفت معًا تاريخ الهجرة الحديثة، الأولى هي هجرة ستّين مليون أوروبي من المنطقة التحديثية الوحيدة في العالم في ذلك الوقت إلى الأراضي الفارغة التي تجاهلوا سكانها الأصليين لتحقيق رسالة الرجل الأبيض. الثانية الهجرة إلى مناطق الدول الإمبراطورية مع المستعمر بعد سقوط مستعمراتهم، واندمج الوافدون الجدد في الأمة بعد تحويلهم إلى رعايا الحروب الثقافية والرسالات التبشيرية. الموجة الثالثة هي أرخبيل المستوطنات العرقية والدينية واللغوية والتي سارت للبحث عن مصادر العيش وفرص البقاء كما يقول (باومان) في كتابه الآخر (الثقافة السائلة)(١١٩).

دائمًا ما تواجه أوروبا هواجس الخوف من استقبال ودمج المهاجرين في مجتمعاتها، تريد الطبقة السياسية تجنّب حدوث انهيار سياسي أو أحداث عنف بين الأغلبية والأقلية خصوصًا إذا ما تشكلت مدن ضخمة في ضواحي العواصم الأوروبية والتي قد تستجلب بعض المخاطر الأمنية إلى السكان الأصليين وقد تعيد تشكيل اصطفاف المواطنين على أساسٍ عرقي بحت. إضافة إلى أن بعض الأوروبيين لا يعرفون الإسلام إلا من خلال الاضطرابات المستمرة والحروب الأهلية والحوادث الإرهابية في الشرق الأوسط، رغم أن الحضارة الإسلامية رفضت الأصولية في العصور الوسطى باعتراف مفكرين محافظين مثل (روس داوثت)، الذي رأى أن مستقبل الإسلام موجود في ماضيه(١٢٠)، فاعتبار كليشهات «داعش» القروسطية ممثلة للإسلام لا تناسب واقع العالم الإسلامي.

كم رأينا في أوروبا فئة من المهاجرين الذين قُبلت طلبات لجوئهم، لأسباب تشمل في ظاهرها الضيق من أوضاع بلادهم السياسية والاقتصادية وتشمل في باطنها نقمة على الغرب وتحميله أوزار تردي المعيشة عندهم، وعند وصول المهاجرين تؤمن الدول المستضيفة حياتهم الاجتماعية بشكل كامل، ثم يُسمح لهم باعتلاء منابر مشبوهة تعمل على تحضير المتطرّف على مرأى ومسمع العالم الحقيقي والافتراضي، بدعوى حرية الرأي والتعبير، وكأن الإرهاب هو عبارة عن تفجير حزام ناسف فقط وليس عملية فكرية طويلة

الأمد تُحضر الفرد لنسف الحياة في اللحظة المناسبة، فهل يتحمل الإسلام والمسلمون قرار استضافة تلك الألغام المؤقتة؟

يحاول اليمين في أوروبا ربط مشكلة التطرّف بالدين الذي ينتمي إليه المهاجرون، ولطالما رُبط الإسلام بما ترتكبه فئة قليلة من المهاجرين لأسباب اقتصادية واجتماعية تمسّ بشكل مباشر البلد الذي يعيشون فيه، الدين يربط المهاجرين عبر الزمن ويسمح لهم بأن يصبحوا جزءًا من سلسلة ذكريات مع من يشاطرونهم الدين في الماضي والحاضر والمستقبل.

في بحثهما عن (الهجرة والدين) نقل (ويندي كادج) و(هوارد إيكلند) نتائج مهمة في علم الاجتماع التطبيقي، لاحظ الباحثون أن الهويات الدينية في الولايات المتحدة أكثر بروزًا عند المهاجرين منها في مواطنهم الأصلية(١٢١)، ربما بسبب دور الدين في الحفاظ على الهوية الإثنية، فمثلًا، سهلت الهندوسية عملية انتقال أبنائها من كونهم هنودًا إلى كونهم أمريكان عن طريق تمكينهم من تأكيد اعتزازهم بالتقاليد الهندوسية، ومن ثم اعتبار هذا الأمر طريقة للمطالبة بموقع أفضل في الخريطة الأمريكية متعددة الثقافات.

لاحظ الباحثون أن انخراط الناس في المنظمات الدينية يقودهم إلى الانخراط أكثر في مجتمعاتهم الإثنية وغير الإثنية، وقد يلعب الدين دورًا في دعم وإنماء التزامات إيديولوجية معينة مع الأحزاب السياسية. كذلك لوحظ أن الجيل الثاني من المهاجرين يكونون أقل تدينًا من والديهم، وأن أبناء الجيل الثالث يعودون إلى دينهم كطريقة لتمييز أنفسهم عن الآخرين. ويرى باحثون أن الجيل الثاني سيفاوض على علاقته مع الجيل الأول ويجمع رأسمالًا ثقافيًا واجتماعيًا يقوده إلى نجاحات اقتصادية وتربوية. إن عملية التنقل بين التمسك بالدين والتشدد فيه تحكمها اعتبارات عديدة، فالمهاجر -مهما كان أصله أو منشؤه- يحمل معه معتقدات ثقافية تختلف عن البلد الذي انتقل إليه، وقد يحمل معه جرحًا في داخله من الممكن أن يكون هدفًا سهلًا للجماعات المتطرّفة التي تخصصت في استثمار الجروح غير المندملة.

عندما يقع حادث إرهابي يحمل العالم المنطقة العربية مسؤولية ما حصل، وكأن تلك المناطق لم تعانِ الأمرين من شرر المتطرّفين والإرهابيين قبل نجاحها في تجفيف منابعهم، هنا تنتقل المسؤولية إلى الدول التي وفّرت سبل الاستضافة والراحة للخلايا النائمة بدلًا من تسميمها والتخلص منها، فليتحمل كل منّا مسؤوليته ولنتوقف عن اختزال وإزاحة تلك المسؤوليات إن كنّا نريد لمكاسب الحضارة الإنسانية أن تستمر وتتطور.

الهوامش

1. (المجتمع المنحط: كيف صرنا ضحايا نجاحاتنا؟)/روس داوثت/ طبعة دار صفحة سنة ٢٠٢١.
2. (العلم الزائف وادعاء الخوارق: أدوات المفكر النقدي)/جوناثان سي. سميث/طبعة المركز القومي للترجمة سنة ٢٠١٦.
3. (تناقضات المؤرخين: دراسة في تاريخ زماننا)/ بيتر تشارلز هوفر / طبعة المركز القومي للترجمة سنة ٢٠١٣.
4. (التطور البيولوجي للعقل والسلوك الدينيين)/إيكارتفولاند وولف شيفن هوفل طبعة المركز القومي للترجمة سنة ٢٠١٥.
5. (إنكار الموت)/ إرنست بيكر / طبعة منشورات نابو سنة ٢٠٢١.
6. (٢١ درسًا للقرن ٢١)/ يوفال نوح هراري / طبعة دار ألكا سنة ٢٠٢١.
7. (السامريون الأشرار) / ها جون تشانغ/طبعة دار الكتب خان سنة ٢٠١٥.
8. (أشهر ٥٠ خرافة في علم النفس) /سكوت ليلينفيلد وستيفن جاي لني. وجون روشيو وباري باير ستاين/ طبعة كلمات عربية للترجمة والنشر سنة ٢٠١٣.
9. (بن لادن والعقل العربي: كيف فكر العرب بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟) / شاكر النابلسي / منشورات الجمل / الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٧.
10. (القاعدة: التنظيم السري) /عبدالباري عطوان / دار الساقي الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٩.
11. (الانتحاريون: دراسة نفسية حول فهم الإرهاب الانتحاري، مقال «علم نفس الهجمات الإرهابية الانتحارية لـ«جيرولد بوست» وآخرون») / طبعة دار العبيكان سنة ٢٠١٨.
12. (الاستبداد عند خير أمة أخرجت للناس)/ يعقوب محمد إسحق / بيسان للنشر، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٨.
13. (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية)/ ابن قيم الجوزية / طبعة المكتبة التجارية نزار الباز سنة ١٩٩٦.

14. (في ظلال القرآن) / سيد قطب / طبعة دار الشروق سنة ٢٠٠٨.
15. (الفتاوى الكبرى) / ابن تيمية / طبعة نزار الباز سنة ٢٠٠٤.
16. The manual that chillingly foreshadows the Islamic State

https://www.washingtonpost.com/opinions/david-ignatius-the-mein-kampf-of-jihad/2014/09/25/4adbfc1a-44e8-11e4-9a15-137aa0153527_story.html?utm_term=.872235664e07

17. (إدارة التوحش) / أبوبكر ناجي / نسخة موقع وكالة الاستخبارات الأمريكية.

https://www.cia.gov/library/abbottabad-compound/20/207DE0C1094BC68A7061C96629DD5C1A_adara_twahsh.pdf

18. (صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي)/ صامويل هنتنغتون/ طبعة دار سطور ١٩٩٨.
19. (مدخل إلى الإيديولوجيات السياسية) / أندرو هيود / طبعة المركز القومي للترجمة سنة ٢٠٢٠.
20. (الأمير) / نيقولو ميكافيللي / دار الكتاب العربي طبعة سنة ٢٠٠٨.
21. The Artist, the Philosopher, and the Warrior/ Paul Strat-hern/ Published by Bantam 2009
22. (الفلسفة الاجتماعية وأصل السياسة) / محسن صالح / دار الحداثة طبعة سنة ٢٠٠٨.
23. (روح الثورات والثورة الفرنسية) / غوستاف لوبون / دار هنداوي طبعة ٢٠١٣.
24. Leaderless Jihad: Terror Networks in the Twenty-First Century / By Marc Sageman/ Published by University Of Pennsylvania Press, 2008
25. Crenshaw, M. (2007). Explaining suicide terrorism: A review essay.Security Studies, 16(1), 133–162.

26. (القادة وتابعوهم في عالم خطير: سيكولوجية السلوك السياسي) / جيرولد م. بوست / جداول للنشر طبعة سنة ٢٠١٣.
27. (المُفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) جواد علي / دار إحياء التراث العربي طبعة سنة ٢٠١٦.
28. (الخوف من الحرية) إيريك فروم/مكتبة دار الكلمة طبعة سنة ٢٠٠٢.
29. (سوسيولوجيا العنف والإرهاب) إبراهيم الحيدري / دار الساقي طبعة سنة ٢٠١٥.
30. (ظاهرة الحرب) / غاستون بوتول / طبعة دار التنوير سنة ٢٠٠٧.
31. (تاريخ ابن خلدون) / طبعة دار الأفكار الدولية.
32. (الفلسفة الاجتماعية وأصل السياسة) / محسن صالح / دار الحداثة طبعة سنة ٢٠٠٨.
33. https://www.britannica.com/topic/divine-right-of-kings
34. (كفاحي) / أدولف هتلر/طبعة دار الأهلية سنة ٢٠١٦.
35. (انتكاسة الانتفاضة العربية)/ جلبير الأشقر/ دار الساقي طبعة سنة ٢٠١٦.
36. (أثر العلم في المجتمع) / برتراند رسل / دار تكوين طبعة سنة ٢٠٠٥.
37. (٥٠ فكرة يجب أن تعرفها عن الأفكار العظيمة)/بن دوبريه/ المكتب المصري للمطبوعات طبعة سنة ٢٠١٢.
38. (قراءة النص الديني عند محمد أركون) / عبد المجيد خليقي/طبعة منتدى المعارف سنة ٢٠١٠.
39. (سوسيولوجيا العنف والإرهاب)/إبراهيم الحيدري/دار الساقي طبعة سنة ٢٠١٥.
40. (الهجرة إلى الإنسانية)/فتحي المسكيني/إصدار مشترك من كلمة والرباط ومنشورات الاختلاف وضفاف سنة ٢٠١٦.
41. (العنف: مختارات فلسفية)/فيتوريو بوفتشي/طبعة المركز القومي للترجمة سنة ٢٠١٧.
42. Psychological features of extreme political ideologies / January 2019

https://journals.sagepub.com/doi/full/10.1177/096372 1418817755

43. (فقه الفلسفة)/روجيه بول دروا /دار الفرقد طبعة سنة ٢٠١٤.
44. (قلق السعي إلى المكانة)/آلان بوتون/دار التنوير طبعة سنة ٢٠٢٠.
45. (إنكار الموت) / إرنست بيكر / طبعة منشورات نابو سنة ٢٠٢١.
46. Alfred Adler’s Theories of Individual Psychology and Adlerian Therapy, https://www.simplypsychology.org/alf red-adler.html
47. Freud’s Theories of Life and Death Instincts, https://www.verywellmind.com/life-and-death-instincts-2795847
48. Bateson P, Gluckman P, Hanson M. The biology of developmental plasticity and the Predictive Adaptive Response hypothesis. J Physiol. 2014 Jun 1;592(11):2357-68.doi: 10.1113/jphysiol.2014.271460. PMID: 2488 28 17; PMCID: PMC4048093.
49. (الانتحاريون: دراسة نفسية حول فهم الإرهاب الانتحاري، مقال هل الإرهابيون الانتحاريون هم انتحاريون؟ لـ بروس بونغر ويوري كوغل وفيكتوريا كندريك)/طبعة دار العبيكان سنة ٢٠١٨.
50. (سيكولوجية العنف: أصول الدافع الإجرامي البشري)/كولن ولسون / طبعة الدار الأهلية سنة ٢٠٠٦.
51. Charles Whitman: https://www.biography.com/political-figure/charles-whitman
52. (سوسيولوجيا العنف والإرهاب) إبراهيم الحيدري/دار الساقي طبعة سنة ٢٠١٥.
53. (الخوف من الحرية) / إيريك فروم / مكتبة دار الكلمة طبعة سنة ٢٠٠٢.
54. (كفاحي) / أدولف هتلر/ طبعة دار الأهلية سنة ٢٠١٦.
55. داعش يطور عقار «كبتاجون» ليمنح مقاتليه تأثير المخدرات:

https://al-ain.com/article/isis-captagon-dangerous

56. Freud’s Theories of Life and Death Instincts,
https://www.verywellmind.com/life-and-death-instincts-2795847
57. Clare, A. W. (1969). Is Aggression Instinctive? Konrad Lorenz’s Theories Re-Assessed. Studies: An Irish Quarterly Review, 58(230), 153–165. http://www.jstor.org/stable/ 30088674
58. (الانتحاريون: دراسة نفسية حول فهم الإرهاب الانتحاري، مقال «الإرهاب الانتحاري: ترسيم البنية لـ سواتيموخرجي وآخرون» ومقال «شرح الإرهاب الانتحاري: مقاربة نفسية لـ لويس إيبانييس» ومقال «التفجيرات الانتحارية: مقتل القاتل أم سلاح حرب لرياض حسن») /طبعة دار العبيكان سنة ٢٠١٨.
59. (سيكولوجية العنف: أصول الدافع الإجرامي البشري) /كولن ولسون / طبعة الدار الأهلية سنة ٢٠٠٦
60. Lebensraum: https://encyclopedia.ushmm.org/content/en/article/lebensraum
61. (الانتحار) / إميل دوركايم / الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١١.
62. The science behind Isil’s savagery by / Ian Roberston 2014

https://www.telegraph.co.uk/comment/11041338/The-science-behind-Isils-savagery.html

63. Motivation and personality/ by Abraham Maslow / publi-shed by Pearson 1997
64. (خراب: بحث عن الأمل) /«مارك مانسون»/طبعة دار التنوير سنة ٢٠١٩.
65. (دماغ المراهقين)/فرنسيس جينسين /طبعة الدار العربية للعلوم ناشرون سنة ٢٠١٤.
66. Groupthink psychological studies of policy decisions and fiascoes / by Irving Janis / Published by Wadswoth 2013

67. Ethnic Norms and Their Transformation Through Reput-ational Cascades / By Timur Koran / published 1998

https://www.jstor.org/stable/10.1086/468038

68. (سيكولوجية نظريات المؤامرة) / جان ويليم فان بروجين / طبعة صفحة ٧ سنة ٢٠٢١

(القادة وتابعوهم في عالم خطير: سيكولوجية السلوك السياسي) / جيرولد م. بوست / جداول للنشر طبعة سنة ٢٠١٣.

69. Van Prooijen JW, van Vugt M. Conspiracy Theories: Evolved Functions and Psychological Mechanisms. Per-spect Psychol Sci. 2018 Nov; 13 (6): 770 - 788. doi: 10. 1177/1745691618774270. Epub 2018 Sep 19. PMID: 3 0231213; PMCID: PMC6238178.

70. Britannica, The Editors of Encyclopaedia. "Iran-Contra Affair". Encyclopedia Britannica, 6 May. 2021, https://www.britannica.com/event/Iran-Contra-Affair. Accessed 25 July 2022.

71. The Tuskegee Timeline: https://www.cdc.gov/tuskegee/ti meline.htm

72. (القادة وتابعوهم في عالم خطير: سيكولوجية السلوك السياسي) / جيرولد م. بوست / جداول للنشر طبعة سنة ٢٠١٣.

73. How to cure a Fanatic / By Amos Oz / Published by Prin-ceton University Press 2006

74. (نظرة في أعماق الشخصية)/ توما جورج خوري / طبعة مجد المؤسسة الجامعية للدراسات سنة ٢٠١٠.

75. (أسباب وجيهة للمشاعر السيئة) / راندولف إم نيس / طبعة دار التنوير سنة ٢٠٢١.

76. Clinical psychology, 7th edition, by Timothy J. Trull, 2005 wadsworth, a division of Thomson Learning, Inc.
77. (دراكولا) / برام ستوكر / طبعة منشورات تكوين سنة ٢٠٢٠.
78. (نظريات علم الجريمة) / عايد البريكات / طبعة دار الشروق سنة ٢٠٠٧.
79. (الانتحاريون: دراسة نفسية حول فهم الإرهاب الانتحاري، مقال «الإرهاب الانتحاري: ترسيم البنية ل سواتيموخرجي وآخرون» ومقال «شرح الإرهاب الانتحاري: مقاربة نفسية لـ لويس إيبانييس» ومقال «التفجيرات الانتحارية: مقتل القاتل أم سلاح حرب لرياض حسن») / طبعة دار العبيكان سنة ٢٠١٨.
80. (المجتمع المنحط: كيف صرنا ضحايا نجاحاتنا؟) / روس داوثت / طبعة دار صفحة سنة ٢٠٢١.
81. The Gift of Fear: Survival Signals that Protect us from Violence / By Gavin de Becker / Published by Bloomsbury Publishing PLC 2000.
82. (التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور)/ مصطفى حجازي / طبعة المركز الثقافي العربي سنة ٢٠١٣.
83. (البشرية تفقد الذاكرة)/إيمانويل فليكوفسكي/طبعة العروبة للدراسات والأبحاث سنة ٢٠٠٣.
84. =(الانتقام: موجز في القصاص)/ستيفن فاينمن/طبعة دار كلمة سنة ٢٠١٩.
85. (المقصلة) / ألبير كامو / دار المدى طبعة سنة ٢٠١٤.
86. (سيكولوجية المتطرّف الانتحاري) / عبد الودود خربوش / مجلة شبكة العلوم النفسية العربية عدد شتاء وربيع ٢٠١٠.
87. (مفهوم الانتحار ومفهوم الشهادة والاستشهاد) / عبد الله إبراهيم / طبعة دار التنوير سنة ٢٠١٥.
88. (قراءة في كتاب الانتحار لإميل دوركايم) / رشيد جرموني/ موقع حكمة الإلكتروني ٢٠١٥.
89. (الانتحار) / إميل دوركايم / طبعة الهيئة العامة السورية للكتاب سنة ٢٠١١.

90. (أسباب وجيهة للمشاعر السيئة) / راندولف إم نيس / طبعة دار التنوير سنة ٢٠٢١.
91. (الانتحاريون: دراسة نفسية حول فهم الإرهاب الانتحاري، مقال علم النفس التطوري للإرهاب الانتحاري لـ«جيمس ليدل» و«تود شاكلفورد») / طبعة دار العبيكان سنة ٢٠١٨.
92. (شهداء الله الجدد في سوسيولوجيا العمليات الانتحارية) / فرهاد خسرو / طبعة دار المدى سنة ٢٠٠٧.
93. (الانتحاريون: دراسة نفسية حول فهم الإرهاب الانتحاري، مقال هل الإرهابيون الانتحاريون هم انتحاريون؟ لـ بروس بونغر ويوري كوغل وفيكتوريا كندريك) / طبعة دار العبيكان سنة ٢٠١٨.
94. (٥٠ فكرة يجب أن تعرفها عن علم النفس) / أدريان فيرنهام / طبعة المكتب المصري للمطبوعات سنة ٢٠١٤.
95. (الجنس البشري: مستقبل مفعم بالأمل)/روتجر بريجمان / دار التنوير ٢٠٢٢
96. (كتاب الأسرار) / ديباك شوبرا / طبعة دار الفرقد ٢٠١٥.
97. (النازية في ضوء علم النفس) / كارل يونغ / طبعة المؤسسة الجامعية للدراسات سنة ١٩٩٢.
98. (كيف تصنع الطاعة: وجهة نظر علمية عن التسلط) / ستانلي ميلغرام / طبعة منشورات نصوص ٢٠٢٢.
99. (حيونة الإنسان) / ممدوح عدوان / طبعة دار ممدوح عدون للنشر سنة ٢٠١٦.
100. (سيكولوجية الجماهير) / غوستاف لوبون / طبعة دار الساقي سنة ٢٠١١.
101. (كفاحي) / أدولف هتلر/ طبعة دار الأهلية سنة ٢٠١٦.
102. علم النفس السياسي / مجموعة مؤلفين / دار التكوين / طبعة سنة ٢٠١٢.
103. Simonson, Peter. (2001). Social noise and segmented rhythms: News, entertainment, and celebrity in the crusade for animal rights. The Communication Review. 4. 399-420. 10.1080/10714420109359476.

104. (الطريق إلى التطرّف)/كاس سينشتاين/طبعة المركز القومي للترجمة سنة ٢٠١٥.
105. Leaderless Jihad: Terror Networks in the Twenty-First Century / Marc Sageman / Published 2008 by University of Pennsylvania Press
106. (فضائح الباطنية) / أبو حامد الغزالي / طبعة مؤسسة دار الكتب الثقافية ١٩٦٤.
107. (التطور الثقافي في العصر الرقمي) / ألبيرتو أتشيربي / طبعة الدار العربية للعلوم ناشرون سنة ٢٠٢١)
108. (المؤمن الصادق: أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية) / إريك هوفر / طبعة مكتبة العبيكان سنة ٢٠١٠.
109. (عودة التاريخ) / يوشكا فيشر / طبعة العبيكان وكلمة سنة ٢٠٠٩.
110. (القادة وتابعوهم في عالم خطير: سيكولوجية السلوك السياسي) / جيرولد م. بوست / جداول للنشر طبعة سنة ٢٠١٣.
111. (العسل والدم: من عنف الدولة إلى دولة العنف) / فاضل الربيعي / دار الفرقد الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٨.
112. (في الشائعات) /كاس سانستين /شركة المطبوعات للتوزيع والنشر طبعة سنة ٢٠١١.
113. (التحول الكبير: بداية تقاليدنا الدينية) /كارين آرمسترونغ / طبعة دار الفرقد سنة ٢٠١٦.
114. (الانتحاريون: دراسة نفسية حول فهم الإرهاب الانتحاري، مقال «علم النفس التطوري للإرهاب الانتحاري لـ «جيمس ليدل» و«تود شاكلفورد») / طبعة دار العبيكان سنة ٢٠١٨.
115. (الإسلام والانغلاق اللاهوتي) / هاشم صالح / طبعة دار الطليعة للطباعة والنشر سنة ٢٠١٠.
116. (القادة وتابعوهم في عالم خطير: سيكولوجية السلوك السياسي) / جيرولد م. بوست / جداول للنشر طبعة سنة ٢٠١٣.
117. (٢١ درسًا للقرن ٢١) / يوفال نوح هراري / طبعة دار ألكا سنة ٢٠٢١.
118. (الحب السائل)/زيجمونت باومان/ طبعة الشبكة العربية للأبحاث والنشر سنة ٢٠١٩.

119. (الثقافة السائلة)/زيجمونت باومان/طبعة الشبكة العربية للأبحاث والنشر سنة ٢٠١٩.
120. (المجتمع المنحط: كيف صرنا ضحايا نجاحاتنا؟)/ روس داوثت/ طبعة دار صفحة سنة ٢٠٢١:
121. (دراسات معاصرة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا لمجموعة مؤلفين/دراسة «الهجرة والدين» لـ«ويندي كادج» و«هوارد إيكلند») / طبعة دار جداول سنة ٢٠١٣.

السيرة الذاتية

- مواليد مدينة خورفكان في دولة الإمارات العربية المتحدة.

- كاتب وطبيب، مهتم بالقضايا الفكرية والاجتماعية.

- خريج الكلية الملكية للجراحين في إيرلندا بكالوريوس طب وجراحة في عام ٢٠٠٩.

- حاصل على شهادة البورد العربي في الأمراض الداخلية والباطنية من مدينة الشيخ خليفة الطبية في أبو ظبي في عام ٢٠١٥.

- استشاري أمراض باطنية ونائب رئيس جمعية الإمارات للأمراض الباطنية منذ عام ٢٠١٩.

- حاصل على ماجستير القيادة في التعليم الطبي من الكلية الملكية للجراحين في إيرلندا وجامعة الشارقة ٢٠١٧.

- حاصل على شهادة دبلوم في السمنة والمحافظة على الوزن من جامعة ساوث ويلز البريطانية ٢٠١٩-٢٠٢٠

- يكتب منذ عام ٢٠١٠، له عدة مقالات فكرية واجتماعية في الصحف الإماراتية والعربية والإلكترونية مثل الحياة والخليج والشرق وموقع ٢٤.

- قدم برنامجاً طبياً (وصفة) في إذاعة الشارقة في عام ٢٠١٤ استضاف فيه مجموعة من الأطباء الإماراتيين والعرب من مختلف التخصصات الطبية للحديث عن الأمراض الشائعة في المجتمع وطرق الوقاية منها.

- تم اختياره كشخصية مؤثرة وملهمة للتحدث في «TED» الذي أقيم في كلية الطب في جامعة الإمارات في عام ٢٠١٤.

- تم اختياره من ضمن المئة المثقف في خلوة القراءة في عام ٢٠١٦ برعاية مجلس الوزراء في دولة الإمارات.

- اختير ليكون المتحدث الرسمي باسم الإحاطة الإعلامية لحكومة الإمارات حول مرض كوفيد ١٩ بين ٢٠٢٠-٢٠٢١.

صدر له:

- (٣٧ درجة مئوية : أوراق طالب طب)، من دار كتّاب للنشر ٢٠١٢.
- (الصراع مع غراندايزر: نصوص في التنمر الإلكتروني)، من دار كتّاب للنشر ٢٠١٧.
- (التعددية في الخليج وجواره... الواقع والآفاق)، شارك بورقة بحثية حول التعددية الثقافية والدينية في دولة الإمارات. دار المسبار ٢٠١٥.
- (٥٠ فكرة يجب أن تعرفها عن الطب) من دار ثقافة / الدار العربية للعلوم ناشرون ٢٠١٨.
- (نقد الطب النبوي)، من دار تكوين ٢٠٢٠.
- (الاجتياح: كورونا، ماذا حصل؟ وكيف يبدو المستقبل) من مركز أبو ظبي للغة العربية التابع لدائرة الثقافة والسياحة في أبو ظبي ٢٠٢١.

1. الغلاف
2. البقاء للأعنف
3. إهداء
4. التطرّف
5. ولادة التوحُّش
6. الإرهاب عبر التاريخ
7. ظاهرة الحرب
8. الفلسفة والعنف
9. سرداب العنف
10. دماغ الإرهابي
11. انتحار المتطرّف
12. الانتحاري في حاجة إلى مؤسسة
13. تجربة سجن (ستانفورد)
14. تجربة ميلغرام
15. سيكولوجية الجماهير
16. التطرّف والدين
17. الهوامش